

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

تاريخ اليهود في بلاد العرب

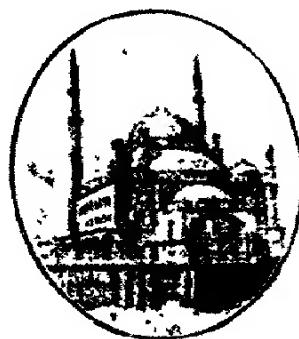
في الجاهلية وصدر الإسلام

تأليف الدكتور

اسرائيل ولفنسون

(ابو ذؤيب)

استاذ اللغات السامية بدار العلوم



« حقوق الطبع محفوظة »

مطبعة الإعتماؤ بشانج حيسن الأكبر

١٩٢٧ — ١٣٤٥

مقدمة

للمفكرة الأستاذ الكبير والنقادة السرمبر الدكتور طه مـبن

الدكتور اسر ائيل ولقنسون عالم شاب يسرنى أن أكون أنا مقدمه الى جمهور المستنيرين من الذين يكلفون بالبحث عن الأدب والتاريخ . أقبل الى مصر وأن له لثقافة متينة منوعة ، قد اتقن من اللغات الأوروبية الحية أرقاها وأمسها بالبحث العلمى التاريخى ولا سيما فيما يتصل بالمسائل الشرقية العربية ، وأتقن من اللغات السامية أغناها بالآثار القيمة فى الدين والأدب والعلم ، ولم تقف ثقافته عند اتقان هذه اللغات بل درس من آدابها حظاً موفوراً فكان له مزاج معتدل من هذا القديم السامى والجديد الأوروبى يعدّه أحسن اعداد لتناول المسائل التاريخية والأدبية الرقيقة اذا تهيأت له منهاهج البحث كما ألفها علماء أوروبا فى هذا العصر الحديث . وماهى الا أن انتسب الى الجامعة المصرية القديمة واختلف الى أساتذتها يسمع دروسهم ويعمل معهم حتى تهيأ له من ذاك ما كان يحب . ولقد كان يختلف الى دروسى فى التاريخ القديم فكان يعجبني منه ميل ظاهر الى البحث وحرص شديد على الاجادة والاتقان ونشاط غريب الى القراءة والاطلاع . وكنت أرى فيه عناية خاصة بكل ما يتصل باليهود فى عصور السيطرة اليونانية والرومانية على العالم القديم . فرأيت أن أوجه بحثه هذه الوجهة وأشجعه على المضى فيها .

ولست أنسى محاضرات تمرينية القاها في مثل هذه الموضوعات تركت في نفسي أحسن ما ترك أعمال التلميذ المجدد في نفس استاذة من الأثر . ثم ظفر بشهادة اليسانس في الآداب من الجامعة القديمة وأخذ يستعد لشهادة الدكتوراه فلم يرقه من المباحث التي كانت تثار في الجامعة على كثرتها الا هذا المبحث الذي يتصل دائماً باليهود وهو تاريخ اليهود في بلاد العرب قبل الاسلام وأبان ظهوره

والموضوع في نفسه قيم جليل الخطر بعيد الأثر جدا في التاريخ الأدبي والسياسي والديني للأمة العربية . فليس من شك في أن هذه المستعمرات اليهودية قد أثرت تأثيرا قويا في الحياة العقلية والأدبية للجاهليين من أهل الحجاز . وليس من شك في أن الخصومة كانت عنيفة أشد العنف بين الاسلام ويهودية هؤلاء اليهود وفي أنها قد استحوالت من المحاجة والمجادلة الى حرب بالسيف انتهت باجلاء اليهود عن البلاد العربية . ولم يكن تاريخ هؤلاء اليهود في بلاد العرب قبل الاسلام معروفاً على وجهه ، انما هي طائفة من الأخبار والأحاديث يرويها القصاص في غير تحفظ ولا عناية بالدقة والتحقيق وتكثر فيها المبالغات من الناحية اليهودية والاسلامية لاغراض مختلفة معروفة . وكان المستشرقون قد عرضوا لهذا الموضوع من نواحي مختلفة فوفقوا بعض التوفيق ولكن أخطأهم الأصابة في كثير من الأحيان لأن حظهم من الثقافة العربية السامية لم يكن يعدل حظهم من القدرة على استثمار مناهج البحث الحديث ، فاضطروا الى طائفة من الأغلاط لم يكن منها بد . على أن مباحثهم هذه القيمة كانت وما زالت مجهولة في الشرق العربي لا يلتم بها الا الذين

يتخذون هذا النحو من العام غرضاً يسعون اليه ويقفون عليه جهودهم
فاذا كان عالمنا الشاب قد وفق الى الخير في هذا الكتاب الذى قدمه
الى الجامعة المصرية ونال به شهادة الدكتوراه والذى أقدمه أنا الآن الى
القرّاء سعيداً مغتبطاً فتوفيقه مضاعف ، ذلك لأنه وفق الى تحقيق
أشياء كثيرة لم تكن قد حققت من قبل ، ووفق الى عرض مباحث
المستشرقين حول هذا الموضوع فى اللغة العربية ولم تكن قد عرضت
من قبل . ووفق بعبارة موجزة الى أن يبسط تاريخ اليهود فى البلاد
العربية قبل الاسلام وأبان ظهوره بسطاً علمياً أدبياً لذيذاً ممتعاً فى
كتاب كانت اللغة العربية فى حاجة اليه فأظفرها بهذه الحاجة

واذا كان لى أن أتمنى للدكتور اسرائيل ولفنسون شيئاً فانما أتمنى
له مخلصاً أن يمضى فى عنايته بهذه الناحية من حياة اليهود والصلة بينهم
وبين الأمة العربية بعد الاسلام كما عنى بها قبل الاسلام مهتدياً بهدى
العلم الصحيح الذى لا يعرف ممالة ولا مشايعة ولا يرى للعالم الا
غرضاً واحداً مقدساً هو السعى الى الحق والجد فى الوصول اليه

ط. مسبح

٢٠ يونيو سنة ١٩٢٧

تصدير

ان الذى يدرس تاريخ العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام ليهس حاجة اللغة العربية الى مؤلف خاص فى تاريخ اليهود الذين لا ينكر أحد ما كان لهم من الأثر فى الجزيرة العربية لذلك العهد ، ويعجب كيف حرمت اللغة العربية من مثل هذا المؤلف الى الآن ؟

وأقرب ما يخطر بالبال فى تعليل هذا التقصير هو أن المتأخرين من مؤرخى العرب لم يأموا المأمأ كافياً بتاريخ الجاهلية ، ولولا ذلك لما أغفلوا تاريخ قسم كبير من سكان الجزيرة كان له من الحوادث السياسية والوقائع الحربية والآثار الاجتماعية ما يستوجب أفرادهم بطائفة من المؤلفات ، إذ كان الباحث فى تاريخ الجاهلية يتوقف نجاحه على معرفة تاريخ اليهود فى بلاد العرب عامة وفى الاقاليم الحجازية بوجه خاص

وقد يرجع السبب فى هذا التقصير الى جهل المؤرخين بالنتائج العظيمة التى تترتب على معرفة تاريخ اليهود ، ولو أنهم اهتموا به لوجدوا فى المراجع العربية القديمة مادة غزيرة تمكن الباحث المحقق من سد هذا النقص وتعينه على التثبت من تاريخ العرب فى ذلك الحين

ان للبحث في تاريخ يهود الجزيرة العربية أهمية عظيمة في حل المشكلات التي يتخبط فيها كثير من الناس وإمالة اللثام عن لهجات العرب ودياناتهم وعاداتهم لما بين اليهود والعرب من رابطة الدم ولما بين اللغة العبرية واللغة العربية من التشابه والاقتراب

ومع أنه قد وجدت أمم سامية قبل بنى اسرائيل بآلاف من السنين فان الباحثين يرون في اللغة العبرية وآدابها مقياساً صالحاً للبحث في جميع اللغات السامية ، إذ كان بنو اسرائيل أقدم أمة سامية تركت ميراثاً روحانياً عظيماً في الادب والدين يعتبر اكبر مجموعة قديمة من أثر القرية السامية ، لان الذي وصل اليها من آثار البابليين والاشوريين والآراميين ضئيل جداً بالمقياس الى ما وصل اليها من تراث بنى اسرائيل . . .

على أن اللغة العبرية من أمهات اللغات السامية ، فقد كانت شائعة قبل نشوء بنى اسرائيل وظهورهم في العالم إذ كانت لغة أهل فلسطين الكنعانية ولغة كثير من القبائل في طور سيناء وشرق الاردن ، وكان من أهم تلك الامم بنو أدوم وعمون وموآب وقبائل عماليقية ومديانية واسماعيلية ثم ظهرت بطون بنى اسرائيل بين هذه الاقوام في طور سيناء وأطراف الحجاز وانتشرت منها الى الاقاليم الاخرى^(١) وبقيت هذه اللغة صاحبة السلطان والنفوذ مدة طويلة الى أن ظهر تأثير احدى اللهجات الكنعانية وهي الآرامية ، فأخذت اللهجات العبرية والكنعانية الاصلية

The relation between Arabs and Israelites prior to the rise (١)

تضمحل مع التغييرات السياسية الى أن أصبحت أغلب بطون فلسطين وسوريا والعراق وطور سيناء تتكلم باللهجات الآرامية ثم أخذت هذه اللهجات في القرون الاولى ب. م تتدهور تدريجياً في أطراف الجزيرة العربية ، وأخذت تنكمش وتتضاءل أمام اللغة العربية التي كانت في ذلك الحين تمتد وتنتشر بسرعة حتى اضطرت بعض القبائل الآرامية والعبرية الى أن تختلط بالعنصر العربي الاصلى وتندمج فيه شيئاً فشيئاً^(١)

وقد كنت فكرت في أن أخص أقوام طور سيناء يبحث منفرداً كشف فيه بعض ما غمض من أحوالهم معتمداً على بعض الاخبار التي وصلت اليها من مراجع عبرية ويونانية قديمة ، وعلى بعض الاكتشافات القليلة التي ظهرت حديثاً عن هذه الاقوام البائدة ولكني رأيت أن في هذا خروجاً عن الموضوع الذي نحن بصددده ، فأجلت هذا البحث الى فرصة أخرى . . .

على أن سكان طور سيناء وأطراف الجزيرة العربية من جهة الشمال الذين تعتبر بلادهم كقنطرة طبيعية بين بلاد العرب وبين فلسطين موطن بني اسرائيل ، قد أثروا تأثيراً شديداً في العرب وبني اسرائيل معاً ، فليس في استطاعتنا والحالة هذه أن نوفي موضوعاتنا حقها من البيان والتفصيل إلا بعد النظر الطويل والبحث العميق في تاريخ تلك الامم وحاجتنا الى هذا الموضوع في بحثنا هذا كحاجة الباحث في تاريخ

(١) راجع مقالنا عن اللغة الآرامية ولهجاتها المنشور في السياسة الاسبوعية بتاريخ ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٢٦

روما القديم الى الامام بتاريخ بطون وقبائل لاتينية ويونانية قديمة
عاشت في بلاد ايطاليا قبل نشوء مدينة روما

لقد صرح لي غير واحد من الاصدقاء بانهم يوجسون خيفة من
ثوران عواطف بعض الاندية من المسلمين واليهود من جراء التعرض
لموضوع الخلاف الذى نشأ بين الرسول ويهود يثرب ، وأن ميلنا الى
احدى الفئتين قد يكون سبباً في اثاره سخط الطائفة الاخرى
لكننا نعتقد أن رسالتنا موجهة الى طائفة المفكرين الذين
لا ينشرون دعوة خاصة في كتاباتهم ، بل يقصدون دائماً الى البحث المجرد
عن العواطف القومية والدينية

وما من أحد ينظر بامعان وانصاف الى حوادث اليهود والانصار
في يثرب دون أن تمتلئ نفسه بشعور الاجلال للفئتين ، لأن النضال
العنيف الذى وقع بينهما قد برهن على أن هذا النزاع كان من الأمور
المقدرة في حسابان كل من تتبع الحوادث التى وقعت في المدينة بعد أن
هاجر اليها الرسول ، فقد كانت الضرورة الطبيعية لنجاح مشروعات
المسلمين تقضى حتماً بوقوع العراك الشديد بين الطرفين

ومن أجل ذلك فقد تغيرت الحالة تغييراً جوهرياً بعد أن انتهت
الخصومة السياسية بين الرسول وبطون يثرب ، حتى شرع اليهود ينظرون
بميون الاكبار والاحترام الى جيوش المسلمين التى كانت تغمر كالسيل
أقطار العالم ونواحيه ، وكانت هذه الجيوش قد قضت على سلطة الدولة
الرومية في أقاليمها القصية والدانية ، تلك الدولة التى ملأت تاريخها

بحوادث الظلم والمسف واهراق الدماء مدة طويلة من الزمان
وقد كان اليهود فى أغاب مدن العراق يخرجون لاستقبال جيوش
المسلمين بالحفاوة والاكرام لانهم كانوا يؤثرونهم على غيرهم إذ يرون
فيهم قومًا يؤمنون بالله موسى و ابراهيم
ولقد ازدادت هذه الروابط متانة مع امتداد الزمن حتى دخل
اليهود فى جيوش المسلمين ليناضلوا معهم فى أقاليم الاندلس
وينبغى ألا يغيب عن البال أن الخسارة القليلة التى لحقت يهود
بلاد الحجاز ضئيلة بالقياس الى الفائدة التى اكتسبها العنصر اليهودى من
ظهور الاسلام ، فقد انقذ الفاتحون المسلمون آلافًا من اليهود كانوا
منتشرين فى أقاليم الدولة الرومية ، وكانوا يقاسون ألوانا شتى من العذاب
زد على هذا أن اتصال اليهود بالمسلمين فى الاقاليم الاسلامية كان
سببًا فى نهضة فكرية عظيمة عند اليهود بقيت آثارها فى تاريخ الآداب
العربية والعبرية زمنًا طويلًا . . .

ويجمل بنا أن نلفت الانظار الى أننا نسبنا كل ما لم يكن من رأينا
سواء كان كبيراً أو صغيراً الى صاحبه وذلك قد يتطلب فى أغلب الظروف
جهداً غير قليل
أما الآراء التى لم ننسبها لغيرنا فهى بطبيعة الحال جديدة وبعضها
عرضة للنقد والشك ونعتقد أنه لو رجحت صحتها لكان ذلك لنا مكافأة
عظيمة يرتاح لها الضمير ويطمئن اليها الخاطر

ولا يسعنى بعد هذا الا أن أرفع خالص الشكر للقائمين بأمر الجامعة
المصرية وأساتذتها الأجلاء

وبهذه المناسبة أقدم تمنياتى الطيبة وعاطر ثنائى لحضرة الاستاذ
العلامة الشيخ عبد الوهاب النجار الذى أسدى الى الكثير من
النصح والارشاد

أما رجل اليوم أستاذى الدكتور طه حسين الذى تفضل وقبل
الاشراف على رسالتى وبذل الكثير من وقته الثمين فى قراءتها فالى نبوغه
النادر المثال فى النقد يرجع الفضل فى هدايتى الى بعض دقائق هذا البحث
الذى أرجو أن يظفر برضاء القراء الكرام والسلام

اسرائيل ولففسون
(ابو ذؤيب)

٢٤ يونيه سنة ١٩٢٧

— . . . —

نقدم جزيل الشكر الى لجنة التأليف والترجمة والنشر التى كلفت
نفسها مؤنة الاتقان على طبع كتابنا هذا ، وايس ذلك بغريب من هيئة
اللجنة التى جعلت ديدنها العناية والاهتمام بنشر العلوم والمصنفات

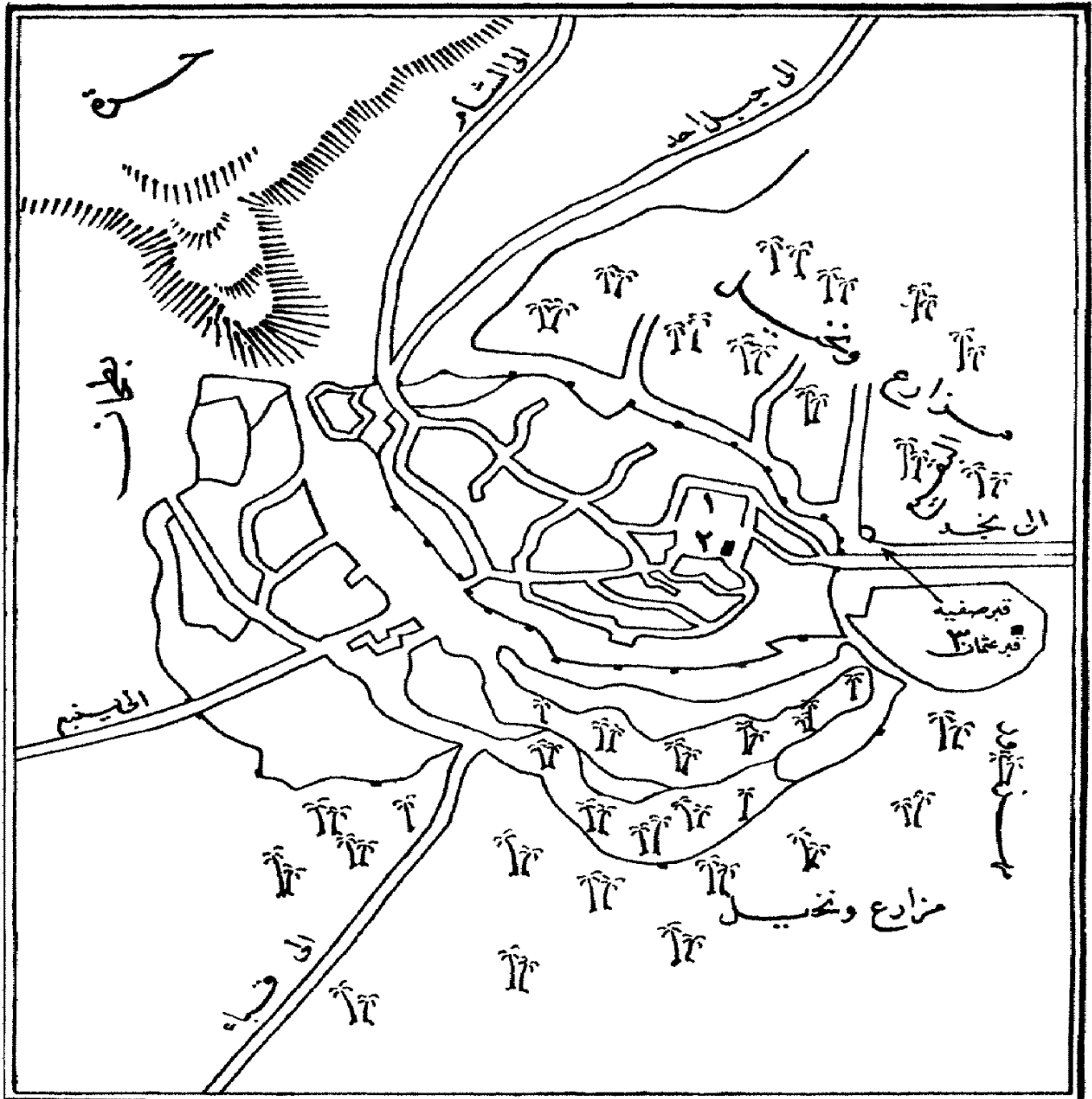
المؤلف

٢٥ يونيو سنة ١٩٢٧

المدينة المنورة (يثرب)

مقياس الرسم ١ : ١٢,٥٠٠

ملحوظات : (١) الجامع الكبير (٢) قبة النبي (٣) جبال



وضعت الكتاب تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام . للدكتور امراييل ولفنسون .

الباب الأول

اليهود في بلاد الحجاز

تقسيم تاريخ بني اسرائيل في بلاد العرب الى طورين — مراجع البحث في الطور الاول — الموحدون للاله وعبداء الاصنام من بني اسرائيل في العهد القديم — أول هجرة اسرائيلية الى بلاد العرب — النص التاريخي — رأى بعض المستشرقين فيه — رأى المؤلف في هذه الهجرة — رأى قدماء مؤرخي العرب عن وجود قبائل اسرائيلية بأفد في الجزيرة العربية — صحف العهد القديم وحوادث بني اسرائيل في الجزيرة العربية قديماً — مهاجرة بطون يهودية من أوطانها الى الجزيرة في الطور الثاني — أسبابها — أشهر البطون اليهودية في بلاد العرب — نزولها في مواطن اليهود القدماء — انتشار الحركة الزراعية والتجارية والصناعية في الحجاز بنشاط اليهود — الفرق بين الطورين في الاستعمار — سكوت المراجع اليهودية عن تاريخ بني اسرائيل في الجزيرة العربية — شكوك مؤرخي الافرنج في كثير مما ذكر مؤرخو العرب عن يهود الجزيرة — هل كان يهود الجزيرة من الوجهة الدينية مثل أبناء جلدتهم ؟ — اعتناق بطون عربية للديانة اليهودية — بحث في أسماء القبائل اليهودية — رأى اليعقوبي — رأى المؤلف — حصون وآطام اليهود في بلاد العرب — أسماؤها العربية والعربية — المواد التي كان اليهود يتجرون فيها — شيوع الربا عند اليهود والعرب — صناعة الصياغة عند يهود يثرب — سوق بني قينقاع — الدوائر الزراعية لليهودية في الحجاز — لغة اليهود في بلاد العرب — الرطانة اليهودية — الاحبار — القضاء عند يهود الحجاز — قبلة اليهود — الصلاة — الصيام — تحلقى اليهود باخلاق العرب — منزلة الشعر العربي عند اليهود — رأى الاستاذ الدكتور طه حسين في أثر اليهود الادنى في الجزيرة — رأى المؤلف في شعر اليهود النزعة الشعرية عند اليهود والعرب — كيف احتفظ بشعر اليهود — السموءل بن مادياء — آراء مؤرخي العرب فيه — الاب شيخو وديوان السموءل — تحليل شعر السموءل — أهم قصائد السموءل — كعب بن الاشرف — حياته وأشعاره — اشتراك النساء في النهضة الشعرية

رأيت أن أقسم تاريخ بني اسرائيل في بلاد العرب الى طورين أساسيين الطور الأول يشمل حوادث لبطون إسرائيلية بائدة في بلاد العرب والطور الثاني يتناول أخباراً لجموع من اليهود كان لها شأن عظيم في تاريخ الجزيرة العربية

ويقف آخر الطور الأول عند نهاية القرن الخامس قبل الميلاد أما الطور الثاني فينتهي باجلاء عمر بن الخطاب آخر الطوائف اليهودية من الجزيرة العربية

وهذا التقسيم هو الشائع عند العلماء الذين كتبوا في تاريخ بني اسرائيل بوجه عام . ولنتكلم أولاً عن الطور الأول بقدر ما مكنتنا المصادر الناريخية التي اسنقينا منها معلوماتنا عن هذا الطور فانها . راجع قليلة تضطر الباحث الى بذل مجهود كبير حتى يستطيع أن يلقي شعاعاً من النور يخفف به من وطأة ظلامه الدامس

كان بنو اسرائيل في هذا الطور الأول يعبدون الله مع تقديسهم لبعض الأصنام على حين كانت طائفة منهم تعبد الله وحده مخلصين له الدين وهي طائفة الكهنة والأنبياء وبعض الطبقات من الاشراف والملوك والنقباء الذين آمنوا برسالة موسى واتبعوا شريعته^(١)

وكان الموحدون للآله في بدء الأمر قليلين ولكنهم أخذوا يكثرُونَ شيئاً فشيئاً على مرور الزمن وتوالي العصور حتى تأثرت العقلية اليهودية بالشرعية الموسوية وخضعت لها أفكار اليهود وامتلاّت بها قلوبهم وكان ذلك في بدء الطور الثاني بعد رجوع اليهود من السبي البابلي سنة ٥٣٨ ق . م .

ومن حيث أن المرجع الوحيد الذي يمكننا أن نستقى منه أخبار بني اسرائيل الى القرن الخامس ق . م انما هو كتاب العهد القديم فانه يجدر بنا أن نبحث فيه لنقف منه على حوادث الطوائف الاسرائيلية التي سكنت بلاد العرب

تحدثنا صحف « أخبار الايام » عن أول هجرة مشهورة في تاريخ بني اسرائيل الى بلاد العرب أن بطون بني شمعون سارت الى أرض طورسينا مع ماشيتها لتبحث لها عن رعى أن وصلت أرض قبائل معان فاشتبكت معها في قتال عنيف

(١) راجع كتاب المؤرخ Klausner הכתורה ישראלית ج ١ ص ٨ وكتاب العالم سمحوني דברי ימי ישראל ج ١ ص ٣٠

انتهى بفوز بطون شمعون وتمزيقهم لأقوام من البطون المعانية شذر مذر^(١)
ومع ما لهذه الرواية من عظم القيمة في بحثنا فاننا نرى فيها غموضاً وإبهاماً
إذ لا نستطيع أن نعلم منها متى نزحت بطون بني شمعون الى جزيرة العرب
غير أن العالم دوزى يحاول في مصنفه عن بني اسرائيل في مكة^(٢) أن يثبت
أن الهجرة الشمعونية حدثت قبيل عصر الملك داود حوالي عام ١٠٠٠ ق . م في
حين يعارضه المستشرق مرجوليوث في كتابه عن علاقة العرب بالبطون
الاسرائيلية قبل ظهور الاسلام^(٣) ويقرر أنها لم تحصل الا في عصر الملك حزقياه
الذى حكم بلاد يهوذا من سنة ٧١٧ — ٦٩٠ ق . م
وأما بعض المحدثين من العلماء والذين لا يريدون أن يخوضوا غمار المناقشة
مع هذين العالمين فلم يتعرضوا لما قالاه بنى أو إثبات ولكنهم يرون أنه لا يمكن
التعويل على هذه الرواية المنقولة من الكتاب المقدس لقلة النصوص التاريخية
القاطعة عن وجود بني شمعون حتى أن الذى يتلو صحف العهد القديم لا يجد شيئاً
عن قبيلة شمعون في تاريخ بني اسرائيل سوى رواية تدل على اشتراكها مع
بطون بني يهوذا في فتح فلسطين^(٤) وسوى ما جاء عن نزوحها من الديار
الاسرائيلية

مثل هذه النقول القليلة دفعت هؤلاء المحدثين من المستشرقين الى أن
يشكوا في أن تكون قبيلة شمعون هذه كان لها وجود في عالم الحقيقة^(٥)
ولكننا نرى أن انكار وجود قبيلة شمعون أمر غير ميسور وقد كان لها ١٢

(١) أخبار الايام فصل ٤ آية ٣٨ — ٤٣

(٢) Dozy : Die Israeliten zu Mekka ٩٨ — ٤٠ م

(٣) Margolioth : The relation between Arabs and Israelites

prior to the rise of Islam م ٥١

(٤) قضاء فصل ١ آية ٣

(٥) Burney : Israel's settlement in Canaan م ٣٧ — ٥٨

مدينة في جنوب فلسطين دخلت في حوزتها بعد استيلاء يوشع بن نون على البلدان الكنعانية وأقامت فيها مدة طويلة (١)

على أن لدينا ملاحظة على الرواية المنقولة من كتاب أخبار الأيام عن هجرة بني شمعون طلباً للمرعى فقط وهي أننا نستبعد كل الاستبعاد أن تنزح جميع بطون شمعون من فلسطين تاركة مدينتها وثروتها مرة واحدة وفي وقت واحد الى بلاد أخرى ليست أخصب من بلادهم بدرجة كبيرة بل ليست هناك فوارق طبيعية بين البلاد وقد تكون البلاد التي تقول الرواية إنهم ساروا اليها طلباً للمرعى أشد اجداً من بلادهم التي رحلوا عنها ثم لا يعودون الى موطنهم الذي منه نشأوا وفيه عاشوا على كر الزمن ومرور الأيام

معقول أن تنزعج سنو المحل والقحط الناس عن مواطنهم وتضطرم الى أن يرحلوا عنها ليجدوا ما يقتاتون به ولكنهم لا يرحلون عن بلادهم جملة واحدة ولا يقصدون جهة معينة وهم مجتمعون بل يتفرقون هنا وهناك وتقصد كل فئة ناحية من النواحي المحيطة والقريبة منها ليأخذوا ما يستطيعون الحصول عليه من أسباب العيش ثم لا يلبثون أن يعودوا الى بلادهم وموطنهم ليستأنفوا فيه الحياة الهادئة الوادعة أما أن يخرجوا من بلادهم جملة واحدة ويقصدوا جهة معينة وهم جماعة ولا يعودوا الى بلادهم مطلقاً فهذا ما لا يكاد يوجد في تاريخ بني اسرائيل

ولو أغضينا النظر عن كل هذه الاعتبارات وفرضنا صحة هذه الرواية وصدقنا أن هذه الهجرة قد وقعت كما يصورها لنا النص المنقول من سفر أخبار الأيام فأننا نعتقد أن تكون قد حدثت في زمن قديم جداً في القرن الثاني عشر ق . م . على أقل تقدير اذ لم يكن بنو اسرائيل قد عرفوا بعد تدوين الحوادث التي تقع لهم في صحف ، أي أنها حدثت في زمن غير بعيد من عهد الاحتلال الاسرائيلي للبلاد

(١) كتاب يوشع بن نون فصل ١٩ آية ١ — ٩ وصحف الاخبار ج ١ فصل ٤ آية ٢٨

وكما أن حوادث الفتح لم تصل اليينا واضحة وافية كذلك وصلتنا أخبار شمعون في روايات غامضة وذلك لان بنى اسرائيل بعد توغلهم في فلسطين بقوا زمنا غير قليل محتفظين بصفات ومميزات سكان الصحارى في أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم ونفورهم من كل أنواع التغيير والتجديد

وقد مضت عليهم قرون عدة وهم في همجيتهم الاولى حتى دار الزمن دورته وأخذت الاحوال الاجتماعية والادبية تتبدل وتتحول الى أن ظهر عند الشعراء والمفكرين ميل شديد الى تدوين أخبار العصور الماضية وذكر أيام القبائل الاسرائيلية وبيان أوطانها التي نزحت عنها والظروف التي دعت الى تركها وكان غرضهم من ذلك أن يحافظوا على أنسابهم وأن يشيدوا بما كان لهم من مجد وسؤدد أما فيما يتعلق ببلاد وقبائل معان فان المستشرقين قد اتفقوا على أنها قد سكنت بين جهات يثرب ومكة ويعتمدون في ذلك على أقوال الجغرافى سترابو الذى جاء باسماء دول الجزيرة العربية مرتبة على هذا المنوال :

قبائل معان وعاصمتها قرنا

قبائل سبا وعاصمتها مارب

دولة ثمنا وكانت في جهات باب المندب

مملكة حضرموت وعاصمتها سبوة

ويتضح من وصف بليينوس (Plinius) لاهل معان أنهم كانوا على جانب عظيم من القوة والبطش وكثرة العدد ووفرة المال^(١) ويسرد لنا العالم جلازر (Glaser) في كتابه الذى صنفه عن بلدان الجزيرة العربية حوادث كثيرة لبطون معان وعلاقتها مع أمم فلسطين وأساس بحثه قائم على منقوشات قديمة عثر عليها في جهات مختلفة من تلك الاصقاع^(٢)

(١) دوزى ص ٦٦ — ٦٨ مرجوليوت ص ٥١

(٢) Glaser : Skizzen und Gleschichte Arabiens bis

Moh. Glaser : Sammlung

وتذكر لنا صحف العهد القديم من أخبار بني إسرائيل عدا هذه الهجرة أن بلاد طورسينا وشمال الجزيرة بوجه عام كانت ملجأ يقصد إليه كثير من بني إسرائيل الذين كانوا يفرون من وجه الملوك والحكام الظالمين^(١) ثم في عهد الملك بختنصر فإنه حين غزا أورشليم قصدت جموع من اليهود أرض الجزيرة^(٢) ولم تغفل المصادر العربية الإشارة إلى أن قبائل اسرائيلية كانت تسكن بلاد العرب منذ زمن قديم جداً فقد قال صاحب الاغانى « كان ساكنو المدينة في أول الدهر قبل بني إسرائيل قوياً من الامم الماضية يقال لهم العماليق وكانوا قد تفرقوا في البلاد وكانوا أهل غزو وبغى شديد وكان ملك الحجاز منهم يقال له الارقم ينزل ما بين تيماء الى فدك وكانوا قد ملأوا المدينة ولهم بها نخل كثير وزرع وكان موسى بن عمران قد بعث الجنود الى الجبابرة من أهل القرى يغزونهم فبعث موسى الى العماليق جيشاً من بني إسرائيل وأمرهم أن يقتلهم جميعاً اذا ظهوروا عليهم ولا يستبقوا منهم أحداً فقدم الجيش الحجاز فأظهرهم الله على العماليق فقتلهم أجمعين إلا ابناً للارقم كان وضيئاً جميلاً فضنوا به على القتل وقالوا نذهب به الى موسى فيرى فيه رأيه فرجعوا الى الشام فوجدوا موسى قد توفي فقالت لهم بنو إسرائيل ما صنعتم فقالوا أظهرنا الله عليهم فقتلناهم ولم يبق منهم أحد غير غلام كان شاباً جميلاً فنفسنا به عن القتل وقلنا نأتى به موسى فيرى فيه رأيه فقالوا لهم هذه معصية قد أمرتم ألا تستبقوا منهم وأنت لا تدخلوا علينا الشام أبداً فلما صنعوا ذلك قالوا ما كان خيراً لنا من منارل القوم الذين قتلناهم بالحجاز نرجع اليها فنقيم بها فرجعوا على حاميتهم حتى قدموا المدينة فزلوها وكان ذلك الجيش أول سكنى اليهود بالمدينة^(٣)

(١) ملوك ج ١ فصل ١٩

(٢) أرميا فصل ٤٠ آية ١١

(٣) الاغانى جزء ١١ ص ٩٤ (ان مؤرخى العرب لم تكن لديهم كتب لم تقدمهم في ذلك

ويضيف ابن خلدون الى هذه الرواية أنه يشك في صحتها لأنها لم توجد عند اليهود ولأن اليهود لا يعرفون هذه القصة (١)

ثم يحدثنا ابن خلدون أن داود لما خلع بنو إسرائيل طاعته وخرجوا عليه فر مع سبط يهوذا الى خيبر وملك ابنه الشام وأقام بخيبر الى أن قتل ابنه وعاد الى وطنه فيظهر من هذا أن عمرانه كان متصلاً بيثرب ويجاوزها الى خيبر (٢)

غير أننا نرى أنه لا يمكن التعويل على أقاصيص من هذا النوع سردتها المراجع العربية على أنها أساطير شائعة وروايات غير جدية بالاعتماد عليها وإذا لم يكن مؤرخو العرب قد استطاعوا أن يصلوا الى أخبار ثابتة موثوق بها عن بني النضير وقرينة وحي كان ظهورهم في بلاد العرب فكيف يستطيعون أن يصلوا الى أخبار حقيقية عن طوائف إسرائيلية قديمة بادت واندثرت من قبل أن يوجد بنو النضير وقرينة ؟ . . .

كذلك لا يمكننا أن نطمئن الى الاخبار القليلة التي نصت عليها بطريقة غير مباشرة صحف العهد القديم عن وصول جموع إسرائيلية الى الجزيرة العربية ولا نستطيع أن نثبت هذه الأخبار اثباتاً حقيقياً

وانما الذي يمكننا أن نقوله على سبيل الظن اعتماداً على هذه الأخبار هو أن القدماء قد اعتقدوا أنه قد وجدت في جهات يثرب وخيبر بطون إسرائيلية قبل وصول جموع اليهود الى الأصقاع العربية في الدور الثاني

ويؤيد هذه النظرية ما نجده في كتاب العهد القديم من النص على وجود علاقة

وهم انما يعملون على ما رأوا في سفر العدد من حروب بني اسرائيل والمدنيين والاموريين وغيرهم ويتوسعون في ذلك الى أرض الحجاز ويزيدون على ما عند الاسرائيليين بغير سلطان اتاهم (رأى الاستاذ الشيخ النجار)

(١) تاريخ ابن خلدون جزء ٢ ص ٨٨

(٢) تاريخ ابن خلدون جزء ٢ ص ١٨٦ اما رواية ابن خلدون أن داود ذهب الى خيبر فلا يوجد ما يصححها وداود لم يجاوز مخنايم

متينة بين بلاد فلسطين وبلاد الجزيرة العربية

كانت فلسطين بمثابة القنطرة التي تربط بلاد العرب وسورية من جهة ومصر والعراق من جهة أخرى وكانت القوافل العربية تأتي من بلادها الى أسواق مدن بني اسرائيل وكنعان^(١) وكان تجار اليهود يرحلون الى سبأ في عهد سليمان وبعده^(٢) كذلك نعلم ان بعض ملوك بني اسرائيل انصروا وانتصارات باهرة على قبائل عربية وعمالة غزوها وانهم واصلوا غزواتهم حتى وصلوا الى أرض الجزيرة^(٣) ونعلم أيضاً ان مدينة العقبة (ايلة) كانت في عصر من العصور مستعمرة يهودية^(٤) والخلاصة ان عناصر اسرائيلية يظن انها قد هاجرت من ديارها الى الاقاليم العربية في عصور مختلفة ولاسباب شتى غير انها بادت كما بادت قبائل عربية كثيرة ولم يبق من آثارها سوى اسمها

وقد حاول بعض المستشرقين ان يجدوا علاقة بين حوادث وقعت لقبائل عربية بائدة من جرهم وغيرها وبين اخبار رويت عن بطون اسرائيلية قديمة كانت في الجزيرة العربية^(٥) ولولا قببح الاعتماد على الحدس والسخمين لابتعت من كتب في هذا الباب من المستشرقين ولكني أؤثر الاحتياط وافضل الا كنفاء بهذا المقدار لأنقل الى الكلام عن طور اليهود الثاني في بلاد العرب

أخذت جموع كثيرة من اليهود في القرن الاول والثاني بعد الميلاد تهاجر الى الأرجاء العربية عموماً وإلى الربع الحجازية بنوع خاص ولا شك انه كانت هناك أسباب دعت هذه الجموع الى ترك أوطانها والتزوح منها الى البلاد العربية ويمكننا ان نلخص هذه الأسباب فيما يأتي :

(١) حزقياه فصل ٢٧ آية ٢١

(٢) ملوك جزء ١ فصل ٩ آية ٢٦

(٣) « صموئيل » جزء ١ فصل ١٥ وأخبار الايام جزء ٢ فصل ٢٦ آية ٧

(٤) ملوك جزء ١ فصل ٩ آية ٢٦ ملوك جزء ٢ فصل ٢٦ آية ٢

(٥) دوزى ص ٩٤ — ٩٥

(ا) زيادة عدد اليهود في فلسطين زيادة مطردة جعلت البلاد تضيق عن أن تسعهم وتنفسح لعملهم في سبيل الحياة وقد بلغ عددهم في ذلك الحين أكثر من أربعة ملايين نسمة وهو عدد كبير لا تتسع له بلاد ضيقة كفلسطين فاضطروا بحكم هذه الزيادة المستمرة والنمو المطرد أن يهاجروا الى ما حولهم من البلاد المجاورة لهم كمصر والعراق والجزيرة العربية (١)

(ب) حدث حوالى القرن الاول ق . م ان هاجمت الدولة الرومانية بلاد فلسطين وقوضت أركان الدولة اليهودية المستقلة فيها وأخضعتها لسلطان النسر الرومانى الذى قبض على زمام الحكم بيد من حديد ولمكن النفور والاستياء في نفوس اليهود كان شديدا الى حد أن الفتن والثورات العنيفة كانت تشتعل نيرانها من حين الى آخر وكان الرومان يقمعون تلك الثورات بشدة وقسوة تزيد النفور وتضاعف الاستياء فاضطر من لم يكن يستطيع البقاء في البلاد مع هذه الاحوال القاسية ان يلجأ الى أرض الجزيرة العربية التى كانت أحب اليهم من غيرها نظرا لانظمتها البدوية الحرة ونظرا لوجودها في أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها

(ج) بعد حرب اليهود والرومان (٧٠ ب . م) التى انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتششت اليهود في اصقاع العالم قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب للمزايا التى ذكرناها كما يحدثنا بذلك المؤرخ اليهودى يوسف الذى شهد تلك الحروب وكان قائدا لبعض وحداتها

وتؤيد المصادر العربية كل هذا فقد ذكر صاحب الاغانى انه لما ظهرت الروم على بنى اسرائيل جميعا بالشام فوطئوهم وقتلوهم ونكحوا نساءهم خرج بنو النضير و بنو قريظة و بنو بهدل هاربين منهم الى من بالحجاز من بنى اسرائيل لما غلبتهم الروم على الشام فلما فصلوا عنها بأهليهم بعث ملك الروم في طلبهم

ليردهم فأعجزوه وكان ما بين الشام والحجاز مفاوز وصحارى لا نبات فيها ولا ماء فلما طلب الروم التمر انقطعت أعناقهم عطشا فماتوا وصحى الموضع تمر الروم فهو اسمه الى اليوم^(١)

وتتلخص آراء بقية مؤرخى العرب فى أن جموع اليهود فى الجزيرة العربية قد زادت وكثرت بعد اضطهادات الرومان لليهود وقد يجوز أن تكون هذه الروايات اتصلت بالعرب من يهود يثرب وخيبر

وإذا صح ما روينا سابقاً عن تاريخ اليهود فى الجزيرة العربية فى الدور الاول كان مؤيداً للرأى الذى يقول إن المهاجرين فى الدور الثانى قد توجهوا فى بادىء أمرهم الى الجهات التى كانت مسكونة بطوائف إسرائيلية من زمن قديم ولقد كان لليهود الى عصور الدور الثانى بضع مستعمرات صغيرة فصارت بعد ذلك الحين كبيرة وكثيرة وظهرت مدن وقرى جديدة وآطام وحصون على رؤوس الجبال وانتشرت الحركة الزراعية فى الاراضى التى كانت منذ ألوف من السنين قاحلة ماحلة لان اليهود كانوا يشغلون فى موطنهم الاصلى بالزراعة قبل كل شىء وكانت فلسطين غنية بحاصلات القمح والشعير والزيتون والتمر والعنب وكانت تصدر كثيراً من تلك الحاصلات الى جهات مختلفة منذ عصور قديمة

كذلك انتشرت الحركة الصناعية والتجارية وانشئت أسواق عديدة يهودية ومن هنا يمكننا أن نستنتج أن الاستعمار الجديد لم يقم على حد الظبا ولم يؤد الى طرد قبائل عربية أصلية من مواطنها كما حدث فى الدور الاول الذى استأصل فيه الفاتحون من بنى إسرائيل شأفة بطون معينة وغيرها وانما الذى حدث فى الطور الثانى أن ضيوفاً مضطرين نزلوا على انباء جلدتهم فاستقبلهم هؤلاء بالحفاوة والرحيب اذ كانوا يعلمون أنهم قارون من مخالف النسر الرومانى وسهل الامتزاج بين هؤلاء وهؤلاء بحكم الغريزة الجنسية والعاطفة الدينية وتعاون الجميع

على العمل في سبيل الحياة فننجحوا وأثروا وكان لهم في بلاد العرب شأن عظيم
ويجب ألا يغيب عن البال أن جهات يثرب ووادي القرى كانت غير آهلة
بكثير من العرب بل كانت جموع منهم تأتي الى وديانها في أوقات معينة من
السنة كقوافل راحلة مع إبلها لتأكل من أعشابها ثم تنزح عنها الى جهات أخرى
وبطبيعة الحال كان لليهود في دورهم الثاني بالجزيرة حوادث تاريخية ذات شأن
بحكم عوامل التغيير والانتقال وبحكم اختلاف الامزجة وتعارض الاهواء
وتضارب المصالح فقد كان عددهم كبيراً بحيث يمكن اعتبارهم أمة قائمة بذاتها
يصيبها من ضرورات الاجتماع ما يصيب غيرها ويحدث بينها وبين جيرانها العرب
ما يحدث بين أية أمة أخرى وبين من يجاورها من الامم ومع هذا فاننا نجد
المصادر الاسرائيلية خالية من ذكر شيء عن تاريخ اليهود في ذلك الدور وسأكتة
عن التحدث عنهم سكوتاً تاماً كأن لم يكن هناك يهود وكأن لم تحدث لهم حوادث
وكان هذا السكوت موضع العجب عند الباحثين إذ هم يعلمون أن الامة الاسرائيلية
كانت كثيرة التدوين في كل عصورها ومفرمة بجمع حوادثها وأخبارها في كل
البلاد التي نزلت بها جموع منها

وها هي مراجع عبرية غير قليلة عن حياة اليهود في بلاد العراق والفرس
ومصر واليونان والرومان نجد فيها كل ما نتطلع اليه من اخبار اليهود في تلك البلاد
في حين لا نكاد نجد مؤلفات عبرية عن يهود العرب الا شيئاً ضئيلاً جداً
لا يتجاوز بضعة نصوص اندمجت في بعض الكتب اندماجاً عرضياً غير مقصود
ولا شك ان هذا مما يضاعف عناء الباحث ويسد في وجهه سبل الكشف
عن نواحي الحياة عند يهود الجزيرة العربية

ولكننا نستطيع أن نستنتج من هذه الناحية نفسها نتيجة ذات شأن وهي أن
سكوت المراجع الاسرائيلية عن سرد حوادث اليهود في الجزيرة العربية يدل
دلالة قاطعة على أن اليهود في بلاد العرب كانوا منقطعين تمام الانقطاع عن بقية

أبناء جنسهم في جهات العالم ولم تكن لهم بهم أية صلة وكأن الجزيرة التي انفردت بقباثلها وانقطعت عن العالم المتمدن انقطاعاً كلياً قضت على كل من يسكنها من اليهود ان يكون مثل أبنائها وان يقطع كل علاقة بينه وبين يهود البلدان الأخرى ومما لا شك فيه أن الصفات المدنية التي كانت لليهود قد زالت منهم بعد استيطانهم بلاد العرب الصحراوية البعيدة عن كل حركة عمرانية وضعفت فيهم تلك الوراثة الروحانية التي حملوها معهم الى كل بلد نزحوا اليه وأخذوا ينزلون من أوج المدنية والحضارة شيئاً فشيئاً حتى وقعوا في هوة الهمجية وصاروا مثل غيرهم من سكان تلك الجزيرة المنعزلين عن جميع العالم والمكتفين بأبسط أنواع الحياة وان أمة تغفل تدوين تاريخها وتهمل المحافظة على نتائج قرائنها لتورثها لخلفها لا يلة حتماً الى أحط أنواع الهمجية مهما كانت درجتها في الحضارة والعمران^(١)

لم يظهر شيء من النبوغ والعبقرية في يهود بلاد العرب مطلقاً ولم تشتهر من بينهم شخصية واحدة في كل عصورها بالرقى الفكرى وان كان اليهود بوجه عام أرقى وأقرب الى المدنية من بقية العرب هذا مما لا يشك فيه أحد من مؤرخى العرب وعلماء الأفرنج ولكن يظهر أن البيئة الجديدة شلت قوى اليهود الروحانية فتغلبت عليهم العقلية البدوية حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفسياتهم

وكما نرجع الى المصادر العربية في أثناء بحثنا عن حياة العرب في الجاهلية كذلك نستمد منها أخبار اليهود في تلك العصور

واذا كان تاريخ القبائل العربية فيها قد وجد مشوهاً تشويهاً غير قليل

(١) على أن هذا لم ينف احتمال وجود كسب في التاريخ والدين دونها اليهود في بلاد الحجاز ولكنها ضاعت في عصر الحروب التي حدثت بين اليهود والمسلمين في المدينة

فكذلك أخبار اليهود فيها تشتمل على مبالغات كثيرة لا يمكن أن يعتمد عليها المؤرخ المحقق

ولا ريب أن كل أمة تكتب تاريخها كما تحب وتهوى لا كما تريد الحقيقة المجردة عن كل غرض فهي تجتهد في أن تصور الوقائع والحوادث التي تقع بينها وبين أية أمة أخرى بالصورة التي تظهرها كأنها أمة قد اجتمعت فيها كل المزايا والصفات الحمودة في حين تصور خصومها بشكل يدل على أنهم قد جمعوا كل الصفات المذمومة

ومن أجل هذا نجد مؤرخي المسلمين قد شنوا الغارات القلمية بعد الخصومات السياسية والدينية على قريش الوثنية والطوائف اليهودية لان الرائد الأسمى في تدوين المسلمين لأخبار الخصومات كان قبل كل شيء ذكر مجد القاهر وذل المقهورين ولو وصلت إلينا أخبار الحوادث التي وقعت بين العرب واليهود في الجزيرة العربية من مصادر اسرائيلية لكان من الممكن بواسطة المقارنة بينها وبين المراجع التاريخية العربية أن نستخلص حقائق تاريخية ثابتة

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث ب . م . أنهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية ويقولون ان الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهودا حقا اذ لم يحافظوا على الديانة الالهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعا تاما (١)

وكان العالم شير يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة . كانت يهودية في اساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودي (٢) ويحدثنا صاحب الاغانى عن الأماكن التي نزل بها اليهود في الدور الثاني فيقول: لما قدم بنو النضير وقرينة وبهدل المدينة نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها

(١) Graetz ج ٣ ص ٧٥

(٢) د ج ٣ ص ٥١

ويعثوا رائدا أمره أن يلتبس لهم نزلا سواها فخرج حتى أتى العالية وهى بطحان ومهزور واديان من حرة على تلاع أرض عذبة بها مياه عذبة تنبت حر الشجر فرجع اليهم فقال قد وجدت لكم بلدا طيبا نزها الى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذبة ومدرة طيبة فى متأخر الحرة فتحول القوم اليها من منزلهم فنزل بنو النضير ومن معهم على مهزور وكانت لهم تلاحه وما تبقى من بعث وسموات فكان ممن يسكن المدينة حتى نزها الاوس والخزرج من قبائل بنى اسرائيل بنو عكرمة و بنو ثعلبة و بنو محمر و بنو زعورا و بنو زيد و بنو النضير و بنو قريظة و بنو بهدل و بنو عوف و بنو القصيص فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود وكان هناك معهم من غير بنى اسرائيل بطون من العرب منهم بنو الحرمان حى من اليمن و بنو مرثد حى من بلى و بنو نيف حى من بلى أيضا و بنو معاوية حى من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهثة و بنو الشظية حى من غسان (١)

وبقيت هذه البطون العربية على أديان آبائهم القديمة ولم تعتنق اليهودية فعدت من موالى اليهود

وكانت هناك قرى كثيرة فى أرض خيبر الواقعة شمال يثرب أهلة باكثرية مطلقة من اليهود ثم هناك وادى القرى المشهور بارضه الخصبه وحدائقه الزاهرة كان أيضا من المستعمرات اليهودية ووجد اليهود أيضا بكثرة فى أرض تيماء . . .

ومن هذا يتضح ان جموع اليهود كانت منتشرة فى شمال الحجاز ويظهر جليا من أقوال بعض مؤرخى العرب (٢) ان بطونا عربية كثيرة قد اختلطت بالعنصر اليهودى فى بلاد الحجاز وأثرت فى أخلاقه وعاداته تأثيرا ظاهرا ولكنها لم تستطع أن تتغلب على عقليته الأصلية بل بقى هذا العنصر ممتازا

(١) جزء ١٩ ص ٩٥ الاغانى

(٢) راجع ما نقلناه من كتاب الاغانى عن يوم بعث فى الباب الثالث

بعقليته امتيازاً ظاهراً

وينكر المؤرخ اليعقوبى وجود طوائف يهودية أصلية كثيرة فى الحجاز بل يعنقد أن أغلبها من العنصر العربى وأقلها من العنصر اليهودى ويقول ان بنى النضير نخذ من جذام الا أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به ونزل بنو قريظة بجبل يقال له قريظة فنسبوا اليه (١)

ولكن من جهة أخرى تجتهد طائفة من المؤرخين الافرنج فى أن تجد لبعض أسماء القبائل اليهودية اشتقاقاً عبرياً (٢)

على أن الاستدلال يبحث لغوى كهذا على جنسية اليهود فى بلاد العرب لا يمكن أن يعتد به أو يعول عليه فمن الحق ان أسماء أكثر القبائل اليهودية عربية محضة كما يقول اليعقوبى ولكنها لا تدل على أنها عربية الجنس اذ يمكن أن تكون جموع اليهود التى هاجرت الى بلاد العرب قد اتخذت أسماء الأمكنة التى نزلت بها أسماء لها بل الواقع ان اليهود فى دورهم الثانى لم يكونوا يعرفون بانسابهم بل عرفوا كلهم بأسماء المدن والقرى والأقاليم التى جاءوا منها فكان يقال مثلاً فلان الاورشليمى والآخر الحبرونى وهكذا . . . نعم كان بنو اسرائيل فى دورهم الأول ينتمون الى قبائلهم فكان يقال مثلاً فلان من سبط يهوذا والآخر من قبيلة افرايم وكان اليهود فى وطنهم الاصلى قبل ان تحل بهم تلك الرزايا التى شتتت شملهم وفرقتهم أيادى سبا قد وصلوا الى درجة عظيمة من المدنية والحضارة وبلغوا مكاناً علياً فى الرقى الروحانى والاجتماعى حتى انمى من بينهم نظام القبائل وصاروا أمة واحدة مندمجة اندماجاً كلياً حتى نسي الافراد فكرة التفاخر بالانتساب الى قبائلهم ونسبت القبائل عادة الانقباض والاحتباس من أن تختلط دماؤها بدماء القبائل الأخرى بل أصبح المجموع للافراد والافراد للمجموع كما هوشأن جميع الأمم التى تنتقل من طور البداوة الى طور الحضارة

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٤٩ — ٥١ طبع ليدن

(٢) ٢٦٥ ج ٣ ص ٧٦

وقد أشار التلمود الى مسألة الانساب الاسرائيلية مبينا انها ضاعت
وذكر ان سبب ضياعها هو أن الملك هرودس اليهودى أحرق كتب الانساب
الاسرائيلية (١)

ومن هنا نعرف السبب في أن اليهود الذين نزحوا الى بلاد العرب لم يكونوا
باكثر من أنهم يهود فحسب وفي أنهم لم يكونوا يتمايزون فيما بينهم الا باسماء الأماكن
التي جاءوا منها

والطريقة المثلى لمعرفة جنسية اليهود في بلاد العرب إنما هي النظر في الاخلاق
والتقاليد واتجاه الافكار والاعمال

ومن هذا السبيل نستطيع أن نحكم بان يهود يثرب خصوصاً وشمال الحجاز
عموماً أقرب الى العنصر اليهودى منهم الى العنصر العربى نظراً لما وصفهم القرآن
الكريم

أقام اليهود الحصون والآطام على قمم الجبال ليتحصنوا بها في أوقات
الحروب حين يغزوهم الاعراب الطامعون في أموالهم وحاصلاتهم الزراعية أوحين
تغزوهم بطون يهودية أخرى لسبب من الأسباب
ويرجح أن فكرة إقامة الحصون والآطام على قمم الجبال في شمال الجزيرة
العربية إنما أتى بها اليهود من وطنهم الاصلى الذى كثرت فى جباله الحصون المنيعة
ومن هذه الحصون التى أقامها اليهود فى بلاد العرب حصن الأبلق للسموئيل
وحصن القمومى لبنى أبى الحقيق وحصون السالام والوطيج وناعم وسعد بن
المعاذ الخ . . .

وقال السهمودى ان قبائل اليهود تنيف على العشرين وعدة آطامهم وآطام
من نزل معهم من العرب تزيد على السبعين جاء النهى عن هدمها (٢)

(١) פסחים סב

(٢) خلاصة الوفاء، أخبار دار المصطفى ص ٨٠

ومع ان أغلب أسماء البلدان والأماكن التي سكنها اليهود في الحجاز كانت عربية فقد وجد لبعضها اتصال باللغة العبرية مثل وادي بطحان فان معناه بالعربية الاعتماد ووادي مهبزور أو محزور ومعناه مجرى الماء وقال السهمودي سمران جبل بخير صلى النبي على رأسه والعامّة تسميه سمران وضبطه بعضهم بالشين المعجمة^(١) فاذا علمنا ان في فلسطين جبلا يسمى شمران أمكننا أن نستنتج أن سمران هذا انما هو لفظ عبري أطلقه اليهود على ذلك الجبل بعد ان نزولوا بجانبه

ويؤكد صحة هذا الاستنتاج ما قاله السهمودي من ان بعضهم ضبطه بالشين المعجمة . ثم بئر أريس فانها نسبة الى رجل يهودي اسمه أريس بلغة أهل الشام^(٢) ولكننا نعتقد أن هذا الاسم في الأصل غير علم بل هو نكرة يطلق في اللغة العبرية والآرامية على الفلاح الحارث . و بئر روما اشتراها عثمان من يهودي^(٣) ومعناها بالعبرية البئر العالية (באר עמו)

وانما ذكرنا هذه الطائفة من الأسماء وبيننا علاقتها باللغة العبرية لنسندل منها على أن اليهود في بلاد العرب لم يقطعوا صلتهم بلغتهم الأصلية والعلماء المؤرخون يهنمون بمثل هذه المسائل ليستدلوا بها على مبلغ تأثير اللغة العبرية في اليهود وليتوصلوا الى معرفة موضوعات مختلفة من تاريخ العرب في الجاهلية وفي عصر ظهور الاسلام

أدخل اليهود الى بلاد العرب أنواعاً جديدة من الأشجار وطرقاً جديدة للحراثة والزراعة بالآلات حتى عدوا من أجل هذا أساتذة لعرب الحجاز^(٤)

(١) ص ٢٨١ خلاصة الوفاء

(٢) خلاصة الوفاء ص ٢٢٦

(٣) ص ٢٢٢ خلاصة الوفاء

(٤) Wellhausen : Skizzen & Vorarbeiten Heft 4 ص ١٤

ومنهم من حفر الآبار في الأراضى العالية ^(١) ومن أجل هذا كانت أراضيهم
أخصب بلاد العرب .

وكان اليهود يشتغلون بتربية الماشية ^(٢) والدجاج ^(٣) وكانوا في جهات مقنا
يشتغلون بصيد الأسماك وكانت نساؤهم تشتغل بنسج الأقمشة ^(٤)

وكانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز حتى صار
لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كابي رافع الخيبرى الذى أرسل بضاعته
بواسطة القوافل الى الشام واسود منها الأقمشة المختلفة ^(٥)

ويمكن أن يقال ان تجارة البلح والشعير والقمح كانت خاصة بهم في شمال
الحجاز . ونظراً لما كان عندهم من مال وثروة فقد كان كثير من الأعراب يرهنون
عندهم بعض الأمتعة ليسمدينوا منهم ما يحنجون اليه ^(٦) كما يقال عن النبي محمد
انه رهن درعاً بمدينة عند يهودى وأخذ منه شعيراً لاهله ^(٧)

وكان أخذ الربا شائعاً عندهم حتى أن القرآن وجه اليهم بسببه أشد توبيخ
وأعنف تأنيب « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وصددهم
عن سبيل الله كثيراً وأخذهم الرب وقد نهوا عنه وأكلمهم أموال الناس بالباطل
وأعندنا لكافرين منهم عذاباً أليماً » ^(٨)

ولكن التعامل بالربا في تلك العصور لم يكن خاصاً بهم بل كن العرب جميعاً
يتعاملون به ولا يرون فيه شيئاً معيباً مطلقاً بل كانوا يعتبرونه نوعاً من البيع وكان

(١) Wustenfild : Geschichte der Stadt Medinah ص ٢١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٨٥

(٣) ابن هشام جزء ٣ ص ٢٨٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٦٠

(٥) تاريخ الخميس للديار بكرى جزء ٢ ص ١٢

(٦) البخارى جزء ٢ ص ١١٦

(٧) البخارى جزء ٢ ص ١٦ و ٤٥

(٨) سورة النساء ١٥٨

للمتعامل بلربا في مدينة الطائف شهرة فائقة عند جميع مدن الحجاز^(١) وكذلك كان نصارى نجران يتعاملون بلربا^(٢)

ومن الصناعات التي كان اليهود في بلاد العرب يزاولونها صناعة الصياغة التي اشتهر بها بنو قينقاع اذ لم يكن لهم صناعة سواها وكان لهم في يثرب حتى خاص يعرف بمحي بنى قينقاع

وقد جاء في الاغانى أن النابغة الذبياني أقبل الى المدينة يريد سوق بنى قينقاع فلما أشرف على السوق سمع الضجة وكانت سوق عظيمة فخاصت به ناقته فأنشأ يقول : كادت تهال من الأصوات راحلتى . . . ما رأيت كاليوم قط لولا أنهم نهتتها بالسوط لاجتدبت ، قد ملت الحبس في الآطام واشتعتفت^(٣)

وكانوا يزاولون صناعة السيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية التي كانت معروفة في بلاد الجزيرة في ذلك الزمن^(٤)

ولا غرو أن يكونوا كذلك فن صناعة الدروع المسرودة اشتهر بها داود (وألنا له الحديد أن عمل سابغات وقدر في السرد) سورة سبأ

أما الزراعة فكانت مهنة بقية البطون التي كانت تعيش في القرى وكانت مجموعة الدوائر الزراعية لتلك البطون هي التي تكونت منها مدينة يثرب كما يوضح ذلك من وصف السهمودي للمدينة^(٥)

وكذلك كانت الحبال في خيبر وفي وادي القرى وتيماء التي اشتملت على أرياف كثيرة

(١) فتوح البلدان ص ٦٥

(٢) فتوح البلدان ص ٦٤ — ٦٦

(٣) هذه الشطرات مأخوذة من الاغانى جزء ٢١ ص ٦٢ وهي هناك حوار بين النابغة والربيع ابن ابي الحقيق وقد اكتفينا هذه الاشارة مراعاة للسياق

(٤) كتاب المغازى لواقدي ص ٢٧٢

(٥) خلاصة الوفاء للسهمودي ص ٨٠

وفوق ذلك فقد كان لليهود شغف بفنون القتال والنضال وقد اشتركوا مع العرب في بعض حروبهم المشهورة

ويتضح لنا من جواب بنى قينقاع الذى بعثوا به الى الرسول بعد يوم بدر انهم كانوا ذوى قوة و بطش إذ يقولون فيه : يا محمد لا يغرنك انك لقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم الفرصة انا والله ائن حاربناك لتعلمن انا نحن الناس (١) كذلك نجد عبد الله بن أبي يفتخر بشجاعة مواليه بنى قينقاع ... (٢)

أما لغة اليهود في بلاد العرب فكانت بطبيعة الحال اللغة العربية ولكنها لم تكن عربية خالصة بل كانت مشوبة بالرطانة العبرية لأنهم لم يتركوا استعمال اللغة العبرية تركاً تاماً بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم فكان من الضروري أن يدخل في عريتهم بعض الكلمات العبرية وقد ذكر صاحب فتوح البلدان أن يهود يثرب كانوا أساتذة العرب في تعلم الكتابة العربية (٣)

ويقسم القرآن يهود الحجاز الى قسمين : أحبار وجهلة أميين « ومنهم أميون لا يعلمون الكتابة الا أمانى وإن هم الا يظنون فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً » (٤) وكلمة حبر هذه عبرية الأصل إذ معناها الرفيق (חבר) وقد كانت تطلق في العصور الاولى ق.م على كل عضو من أعضاء الشيعة اليهودية الدينية الفروشم (פרושים) ثم لما

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٥

(٣) البلاذرى ص ٤٧٣

(٤) سورة البقرة ٧٢

تغلبت تعاليم هذه الفئة أصبح كل متعلم من اليهود يلقب بلقب حبر^(١) ولذلك كان الاحبار موضع الاحترام العظيم كما يتضح لنا من قصة لابن هشام « قال عبد الله بن سلام فأدخلني رسول الله في بعض بيوته ودخل عليه بعض اليهود وكلوه ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا^(٢) »

وكان من أعمال الأُحبار أن يتولوا القضاء ويفصلوا للناس فيما شجر بينهم كما كانوا أصحاب الأمر والنهي في كل الشؤون الدنيوية كما يقول القرآن الكريم « لولا ينهائم الربايون والاحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون^(٣) » وكان اليهود يستأنفون الصلاة ثلاث مرات في كل يوم وكانت قبلة اليهود أثناء الصلاة متجهة الى بيت المقدس كما كانت قبلة رسول الاسلام الى زمن هجرته للمدينة اذ يحدثنا ابن هشام أن الرسول كان يفدو بمكة وقبلته الى الشام فكان اذا صلى صلى بين الركنين البراني والاسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام^(٤)

وقد يؤكد حديث البخارى هذا القول اذ يقول إن رسول الله كان أول ما قدم المدينة يصلى قبل بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكانت اليهود قد أعجبهم اذا كان يصلى قبل بيت المقدس^(٥) ويحدثنا ابن هشام أن يهود يثرب كانوا يدعون الناس للصلاة بالنفخ في البوق^(٦)

(١) הסטוריה ישראלית جزء ٢ ص ٩٩

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٩

(٣) سورة المائدة ٦٨

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧١ و ص ٣١٤

(٥) البخارى جزء ١ ص ١٨

(٦) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠١ البخارى جزء ١ ص ١٠٦

وكان اليهود يصومون في العاشوراء فلما قدم النبي محمد المدينة ورآهم يصومونه قال ما هذا ؟ قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى قال فأنا أحق بموسى منكم فصامه فأمر بصيامه وكانت اليهود تعده عيداً (١)



واذا وُفّقنا الى أن نميز بين يهود الحجاز والعرب من وجهة الدين والعقلية فانه من المتعذر أن نوفق الى التمييز بين العنصرين من وجهة الاخلاق والعادات والنظم والتقاليد الاجتماعية لان اليهود الذين سكنوا في بلاد العرب لم يلبثوا أن تخلقوا بأخلاق العرب وتمسكوا بعاداتهم واتبعوا سبيلهم في النظم والتقاليد الاجتماعية حتى أصبحوا كأن لم يكونوا من جنس آخر غير الجنس العربي ولا أعلم في تاريخ اليهود القديم اقلية تأثر فيه اليهود بأخلاق وعادات ونقائيد أبنائه الى هذا الحد سوى افليم الجزيرة العربية

كان اليهود في تفاخرهم وتشاجرهم على حد ما كان العرب تماماً في جميع ذلك وكذلك كانوا مثلهم في التمدح بالشجاعة وعلو الهمة واكرام الضيف والنفور من الجبن والبخل وكانوا يوقدون النيران في الليل ليرشدوا السائرين وليدعوهم الى الضيافة والاكرام (٢) كما كان يفعل العرب إعلاء لشرفهم وصيانة لمجدهم .

ذكر ابن هشام ان حى بن أخطب أتى كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وكان قد أودع رسول الله على قومه وعاقده على ذلك فلما سمع كعب بحى ابن اخطب اغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فناداه حى افتح لى اكلمك قال ما أنا بفاعل قال والله ان أغلقت الحصن دونى الا تخوفت

(١) البخارى جزء ١ ص ٤٩٨

(٢) الواقدى ص ١٧٠

حشيشتك أن آكل منها فأحفظ الرجل ففتح له^(١)

وكما ان قرض الشعر كان طبيعة من طبائع العرب وسجية من سجايهم وطريقة من أجل طرق التعبير والتفكير لديهم حتى كان المفكر العربي يسترسل في القول الموزون استرسالا يَسَحَرُ العقولَ ويأخذ بالألباب كذلك اندفع اليهود في قرض الشعر باللغة العربية اندفاعا قويا فجعلوا ينظمون الأبيات البديعة والقصائد المتينة في الكرم والوفاء والشجاعة وفي وصف البلدان والحيوان وفي وصف جمال المرأة والتشبيب بها وبالأجمال كل ما كان يحرك نفس العربي ويدعوه الى قرض الشعر من تهديد ووعيد ومدح وثناء وذم وهجاء ووصف ونحوه كان يحرك نفوس الشعراء من اليهود في الجاهلية ويدعوهم الى أن يخوضوا فيه بالقول الفصل والشعر المتين

بيدان ما وصل الينا من شعر يهود الجاهلية قليل جدا لا يعدو بضع قصائد وأبيات مبعثرة في أمهات كنب الأدب العربي وهكذا أفقدتنا الحوادث الكثيرة أكثر تلك الثروة الأدبية من أولئك اليهود الجاهليين ولم تترك لنا منه حتى ما يمكن الباحث الناقد أن يكون له رأيا واضحا عن عقليتهم وتمييز شخصياتهم بعضها من بعض

يقول استاذي الدكتور طه حسين : أما أثر اليهود الادبي فيسير الفهم لاننا نعلم كيف تؤثر هذه الحركات في العقول ولا سيما عند العرب ونزيد على أثرهم العقلي انهم كانوا بعدائهم للأ نصار ومحاربتهم ايام شؤما على الادب العربي وسببا في ضياع الكثير منه واختراع الكثير . . . ويصل الدكتور بعد بحث طويل الى ثلاث نتائج خطيرة من أثر اليهود

(١) ان لليهود في الأدب العربي أثرا كبيرا جنى على ظهوره ما كان بين

العرب و بين اليهود

(٢) ان اليهود قالوا كثيرا من الشعر في الدين وهجاء العرب وقد أضاءه مؤلفو العرب

ان اليهود انتحلوا شعرا لاثبات سابقةتهم في الجاهلية على لسان شعرائهم وشعراء العرب . . . (١)

والذى حملنى على أن أثبت بعض نظريات اسنناذى الدكتور طه حسين بصدد شعراء يهود الجاهلية هو :

(١) انى قد جمعت كل ما ينسب الى شعراء اليهود في الجاهلية ولم أجد فيه فرقا ظاهرا يميزه عن بقية الشعر الجاهلى في حين ان هناك فرقا شاسعا لا يخفى بين اليهود والعرب من وجهة الدين والعقلية واتجاه الأفكار (٢)

(٢) لا شك في أن اللغة العبرية تركت في أشعارهم آثارا ظاهرة خصوصا فيما يتعلق بالشعر الدينى (Liturgie) فقد كانت النزعة الدينية قوية في نفوس يهود الحجاز فليس ممكنا أن لا يوجد هناك شعر دينى يعبد الدوحيد وآل موسى وأنبياء بنى اسرائيل ويحط من قيمة الأصنام وعبادتها لان مثل هذا النوع قد ظهر في الادب اليهودى في كل عصوره القديمة

(٣) ان الذى يعنى نظره في قصائد السموءل يوضح له جليا انها قد طرأ عليها كثير من التقلبات والتغييرات حتى ليتعذر على الباحث أن يميز القديم منها والحديث أو يفرق بين الصحيح والمنتحل

هذا الى أن الابيات القليلة التى وصلت اليينا من شعر اليهود لا تكفى لتخليد أسماء شعرائها مما يجعلنا نجزم بأنه قد كان هناك شعراء مجيدون ولكن ضاع شعرهم ولم يبق لهم منه الا أسماؤهم كأنها صدى ما كانت لهم من شهرة وبعد صوت

(٤) اذا كان العرب أنفسهم لم يستطيعوا أن يحافظوا على شعر آبائهم وأجدادهم مع انهم ظلوا كما كانوا عليه لم يصبرهم شيء سوى تغيير العقيدة فبقيت لهم لغتهم وتقاليدهم فكيف كان من الممكن أن تحفظ شعرها أمة غلبت على أمرها حتى قُتِي منها من فني وهاجر منها من قُدر له أن يعيش ولكن في غير البلاد التي نشأ فيها واطمأن اليها وضاعت ورائتهم الروحية ولم يبق لهم ذكر في البلاد العربية

ليس من السهل انكار وجود شعراء من اليهود في الجاهلية فقد اشترك اليهود مع العرب في جميع المرافق الحيوية في الجزيرة العربية من اقتصادية وسياسية فبعيد كل البعد ألا يشتركوا معهم في النهضة الفكرية والشعرية ووجود علاقة دموية متينة بين اليهود والعرب يثبت اشتراك العنصرين في النزعة الشعرية وانها كانت مطبوعة في النفس اليهودية وكامنة فيها قبل أن يسكن اليهود في الجزيرة العربية فلما انتقلوا اليها واختلطوا بالعرب وتخلقوا بأخلاقهم نمت هذه النزعة الفطرية وأزهرت ثم أثمرت ثمرها الشهي فقرض اليهود الشعر العربي ارتجالاً وتكاملاً

وعندى أن السبب في قلة ما وصل إلينا من شعر اليهود في الجاهلية ومن أسماء شعرائهم إنما يرجع الى ضعف اقبال اليهود على اعتناق الاسلام والذي حافظ على القليل الذي وصل إلينا هم اليهود الذين اعتنقوا الاسلام ومن تناسل منهم تخليداً لما كان لأجدادهم من مجد أثيل وشرف عظيم وقد يجوز أنه لو لم يسلم بعض الأفراد من ذرية السموءل لما وصل إلينا من شعره كثير ولا قليل ولا سمعنا حتى ولا باسمه

ويظهر أن الشعراء اليهود الذين وصل ذكرهم إلينا كانوا يعيشون في القرن السادس ب م. فأدرك بعضهم العصر الاسلامي

ولم نعرف منهم من هو أعظم شهرة وأبعد صيتاً من السموءل بن عادياء الذى يُشعر اسمه بأن أصله عبرى رغم ما وجد عند بعض الأدباء الأقدمين من الميل الى إثبات أن هناك صلة بينه وبين بعض الأسماء العربية وقد وجدوا لهذا الاسم فى العربية معانى مختلفة فهو اسم لطائر يكنى أبا براء وهو أيضاً الظل وذباب الخل السريع^(١)

ولا نعرف من ترجمة حياته سوى النزر اليسير
وقال صاحب الأغاني انه من ينرب^(٢) وكان صاحب تيماء التى عرفت بتيماء اليهودية وعليها حصنه الابلق الفرد يشرف على تيماء بين الحجاز والشام على رابية من تراب فيه آثار أبنية من لبن لا تدل على ما يحكى عنها من عظمة وحصانة وهى خراب^(٣)

وأما الأب الذى طبع ديوان السموءل حسب رواية أبي عبد الله نفطويه فله زعم غريب فى السموءل ذلك انه يزعم أن السموءل كان نصرانياً ويستند فى زعمه على ما يأتى :

(١) ان السموءل كان ينسب الى غسان وغسان كانت نصرانية
(٢) انه فى بعض أبيات تنسب للسموءل ذكر للسيد المسيح والحواريين
أما هذه الأبيات التى استدل بها الاب شيخو ففى ما جاء فى ديوان الحماسة
لابى تمام فى آخر اللامية المشهورة للسموءل

فان بنى الديان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول
وكان بنو الديان كما وضع الاب شيخو من نصارى نجران^(٤)

(١) قاله فى التاج ص ٧ ج ٣٨٢ راجع ديوان السموءل طبع الاب شيخو ص ٤

(٢) جزء ٦ ص ٨٢

(٣) معجم البلدان لياقوت نمرة ٦٥٣

(٤) راجع مقدمة الاب شيخو لديوان السموءل

لكن التبريزي يقول في شرحه لهذا البيت انه لعبد الله الحارثي لا للسموئل^(١) ... وقبل أن أتعرض لمزاعم الأب شيخو أريد أن أمدح فيه غيرته الدينية اذ هي التي كانت الدافع الأكبر له على طبعه ديوان السموئل وجمعه كل ما قاله العرب في عصورهم المختلفة عن السموئل وهي التي دفعته الى أن يبذل مجهودا عظيما في سبيل اظهار ديوان السموئل . قرونا بالشرح المفصل والملاحظات السديدة

ولم تقف نزعتيه الدينية عند هذا الحد بل حملته على أن يبذل مجهودا شديدا آخر في سبيل جمع أشعار أغلب شعراء الجاهلية في مؤلف واحد وتنظيمها تنظيما بديعا وشرح ما فيها من كلمات غريبة كما جاء بارشادات الافرنج في هذا الموضوع وقد أطلق على هذا السفر النفيس اسم شعراء النصرانية بالرغم من ان الحقيقة التاريخية لا تسمح له بهذه التسمية

ولكنه وقد أبى على السموئل أن يكون يهوديا بالرغم من أنه لم يشك أحد في يهودية السموئل فليس عجيبا منه أن يدعى أن جميع الشعراء الذين جمع شعرهم في سفره ليسوا الا مسيحيين

أما من جهة نسبه فلسنا ننكره ولا ننفيه لأن علماء العرب قد اختلفوا في نسب هذا الشاعر اختلافا كبيرا فبينما الأغاني يقول في موضع انه السموئل بن عادياء^(٢) إذا به في موضع آخر يقول : ان غريضا اليهودي هو السموئل بن عادياء^(٣) وبينما الميداني في أمثاله يقول انه السموئل بن حيان عادياء^(٤) اذا بتاج العروس يقول انه السموئل بن أوفى بن عادياء^(٥) واذا بصاحب معاهد التنصيص

(١) ديوان الحماسة لابن تمام طبع الرافعي ص ٣١

(٢) الاغاني جزء ١٩ ص ١٢

(٣) الاغاني جزء ٣ ص ١٢

(٤) امثال الميداني جزء ٢ ص ٢٧٦ طبع مصر

(٥) تاج العروس طبع مصر جزء ٧ ص ٢٨٢

يقول انه ولد الكاهن هارون بن عمران ^(١) وبينما يقولون ان قبيلته غسان اذا
بغيرهم يقول ان أومه فقط التي كانت من غسان
ونحن ازاء هذا الاختلاف والاضطراب في نسب السموءل لا نستطيع أن
نطمئن الى رأى

لكن سواء صح أن السموءل كان من غسان أو لم يصح فليس يدل ذلك على
أنه كان نصرانياً بل ليس يدعو للشك في صحة ما أجمع عليه المؤرخون من انه كان
يهودياً ومن ذا الذى يستطيع أن يأتى ببرهان قاطع على أن كل بطون غسان
كانت قد تنصرت بل المرجح أن البطون الغسانية التي لم تذهب الى حدود الشام
بقيت على وثنياتها وان هناك بطناً من بطون غسان كونت حياً من أحياء مدينة
يثرب ^(٢)

ومهما يكن من شئ فليس يصح للعالم المحقق أن يستدل بدين بعض بطون
قبيلة واحدة على دين كل بطونها فليس من شك في انه كانت هناك قبائل تدين
بطونها بديانات مختلفة

ومن العجيب أن الأب المحترم لا ينكر أن شعبة بن غريض أخا السموءل
صاحب حصن تيماء اليهودية كان يهودياً فكيف ينكر يهودية الأخ الآخر
والذى قلناه عن بطون غسان يقال أيضاً عن آل بنى ديان لكننى أضيف
اليه أن الاسم « ديان » على العموم كان من الأسماء المشهورة عند اليهود فكانت
كل الأسر التي تحتكر لنفسها مراكز القضاء الشرعى عند اليهود تعرف باسم آل
ديان (٢٦) فمن المحتمل أن السموءل الذى كان ينتمى على قول بعض المؤرخين
الى السكمان كان والده أو بعض أجداده حاكماً شرعياً فأطلق على الأسرة
اسم ديان

(١) معاهد التنصيص طبع مصر جزء ١ ص ١٣١

(٢) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٥

يلاحظ الأب الفاضل على ترجمة نفطويه للسموول ويقول : وفي ديواننا هذا يدعو الراوى يهودياً وليس قوله مقنعاً^(١) وقد تبيننت انه مقنع ...
أما الأبيات التي جاء بها ذكر السيد المسيح والحواريين فواضح أن من السهل على أى شاعر نصراني أن ينحلها سموول في القصيدة التائية المنسوبة اليه وهذه بعض أبيات القصيدة ننقل منها ما يتعلق بموضوعنا

ينفع الطيب القليل من الرز
ق ولا ينفع الكثير الخبيث^(٢)
فاجعل الرزق في الحلال من الكس
ب وبرا سريرتى ما حييت

عن الرزق الحلال
من

وأنتنى الانبياء عن ملك داو
د فقرت عيني به ورضيت
وسليمان والحوارى يحيى
ومتى يوسف كانى وليت
وبقايا الاسباط أسباط يعقو
ب دراس التوراة والتسابوت
وانفلاق الامواج طورين عن
سى وبعد الملك الطالوت
ومصاب الافريس حين عصا الا
ه واذا صاب حينه الجالوت

قصيدة أبيات معلقة

(١) ديوان سموول ص ٥

(٢) في نوادر ابي زيد الانصارى طبع بيروت (ص ١٠٤) ان الخليل سأل الاصمعي عن الخبيث في هذا البيت فقال يريد الخبيث وهى لغة خيبر ويروى لغة قريظة فقال له الخليل :

<p>ليس يعطى القوى فضلا من الرزق ق ولا يحرم الضعيف الشخصية بل لكل من رزقه ما قضى الا ه وان حزن أنفه المستتميت^(٣)</p>	}	<p>الرجوع الى موضوع الرزق</p>
--	---	-------------------------------

ويظهر ان الأب الفاضل لم يقنع بزعمه فأضاف اليه قوله « ولعل فصل الخطاب في هذا ما يقال من أن السموءل كان من احدى تلك الشيع الجامعة بين عادات اليهود وعقائد النصرانية التي اعبرت الاردن وقت حصار الروم لاوروشليم فسكنت في بلاد العرب ^(١)

ويظهر من كلامه هذا انه غير عالم بتاريخ اليهود في صدر النصرانية فان مما لا جدال فيه انه وجدت طائفة يهودية نصرانية في بادى أمرها في الحين الذي كانت فيه النصرانية دعوة يهودية بحثة وكان النصارى شيعة من شيع اليهود وقد فنيت هذه الفئة بعد ان أخذت النصرانية تنتشر بين اليونان والسريان ولم يبق للطائفة اليهودية النصرانية (secte judéo- chrétienne) ذكر في القرن الثالث ب. م. وليس لنا مراجع تاريخية تثبت وجود طائفة يهودية نصرانية منفردة في الجزيرة العربية وعلى العموم فان ديوان السموءل لنقطويه مجموعة من الشعر المليح والقبيح والسمين والغبث أنتجته قرائح مختلفة فمن شاعر متين الى آخر سخيف ومن شاعر مطبوع الى آخر متكلف وأغلبها مزور مدسوس على السموءل
أما القصيدة اللامية التي أولها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

لو كان ذلك لغتهم لقال الكثير وانما كان ينبغي ان تقول انهم يلقبون الثاء تاء في بعض الحروف ...

(١) ديوان السموءل لنقطويه طبع الاب شيخو ص ١٣

(٢) ديوان السموءل لنقطويه طبع الاب شيخو ص ٥

والتي يقول عنها صاحب كتاب الطراز انها تشتمل على مكارم الاخلاق من سماحة وشجاعة وتواضع وحلم وصبر وتكلف واحتمال للمكاره . . . (١) هذه اللامية التي خلدت اسم السموءل ذهبت فيها آراء الادباء مذاهب شتى حتى ان الاغانى يقف ازاءها موقف الحائر المضطرب فيقرر طورا انها لشريح بن السموءل (٢) ويقول مرة أخرى انها للسموئل نفسه و ينسبها في موضع ثالث اشاعر غير معروف اسمه دكين العذرى (١) (٣)

ولا شك ان اختلاف أقوال الاغانى ناشىء من تعدد الروايات التي كانت أمامه وكذلك اختلف الرواة في نقل القصيدة اختلافا كبيرا فمنهم من يقدم بعض أبياتها على بعض ومنهم من يعكس عمل الآخر ومنهم من يزيد فيها ومن ينقص (٤) فهذه الاختلافات في نسب مؤلف القصيدة وهذه التصرفات المتباينة في ترتيب أبياتها تنتج حتما الريبة في نفس الباحث في صحة نسبتها للسموئل والذي يقرأ القصيدة الفريدة المنسوبة للسموئل في كتاب طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي (٥) الذي يعتبر ثقة في جمعه شعر الجاهلية نظراً لقدمه وسلامة ذوقه ودقة تقده يأخذه العجب حين لا يجد للسموئل إلا أبياتاً قليلة مع عدم تنبيه ابن سلام على وجود أبيات أخرى للسموئل

وقد جاء ابن سلام بقصيدة لشعبة بن غريص (٦) بينما نسب ابن نباته في شرحه لرسالة ابن زيدون (٧) نفس هذه القصيدة للسموئل وهي القصيدة التي مطلعها

(١) راجع ديوان السموئل ص ٢٥

(٢) الاغانى جزء ٦ ص ٦٧

(٣) الاغانى جزء ٨ ص ١٥٥

(٤) ديوان السموئل ص ٢٥ — ٢٧

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي طبع مصر شعراء اليهود ص ١٠٩ — ١١٤

(٦) طبقات الشعراء ص ١١١

(٧) شرح ابن نباته لرسالة ابن زيدون طبع مصر ص ٥٤

يا ليت شعري حين أندب هالكاً ماذا تُرَيثنى به أنواحى

والسمول أبيات لا يشك في صحتها القدماء

وفيت بأدرع الكندي إني اذا ما ذم أقوام وفيت

وأوحى عاديا يوماً بأن لا تهدم يا سمول ما بنيت

بى لى عاديا حصاً حصيناً وبثراً كلما شئت استقيت^(١)

والذى قيل في شعر السمول يمكن أن يعبر مقياساً صالحاً للبحث في شعر

بقية يهود الجاهلية إذ لا يمكننا بوجه من الوجوه أن نقول قولاً فصلاً بأنها وصلت

الينا عن يهود الجاهلية

والشخصية البارزة بعد السمول هى شخصية كعب بن الاشرف وكان من

أصحاب النفوذ والبطش بالسيف واللسان لا على اليهود فحسب بل على قريش

أيضاً وقد كان عربياً أكثر منه يهودياً إذ كان أبوه من عرب طى وأمه من بنى

النضير وقد توفى أبوه وهو صغير فحملته أمه الى أخواله فنشأ فيهم وساد وكبر أمره

وكان شاعراً فارساً وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره في الحروب التى كانت

بين الأوس والخزرج وكان شاعراً فحلاً وخطيباً فصيحاً وكان يهجو النبی ويهجو

أصحابه فبعث النبي نفرأ من أصحابه فقتلوه فى داره^(٢)

وأما الابيات التى ينسبها ابن سلام الجمحي لكعب بن الاشرف والتى

تشتمل على وصف دقيق لدار وصفها وصفاً صادقاً وجزأً فانها تشهد لشاعرها بأنه

كان مبدعاً فى أسلوبه معجباً بالمناظر الطبيعية وهذه هى الأبيات

رُبَّ خَالٍ لِيْ لَوْ أَبْصَرْتَهُ سَبَطَ الْمِشْيَةَ أَبَاءَ أَنْفِ

لَيْنِ الْجَانِبِ فِي أَقْرَبِهِ وَعَلَى الْأَعْدَاءِ سَمٌ كَالزَّعْفِ

وَلَنَا بَثْرٌ رَوَاءَ جَمَةِ مِنْ يَرِذُّهَا بَاءٌ يَغْتَرَفُ

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٩

(٢) الاغانى ج ١٩ ص ١٠٦

ونخيل في قلاع جمة تمزج التمر كأمثال الاكف
وحرير في محال خلة آخر الليل أهازيج بُدْف (١)

وقد نسب اليه ابن هشام قصيدة في رثاء قتلى يوم بدر من سراة وعظما.
مكة

طحنت رحي بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تَسْتَهْلُ الأُدع
قنات سراة الناس حول حياضهم لا تبعثوا إن الملوك تَصَرَّعُ (٢)

ومع أنها تلائم الحالة السياسية التي كان عليها كعب بن الاشرف وبقية
قريش بعد يوم بدر ويحتمل أن قائلها كان كعب بن الاشرف فلنا الحق أيضاً
أن نشك في صحتها إذ لا يمكن على الاطلاق الاعتماد على كل ما سرد في كتاب
السيرة فكثيراً ما نعثر فيه على قصائد طويلة ينسبها ابن هشام لبطون حمير في
حين تدل لغتها على أن قائلها من قريش فكيف يمكننا أن نشك بنسبته هذه
القصيدة الى كعب بن الاشرف ... على أن الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار
يقول إن وجود شعر منسوب الى حميريين أو قحطانيين بلغة مضر لا يقتضى أن
يكون مورده في السيرة قد نحله غير قائله وحمله عليه كذباً وإن كان المنسوب
اليه جاهلياً

ذلك أن اللغة المضرية قد اقتحمت على لغات أهل اليمن . مواطنها وتغلغلت
في أحشائها وآية ذلك أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قد وفدت عليه وفود
قبائل اليمن القاصية والدانية ولم يكونوا يحتاجون في مخاطبتهم لرسول الله وحوارهم
له ولأصحابه الى ترجمان يعبر عما يجول بخواطر الفريقين من المعاني التي يريد كل
فريق أن يلقبها الى الآخر . وهذا على عليه السلام ومعاذ رضى الله عنه أرسلها
رسول الله الى اليمن ولم يحتاجا الى مترجم يترجم لكل منهما كلام من أرسلوا

(١) طبقات الشعراء ص ١١٠

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٨

اليهم . وهذا كما قلت دليل على أن المضربية قد سادت لغات العرب قبل الاسلام وصارت من القوم بحيث لا يستكثر . مستكثر أن يقول بها الحميرى أو القحطاني شعره الذى يريد أن يذيعه بين العرب . . . اه

ثم إن هناك اسما آخر يلفت عنايتنا وهو سارة القريظية التى ينسب اليها شعر فى رثاء قومه بعد أن قتل أبو جبيلة أشراف اليهود حيث تقول

بنى حُرُض تُعْفِيهَا الرياح	بنفسى أمة لم تغن شيئا
سيوف الخزرجية والرماح	كهول من قريظة أثلَفَتْهَا
يمر لأهلها الماء القراح	رزئنا والرزية ذات ثقل
هنالك دونهم جأوى رَدَّاح ^(١)	ولو أربوا بأمرهم لجالت

ولو صححت هذه الرواية لكان من الممكن أن نستدل بها على أن المرأة اليهودية كانت تشترك اشتراكا فعلياً فى جلب الرزق لأسرتها من ناحية وفى نمو القوى العقلية من ناحية أخرى

وليس ذلك بغريب على الفتاة الاسرائيلية بوجه عام فى جميع أدوار تاريخ أمتها إذ قد ظهر من الجنس اللطيف اليهودى النابغات والشاعرات والبطلات والملكات

(١) الاغانى جزء ١٩ ص ٩٦

الباب الثاني

ظهور اليهودية في بلاد اليمن

اسباب انتشار اليهودية في بلاد اليمن — اضطراب أقوال المؤرخين في هذا الباب —
العوامل الدينية والسياسية لظهور اليهودية في بلاد اليمن — مطامع الدول الرومانية الشرقية
في بلاد اليمن — لماذا انتشرت اليهودية في بلاد اليمن ؟ — وقت ظهور اليهودية في اليمن —
آراء المستشرقين — رأى المؤلف — أقوال مؤرخي العرب في ملوك حمير اليهود — أسباب
اعتناقهم اليهودية — رأى ابن هشام والطبرى — أول ملوك حمير اليهود — يوسف ذو
نواس — حياته كما ذكرها ابن هشام — اضطهاد أهل نجران — أسباب ذلك الاضطهاد —
ذكر القرآن الكريم لقتلى نجران — استنجاد أهل نجران بالروم — اغارة الحبشة على
اليمن — تحقيق الحبشة مطامع الدولة الرومانية الشرقية في بلاد العرب — عام الفيل — تأثير
هزيمة الدولة الحميرية في نفوس اليهود

بعد أن بينا الأسباب التي أدت الى انتشار الديانة اليهودية في شمال بلاد
الحجاز نريد أن نوضح العوامل الاخرى التي دعت الى ظهور الدين اليهودي في
بلاد اليمن

لم تعتمد الديانة اليهودية في بلاد اليمن على العصبية اليهودية كما كان شأنها في
البلاد الحجازية لان الاغلبية المطلقة التي كونت أنصار هذا الدين الجديد في
اليمن كانت من سكان البلاد الاصليين

وقد اضطربت أقوال المؤرخين في أسباب ظهور الديانة اليهودية في ربوع
بني حمير فطائفة منهم ترى أن ظهورها كان نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية
والنصرانية تمكنت فيه الاولى من أن تتغلب على الاخرى في بادئ الامر ومن

هذه الطائفة العلماء (Graetz Wellhausen Halevy)

وطائفة أخرى تعترف بأن للعامل الدينى أثراً ظاهراً ولكنها ترجح أن الباعث الاصلى انما هو سياسى قبل كل شىء ومن هذه الطائفة العالمان (Glaser Winkler) وهذا الباعث الاصلى الذى تراه الطائفة الاخيرة هو أن ملوك الدولة الرومانية الشرقية بعد ان فرغوا من أمر الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية تأهبوا لضم أطرافها الى أملاكهم فسلوكوا لتنفيذ هذا الغرض طريقة سياسية محكمة حيث أرسلوا وفودا من الرهبان الى تلك البلاد وأمرهم أن يبشروا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ويمهدوا الافكار والنفوس لقبول التسلط السياسى الرومانى من جهة أخرى فلما تنبه ملوك حمير لهذه الحيل وأدركوا ما يتعرض له كياناتهم السياسى من الخطر الشديد بسببها نشطوا لاحتباطها وفكروا فى أمضى الاسلحة التى تمكنهم من القضاء عليها فهداهم فكرهم الى أن يعتنقوا الديانة اليهودية ليقاوهوا ديننا توحيديا بدين توحيدى آخر

وقد أصاب ملوك حمير فى هذه الفكرة كل الاصابة لان اعتناقهم لليهودية قضى على كل الحجج التى كان ملوك الدولة الرومانية الشرقية يعتمدون عليها فى الترويج لدعوتهم السياسية وانقطعت الوسائل التى كانوا يتوسلون بها للتأثير فى عقول أفراد الشعب وجماعاته

على أن هناك عاملين آخرين لظهور الديانة اليهودية فى بلاد اليمن لم يصرح بهما المؤرخون :

الاول : أن ملوك حمير لم يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية أن تتسلط عليهم دولة ذات سلطان كبير ونفوذ واسع ولم يكن لليهودية فى ذلك العصر دولة سياسية فى حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة فى فتح بلادهم

ومن هنا نفهم السر فى مقاومة الرهبان واضطهاد أهل نجران والنفور من

الحبشيين لانهم جميعاً كانوا آلة في أيدي السادة من ملوك قسطنطينية

الثانى : — وله أثر كبير فى انتشار اليهودية فى بلاد اليمن — وهو أن تعاليم الديانة اليهودية ومبادئها أقرب الى عقلية العرب من الديانة المسيحية التى كانت تستمد يومئذ بعض تعاليمها من الفلسفة اليونانية

ومع أنه كان هناك فى شمال الجزيرة قبائل عربية اعتنقت الديانة المسيحية فانى اعتقد ان النصرانية كما كان اليونان وغيرهم يفهمونها لم تتغلب فى وقت ما على النفوس العربية بدليل ان البطون العربية المسيحية دخلت فى الدين الاسلامى بعد اتصالها بجيوش الخلفاء الراشدين بلا كبير مقاومة فى حين كان اليهود فى شمال الجزيرة وجنوبها يدافعون عن الديانة اليهودية دفاعاً شريفاً . فيقاتلون جيوش الحبشة فى اليمن قتالا شديداً رغم ما كانت عليه هذه الجيوش من قوة البأس وكثرة العدد اللتين بواسطتهما فقط استطاعت أن تظهر على اليهود وان تفرقهم وتمزقهم

كذلك لم يَلْب اليهود دعوة رسول الاسلام ولا ينقص من قيمة هذه الحقيقة ان أفراداً من اليهود دخلوا فى ملة النبي محمد وولايته

ويؤيد هذه الحقيقة ما جاء فى البخارى حيث قل : لو آمن بى عشرة من اليهود لآمن بى اليهود (١)

وتاريخ ظهور اليهودية فى بلاد حمير موضع جدل عنيف بين علماء الأفرنج حتى الآن

فيقرر المستشرق (Prococke) وهو من علماء القرن الثامن عشر ان دولة حمير اليهودية ظهرت فى القرن الاول ق . م

ولكن العلماء يعارضون فى هذا الرأى ويقولون انه لو صح هذا الحدس لكان

يوسف المؤرخ اليهودي قد تكلم عن هذه الدولة اليهودية كما ذكر ظهور دولة آرامية متهودة على أطراف نهر الفرات النائية عن فلسطين وهي دولة حُدَيْب (١) ويقرر العالم (Silvester de Sacy) في كتابه (٢) ان ظهور اليهودية في اليمن لم يسبق القرن الثاني ب . م . ولكن المؤرخ اليهودي شيفر ينكر صحة هذا الرأي ويقول لو وجدت هناك دولة يهودية في القرن الثاني بعد الميلاد لكان التلمود يملأ صحائف غير قليلة بذكر أخبارها وسرد الأساطير عنها فسكوت التلمود عن هذه الظاهرة التاريخية أعظم دليل على عدم وجودها في قرون تأليفه (٣) (ختام التلمود في القرن الرابع بعد الميلاد)

ثم ظهرت في المجلة الاسيوية الفرنسية (٤) مقالة قيمة ناقض فيها العالم برون (Perron) جميع نظريات من ذكرنا ويقول ان دولة حمير اليهودية لم تظهر إلا في القرن الخامس بعد الميلاد ويستدل بما ذكره الطبري في هذا الشأن ويقول ان أحيحة الذي قاتل تَبَّانَ أسعد أبي كرب ملك حمير وصاحب الدعوة اليهودية طلق زوجه سلمة فذهبت الى مكة حيث تزوجت من هاشم أبي عبد المطلب جد النبي محمد وهذا يدل على ان مقاتلة تَبَّانَ أسعد لاهالي يثرب انما كانت حوالى نهاية القرن الخامس ب . م .

ثم ما ذكره الطبري من أنه كان لتَبَّانَ أسعد بنون ثلاثة حسن وعمر ووذُرْعَة ، وذُرْعَة هذا على حسب رواية ابن هشام هو ذو نواس آخر ملوك حمير

(١) שמחוני ج ٢ ص ١٩٢

(٢) Memoires sur divers evenement de l'histoire des Arabes avant Mahomet.

(٣) Craetz ج ٣ ص ٤٠٥

(٤) Journal asiatique 1838 Novembre p 358 (Sur l'introduction de judaisme au Yemen.)

واذن لا يمكن بوجه من الوجوه أن تكون هذه الدولة قد عاشت قبل القرن الخامس ب . م .

لا شك أن حجة بيرون (Perron) أمينة وأصح من نظريات غيره ممن ذكرناهم بيد أن هذه الحجة لا تنتج الجزم القاطع لأنها مبنية على أقوال ليست محل ثقة تامة لأن هناك شكاً في بعض الحوادث التاريخية التي ذكرناها

أما أنا فأرجح أن ظهور اليهودية في بلاد اليمن قد حدث قبل تبّان أسعد اذ من الصعب أن نقتنع بأن قبلاً واحداً يستطيع أن يرغم أقبال حمير على اعتناق دين جديد دون أن يحدث ذلك فتناً داخلية وان عدم وجود معارضة للدين اليهودي ليبدل على أنه كان هناك اناس من ذوى النفوذ السياسى مسحوا للديانة اليهودية التوحيدية أن تتسرب الى اليمن وتركوها تنتشر شيئاً فشيئاً أو ساعدوا على انتشارها بين الشعب من قبل أن يعلن تبّان أسعد انها صارت دين البلاد على ان المعقول أن يكون اليهود قد وجدوا في تلك الارزاء منذ أزمان بعيدة اذ لا يمكن أن يكون اليهود انتشروا في بلاد الحجاز في حين لا يكون منهم أحد في بلاد اليمن لا سيما وعدد كبير من اليهود تجار دأبهم التنقل والارتحال لتبادل البضائع في مختلف البلدان فلا بد أن تكون هناك جموع يهودية قد وصلت الى ثغور اليمن وحضرموت ثم توغلت الى الداخل شيئاً فشيئاً

ويقول الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار إن علاقة اليهود باليمن قديمة جداً يرجع تاريخها الى أيام ملك سليمان بن داود فقد جاء في سفر الملوك الاول في الاصحاح العاشر آية (١) ما نصه (وسمعت ملكة سبأ بنحبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل . فأتت الى اورشليم بموكب عظيم وكلته بكامل ما في قلبها الى آخر ذلك الاصحاح — والاصحاح التاسع من أخبار الايام الثانى من آية (١) الى آية (١٢) مثل عبارة أخبار الملوك الاول تكاد تكون احداها منقولة من الاخرى وكلاهما في وصف سليمان وحكمته واندهاش ملكة سبأ منه وتقديمها اليه الهدايا

والتحف التي أتت بها من بلادها وثنائها على سليمان وإله سليمان ثم عودتها الى بلادها — وقد وردت قصة سليمان مع ملكة سبأ في سورة النمل وهي السورة السابعة والعشرون من القرآن من أول الآية العشرين الى آخر الآية الرابعة والاربعين ومما جاء فيها حكاية قول الملكة لثومها عن كتاب سليمان « قالت يا أيها الملاء إني ألقى الى كتاب كريم إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ألا تعلوا على وأتوني مسلمين . قالت يا أيها الملاء أفوتوني في أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت ان الملك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون واني مرسله اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » ومنها (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبل وكنا مسلمين) ومنها (قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال انه صرح ممرد من قوارير قالت رب انى ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)

وأخبرني السيد محمد بن عقيل من سادات المكة انه قرأ في تاريخ الجندي من نحو خمسين سنة أن اليهود حين غلب الحبشان على اليمن رحلوا الى حضرموت وكان مقامهم بتلك النواحي الى خروج الحبشان من اليمن — اه . . . وقد أثبت العالم جلازر (Glaser) وجود اليهود في اليمن وحضرموت منذ عصور كثيرة قبل ظهور الاسلام واذن فهؤلاء اليهود هم الذين أنبتوا النبات في النفوس وتعهده حتى ترعرع ثم تأصت جذوره وظهر الميل عند قيل أو عدة أقيال لاعتناق اليهودية كما اعتنقت بطون عربية الديانة المسيحية بسبب نفوذ الرهبان وانتشار الدعوة اليها تدريجاً وقد كانت هناك جموع من العرب المتهودة وهي بطون كنانة وبنو الحارث بن كعب وبنو كندة سكنوا جميعاً بجوار مكة (١)

(١) Wüslensfeld ص ٢٠٩ من ابن قتيبة ج ٣ ص ٤٠٨ Graetz

وقد يكون في حكم الممكن انه بعد ان قفل تبان أسعد راجعاً من يثرب جمع الاقبيال المتهودة وكون فيها دولة حميرية يهودية لصدهجوم الدولة الحبشية وسد السبيل في وجه مطامعها ولمنع انتشار النصرانية التي كان ملوك الروم يتوسلون بها الى تنفيذ مطامعهم الاستعمارية

أما مؤرخو العرب فيأتون بقصة طويلة تشير الى سبب جدير بالاعتبار لظهور الدولة اليهودية في اليمن

يقول الطبري كان تبان أسعد حين أقبل من المشرق جعل طريقه على المدينة وقد كان حين مرّ بها في بدّأته خلف بين أظهرهم ابناً له فقتل غيلة فقدمها وهو جمع على تخريبها واستئصال شأفة أهلها وقطع نخلها غير أن سكان المدينة كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرونه بالليل فأعجبه ذلك منهم فبينما هو على ذلك من حربه لهم اذ جاءه خبران من أحبار اليهود من بني قريظة عالمان راسخان حين ممعا ما يريد من اهلاك المدينة وأهلها فقالا له أيها الملك لا تفعل فانك ان أبيت الا ما تريد حيل بينك وبينهم ولم نأمن عليك عاجل العقوبة لان يثرب مهاجرة نبي يخرج من هذه البلدة من قريش في آخر الزمان فتناهي عند ذلك الذي سمع من قولهما عما كان يريد بالمدينة ورأى أن لهما علماً وأعجبه ما سمع منهما فانصرف عن المدينة وخرج بهما الى اليمن واتبعهما على دينهما . . . (١)

وكذلك يروى هذه القصة صاحب السيرة النبوية وغيره من بقية مؤرخي العرب دون أن يزيدوا شيئاً

بعد ذلك يقول الطبري : لما توجه تبان أسعد الى اليمن مع جنوده حالت حمير بينه وبين دخوله الى بلاده وقالوا لا تدخلها وقد فارقت ديننا فدعاهم الى دينه وقال انه دين خير من دينكم قالوا فحنا كمننا الى النار فوافق الملك وكانت باليمن

(١) نقل بتصرف من كتاب الامم والملوك للطبري جزء ٢ ص ٢٥

نار تحكم بينهم فيما يختلفون فيه تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ولما قالوا ذلك لتبان قال أنصقتم نخرج قومهم بأوثانهم وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما متقلديهما حتى قصدوا للنار عند مخرجها الذي تخرج منه نخرجت اليهم فلما أقبلت نحوهم حادوا عنها وهابوها فذمهم من حضرهم من الناس وأمرهم بالصبر فصبروا حتى غشيتهم وأكلت الأوثان وخرج الخبران بمصاحفهما في أعناقهما حتى جباههما لم تضرهما فأصفت حمير عند ذلك وعند ذلك كان أصل اليهودية باليمن (١) ولكي أميل الى انكار صحة هذه القصة بغض الطرف عن أنها خرافة لان الامم لا تبدل أديانها كما تبدل الافراد ثيابها بل أن التغييرات السياسية والدينية انما تحصل اما بتغيير بطى، وانتقال عقلى متدرج فى برهة طويلة مستمرة واما بالثورة العنيفة تهدم القديم مرة واحدة وتبنى الجديد مرة واحدة أيضاً

والذى نعلمه عن حسن بن تبان أسعد أبى كرب هو أنه سار بأهل اليمن يريد أن يطأ بهم أرض العرب وأرض الأعاجم حتى اذا كانوا ببعض أرض العراق كرهت حمير المسير معه وأرادوا الرجعة الى بلادهم فكلموا أخاه له يقال له عمرو وكان معه فى جيشه فقال له اقتل أخاك حسن ونملكك علينا وترجع بنا الى بلادنا فأجابهم فاجتمعوا على ذلك الا ذا رعين الحميرى فانه نهاه عن ذلك فلم يقبل منه فقال ذورعين

ألا من يشتري سهرآ بنوم سعيد من يبيت قرير عين
فأما حمير غدرت وخانت فمعدرة الآله لذي رُعَيْن

ثم كتبها فى رقعة وختم عليها ثم أتى بها عمرا فقال له ضع لى هذا الكتاب عندك فقبل ثم قتل عمرو أخاه حسن ورجع من معه الى اليمن فلما نزل عمرو بن تبان اليمن منع منه النوم وسلط عليه السهر فلما أجهد ذلك سأل الأطباء والحزاء

من السكمان والعرافين عما به فقال له قاتل منهم انه والله ما قتل رجل قط أخاه بغيا على مثل ما قتلت أخاك عليه الا ذهب نومه وسلط عليه السم فلم يقيله ذلك جعل يقتل كل من أمره بقتل أخيه حسن من اشراف اليمن حتى خلاص الى ذى رعين فقال له ذورعين ان لى عندك براءة فقال وما هي قال الكتاب الذى دفعت اليك فأخرجه فاذا فيه البيتان فتركه وهلك عمرو . . . فرج أمر حمير عند ذلك وتفرقوا فوثب عليهم رجل من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له آخنيعة ينوف فقتل خيارهم وعبث ببيوت أهل المملكة الى أن تغلب عليه ذُرْعُه ذو نواس ابن تبان أسعد أخى حسن وكان صبيا حين قتل حسن ثم شب غلاماً جميلاً ذا هيئة وعقل^(١)

ويمكننا أن نستنتج من هذه الحوادث أن الوهن والضعف تغلبا على الدولة بعد موت تبان أسعد أبى كرب وأن موجبات الكراهية والتحاسد والتنافس قد فشت بين أفراد الأسرة المالكة فانفسح المجال أمام رواد الفتن ومحبي الاضطراب فلعبوا دورهم باتقان ونجاح

ولا نعلم مبلغ تأثير هذه الفتن والاضطرابات على دين الدولة ولا ماذا كانت ثورة لخنيعه ينوف متجهة الى الأسرة الحاكمة فقط أو كانت الفكرة متجهة أيضاً الى هدم كيان اليهودية فى اليمن فان جميع المصادر العربية لم تشر أقل اشارة الى شىء من هذا

ولسكننا مع ذلك نميل الى ترجيح أن يكون الثوار قد رموا بشورتهم أيضاً الى هدم اليهودية إذ لا بد من آلة يستعملونها للتأثير فى نفوس الشعب وتهميج عواطفه وخير وسيلة لذلك إنما هي أن يظهروا بمظهر المدافعين عن عقيدة الآباء والاجداد ودين البلاد الاصلى لا سيما وقد كان كثيرون من الاقباليين لم يستبدلوا بعد الديانة الوثنية بغيرها

ومن المحتمل أن الناثرين كانوا يستمدون قواهم وأموالهم من الخارج ويرجع هذا الاحتمال ما جاء فى بعض المراجع اليونانية من أن ثورة وثنية ثارت ضد ذى نواس كما سنوضح ذلك فيما بعد

وقد جاء فى المصادر اليونانية كثير من الأخبار عن ذى نواس هذا كما جاء منها الكثير أيضاً فى المراجع العربية

يعتقد العالم Perceval أن ذا نواس حكم بلاده من سنة ٤٩٠ — ٥٢٥ ب. م فى حين يقول شيفر إن ذا نواس ارتقى العرش سنة ٥٢٠ — ٥٣٠ ب. م (١) ويتضح لمن يبحث فى ترجمة حياته أنه لم يكن أول ملك يهودى بدليل أن تربيته كانت يهودية محضة وأنه كان فى عقلية وميوله يهودياً متعصباً لدينه مما يحمل على الاعتقاد بأنه قد لقن أساس الديانة الاسرائيلية من نعومة أظفاره بذل علماء البحث والتنقيب جهوداً كثيرة فى سبيل العثور على شىء من آثار الدولة الحيرية المتهودة ولكنهم لم يعثروا على شىء منها مطلقاً وهذا يدل على أحد أمرين

(١) أن هذه الدولة لم تجد من الوقت ما يكفى لإنشاء الأعمال العظيمة والآثار الخالدة التى ترشد الخلف وتدل الاجيال المقبلة على ما كان لها من قوة بأس وعظم سلطان

(٢) أن الضغط الحبشى الذى قضى على دولة حمير المتهودة محال ما كان له علاقة باليهود وقضى على جميع آثار دولتهم لأن النزاع الذى كان بين الحبشة ودولة حمير المتهودة لم يكن نزاعاً سياسياً فقط بل كان نزاعاً سياسياً ودينياً فى آن واحد ونحن نعلم أن الحروب الدينية أشد هولاً من السياسية وفيها يبذل المنتصرون كل مرتخص وغال فى سبيل استئصال شأفة الدين المغلوب ومحو آثاره

ويحدثنا ابن هشام عن حياة ذى نواس بقوله : وتسمى ذونواس يوسف فأقام

في ملكه زمناً . وبنجران بقايا من أهل دين عيسى بن مريم وهم أهل فضل واستقامة فسار اليهم ذو نواس بجنوده ودعاهم الى اليهودية فخيرهم بين ذلك والقتل فاختراروا القتل فخذ لهم الاخدود فحرق من حرق بالنار وقتل بالسيف من قتل ومثل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفاً (١)

والذي يعلم أن نجران لم تكن سوى بلدة صغيرة يدهش لهذه المبالغة في عدد القتلى إذ لم يكن عدد سكانها يزيد عن بضع مئات وفضلاً عن ذلك فإن ذا نواس لم يقتل كل أهالي نجران بدليل أن لهم ذكراً في أخبار صدر الاسلام (٢) وإذن فليس من شك في أن عدد القتلى من نصارى نجران لم يدرك عشرين ألفاً بوجه من الوجوه فهي مبالغة ظاهرة سببها أن اضطهاد ذى نواس للنصارى كان عنيفاً جداً حتى أنه ترك آثاراً هاجت النفوس العربية في البادية والحاضرة

وقد خلد القرآن الكريم ذكرى قتلى نجران بآيات من ذهب : قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نَقَمُوا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (٣)

أما المصادر اليونانية فتقول إن معاملة ذى نواس لنصارى نجران لم تكن إلا رد فعل لاضطهاد الدولة الرومانية لليهود حيث كانت تذيبهم الأمرين بواسطة عمالها في كل بلادها باسم الدين (٤)

بعد تلك الاضطهادات التي أصابت نصارى نجران حدث : أن أفلت منهم رجل من سبأ يقال له دوس ذو ثعلبان على فرس له فسلك الرمل فأعجزهم فمضى على وجهه حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذى نواس وجنوده وأخبره

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٣٤

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٦٥

(٣) سورة البروج ٤ — ٨

(٤) Graetz جزء ٢ ص ٨٨

بما بلغ منهم فقال له بعدت بلادك منا ولكن سأكتب لك الى ملك الحبشة فانه على هذا الدين وهو أقرب الى بلادك وكتب اليه يأمره بنصره والطلب بثأره فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً يقال له ارياط ومعه في جنده ابرهة الاشرم فركب ارياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان وسار اليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن فلما التقى الجمعان انهزم ذو نواس وأصحابه ... ولم يستطيعوا الثبات أمام جيش النجاشي فاتجه ذو نواس نحو البحر وضرب فرسه نخاض به ضحضاحه حتى أفضى به الى غمره ... (١)

على أن المؤرخ اليوناني يوحنا من مدينة افروس يقص خبراً لم تقصه المراجع العربية وهو أن دومينوس الحميري قبض على تجار من نصارى الروم وقتلهم واستمر يُعامل تجار الروم بالقسوة والعنف ويضطهدوهم اضطهاداً شديداً كلما مر منهم أحد ببلاد اليمن حتى انقطع جميع التجار المسيحيين من دخول بلاد اليمن فأصبحت الأسواق التجارية اليمنية بالكساد وضعفت فيها الحركة ضعفاً شديداً لأن هذه الأسواق كانت تستمد حياتها الاقتصادية مما تصدره الى الخارج من الحاصلات الزراعية والمنتجات الصناعية ومما يرد اليها من حاصلات البلاد الأخرى وكانت تغور بلاد اليمن هي الواسطة بين الهند وبين جميع الاصقاع الشرقية والغربية فكانت أسواقها لذلك شديدة الحركة كثيرة المعروضات وملتقى تجار كل هذه الجهات

لم يكن من الممكن أن ينظر اليمنيون الى شل حركة أسواقهم بعين الرضى لذلك تقدم ايدوج قيل من أقبال اليمن الوثنيين الى ذى نواس وقال له ان أعمالك القاسية ستؤدى الى تقل الحركة التجارية من تغورنا الى تغور أعدائنا فأجابه ذو نواس بقوله إن اخوانى اليهود فى بلاد الروم يذوقون ألواناً شتى من الأهوال

والتعذيب فأنا أريد أن أ كف أيدي الروم عن اقتراف الاتم بالابرار بمعاملتى لتجارهم هذه المعاملة السيئة . . .

ولم يرتض ايدوج هذا الجواب ولم يوافق على هذه السياسة التى يرى أنها ستؤدى الى خراب البلاد ففكر فى أن يتخلص من ذى نواس فاتفق مع باقى أقيال اليمين الوثنيين وجمع بواسطتهم جموعاً كثيرة قاتل بها ذا نواس حتى تغلب عليه وقتله ثم اعتنق ايدوج الديانة النصرانية^(١)

هذه هى رواية المؤرخ اليونانى يوحنا وهى تخالف ما نقلنا عن المصادر العربية من أن جيوش الحبشة هى التى قضت على دولة ذى نواس ونحن نرجح ما روته المراجع العربية لأن انكار غزو الحبشة لليمن غير ممكن مطلقاً نظراً لأنه قد يؤدى الى انكار حوادث هامة أخرى حدثت فى بلاد اليمن والحجاز بعد ذلك بزمان قليل

على أن لدينا شهادة لقائد من قواد الجيش الرومانى الشرقى الذى كان يحارب فى العراق ضد الجيش الفارسى أثناء وقوع حوادث اليمن هذه وهو يقصها بأسلوب لا يتعارض مع ما جاء فى كتاب السيرة لابن هشام ويعرف هذا القائد باسم (Prokop) بروكوب وهذه هى شهادته : . . . وقد استعد ملك الحبشة (Hilistiaus) الذى كان يغالى فى دينه لمحاربة ذى نواس لأنه كان يأخذ الأموال من تجار النصارى بغيا ثم جاء بجيش عظيم الى باب المندب وشن الغارة على سواحل بلاد حمير فسار ذو نواس اليه ولكنه انهزم هزيمة منكرة وهلك^(٢)

ولست أميل الى رأى القائل بان رواية المؤرخ يوحنا من مدينة افروس مختلفة بل أفترض أنها حدثت أثناء الاضطرابات الداخلية التى حدثت بعد قتل

(١) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٨ — ٤٠٩

(٢) Graetz جزء ٣ ص ٤٠٩

حسن بن تبان أسعد أبي كرب اذ قد يحتمل أن أعنيمة ينوف الوثني أو غيره طمع في عرش دولة حمير وحارب ملكا من ملوكها وقتله وحكم البلاد بعده برهة الى أن ثار أحد أفراد الأسرة التي كانت مالكة للملك المقتول وأعاد النظام الى نصابه وأخذت المياه تجري في مجراها

وهذا الفرض لو رجعت صحته يؤيد بقية ما أشرنا اليه من اضطراب حبل الأمن بعد ان قتل حسن بن تبان أسعد

ومها يكن من شيء فقد كللت مساعي الحبشة وجهودها ضد الدولة الحميرية المتهددة بالنجاح وتم لها القضاء على هذه الدولة قضاء نهائيا

وقد اشترك يوسطين اشتراكا فعليا في فتح اليمن لانه أرسل أسطول مصر البحرى مشحونا بالموثون والأسلحة الى الثغور اليمنية ويرجح بعض مؤرخى الافرنج أن جيوش يوسطين كانت معتزة أن تحتل اليمن بعد أن فتحتها الحبشة ويمكن قوات الفرس أقلت راحتها على حدود سورية فمنعتها من ذلك^(١)

بعد ان خصدت الحبشة شوكة الدولة الحميرية اليهودية في بلاد اليمن اتجهت نحو الوثنية تريد هدمها وكان من مجهوداتها في هذا السبيل بناء أبرهة لكنيسة القليس المشهورة في صنعاء ليصرف اليها حج العرب^(٢)

غير أن النساء وهم رؤساء الديانة الوثنية قاوموا فكرته ووقفوا سدا في سبيل تحقيق غرضه فصمم أبرهة على تنفيذ فكرته بالقوة وخرج بجيش كبير الى مكة يريد هدم الكعبة وابطال عقائدها غير انه لم يوفق أيضا لان جيشه انكسر انكسارا شنيعا فعاد منهزما الى اليمن كما يحدثنا ابن هشام بأخبار هذه الحملة المعروفة بعام الفيل^(٣)

(١) Graetz جزء ٣ ص ٨٨

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣

(٣) ابن هشام جزء ١ ص ٤٧ — ٥٤

وقد أشار القرآن الى هذه الواقعة في سورة الفيل حيث يقول « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف ما كول »

وقد كان لانكسار الدولة الحميرية أمام الحبشة رنة أسى شديدة في قلوب اليهود فظهرت مع الزمن أقاصيص كثيرة وأساطير خرافية عن أبطال حمير، فمن ذلك ما قيل ان أصل هؤلاء من بقايا أسباط بني اسرائيل البائدة وان هذه الجيوش لم تغلب على أمرها بل رجعت على أعقابها الى داخل البلاد الرملية وانها كونت في تلك الارحاء دولة عظيمة يظهر بطشها في اليوم الذي يتاح لها فيه النضال ويؤذن لها بنحوض الممارك

وقد كانت هذه الاقاصيص سبباً في أن شرع جماعة من اليهود في القرون الوسطى يرسلون الى بلاد العرب ليبحثوا عن تلك الجيوش التي توارت عن العيون



الباب الثالث

بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود

بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود — تأثير انكسار الدولة الحميرية في حياة اليهود
ببلاد العرب — تحرش الدولة الرومانية الشرقية باليهود في بلاد العرب — هجرة بطون
الاوس والخزرج الى جهات يثرب — اضطراب أقوال مؤرخي العرب في زمن هذه الهجرة
— نص ابن هشام — رأى صاحب الاغانى — رأى الاستاذ الحضري بك — سيل العرم
وزمن حدوته — آراء المستشرقين فيه — نتيجة بحاث العالم جلارز في هذا الموضوع —
سوء حال الاوس والخزرج — أوائل هجرتهم — وصف السهمودي لليهود وبطون
الازد اثناء سيادة الوفاق والصفاء بينهم — انقلاب الصفاء الى عداء بين اليهود وبني الازد
وأسابه — قصة السهمودي عن الملك الفيظون — رأى المؤلف فيها — رأى صاحب
الاغانى في سبب ظهور المداوة بين اليهود والعرب — من هو أبو جبيلة ؟ — لماذا تزح
ابو جبيلة لمحاربة يهود يثرب ؟ — هل كانت هناك مخالفة بين بطون الازد وملوك غسان ؟ —
الارتياب في صحة قصة ابي جبيلة واضطهاد يهود يثرب — ملوك غسان والدولة الرومانية
الشرقية — الكفاح للعنيف بين اليهودية والنصرانية في الجزيرة — يوم بعث — قيمة
حوادث يوم بعث — حياة العرب في الجاهلية — نتائج يوم بعث

يقول العلماء ان النكبة الشديدة التي نزلت باليهود في بلاد حمير قد أنتجت
نتائج سيئة لم يكن في الامكان أن تحدث لولا هذه النوائب
وأهم هذه النتائج تحمس العناصر النصرانية التي كانت تعتمد على مؤازرة
الدولة الرومانية ضد الديانة اليهودية وتحركها لهدم كيانها والقضاء على أصولها
ومبادئها في جميع أنحاء الجزيرة العربية وتهيج طمع القبائل العربية في أموال اليهود
ومستعمراتهم ورغبتهم في الحصول عليها والاستئثار بها

وقد كانت القبائل العربية قبل ذلك أى فى العصر الذى نمت فيه اليهودية فى بلاد اليمن وانتشرت بين سكانها لا تجرؤ مطلقا سواء منها الحضرى والبدوى على أن تمس اليهود بأذى فى شمال الحجاز أو تصيبهم بأذى ضرر بل بالعكس تسرب نفوذ اليهودية فى ذلك الشطر من الزمن بين الاعراب حتى صاروا يدخلون فيها زرافات ووحدا نأ مما حمل بعض المستشرقين من أنصار Wustenfeld على الاعتقاد بأنه قد ظهرت فى يثرب دولة يهودية امتد سلطانها السياسى حتى شمال الحجاز بأجمعه

ولكن الواقع أن هذا رأى مبالغ فيه إذ ليس عندنا مصادر موثوق بها تؤيد وجود دولة يهودية فى شمال الحجاز اللهم الا اذا استثنينا قصة خرافية عن الفيطون ملك يثرب^(١) وليس لها فى الواقع ظل من الحقيقة كما سيأتى بيانه

ونريد قبل أن نوفى حوادث اليهود مع العرب فى شمال الحجاز حقها من التفصيل والبيان أن نوجه الانظار الى البطون العربية المجاورة لهم وهى التى نلم بأخبارها بعض الامام . يقول ابن هشام عن هجرة الاوس والخزرج الى جهات يثرب : وكان سبب خروج عمرو بن عامر من اليمن انه رأى جرّذا يحفر فى سد مارب الذى كان يحبس عليهم الماء فيصرفونه حيث شاءوا من أراضيهم فعلم انه لا بقاء للسد على ذلك فاعتزم على النقلة عن اليمن فكاد قومه فأمر أصغر ولده اذا أغلظ عليه ولطمه أن يقوم اليه فيلطمه ففعل ابنه ما أمره به فقال عمرو لا أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى وعرض أمواله فقال أشراف من أشراف اليمن اغتبنوا غضبة عمرو فاشتروا منه أمواله وقالت الازد لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه فسااروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين یرتادون البلدان فخاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ثم ارتحلوا عنهم فتنفروا فى البلدان

قزل آل جفنة الشام ونزلت الاوس والخزرج يثرب ونزلت خزاعة مرة . . . (١)
ويتضح لنا من قصة ابن هشام أن نزوح الاوس والخزرج الى جهات يثرب
حدث قبل سيل العرم لكن صاحب الأغاني يعتقد أن خروج الازد من اليمن
حدث بعد سيل العرم ويقول : لما أرسل الله سيل العرم على أهل مارب وهم الازد
قام رائدهم فقال من كان ذا جمل فمن ووطب مدن وقرية وشن فلينقلب عن
بقرات النعم فهذا اليوم يوم هم وليلحق بالثني من شن فكان الذين نزلوه ازد شنودة
ثم قال لهم ومن كان ذا فاقة وفقر وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطان مر فكان
الذين سكنوه خزاعة ثم قال لهم من كان منكم يريد الخمر والخير والأمر والتأخير
والديباج والحريز فليلحق ببصرى والحضير وهي من أرض الشام فكان الذين
سكنوه غسان ثم قال لهم ومن كان منكم ذا هم بعيد وجل شديد ومزاد جديد
فليلحق بقصر عمان فكان الذين نزلوه ازد عمان ثم قال ومن كان يريد الراسخات
في الوحل والمطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل فكان الذين سكنوها
الأوس والخزرج . . . (٢)

وأما الاستاذ الفاضل الخضرى بك فيرجح رأى الأخير لسببين
(١) لأن مفارقة البلاد عند النفس عدل مفارقة الروح وكلاهما أمر مكروه
شنيع فيبعد جداً أن يقدم عليه شخص هو وأولاده وعشيرته لمجرد خبر لا يقطع
أملاً خصوصاً انه سائر الى بلد لم يخبره

(٢) وردت هذه القصة في سورة سبأ على هذا النحو « لقد كان لسبأ في
مساكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة
ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى
أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل » فهذا واضح في أن سيل العرم أصابهم

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١٢

(٢) الأغاني جزء ١٩ ص ٩٥

وبدل من شكل أرضهم وهم يقيمون بها . . . (١)

والتسليم باحدى النظريتين المفروضتين في سبب خروج بني الازد من اليمن لا يجدينا نفعاً في المعضلة الجوهرية وهي تعيين زمن حدوث سيل العرم فالمرجع العربية لا تأتينا بشيء قليل أو كثير عن زمن وقوع هذه الحادثة الطبيعية المهمة في بلاد اليمن وكان الرأي السائد عند المستشرقين أن سيل العرم حدث في عصر قديم في القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد وكانت هناك طائفة من علماء الافرنج تعتقد أن كل الروايات التي جاءت عن سيل العرم إنما هي خرافات وأباطيل واستمرت هذه الطائفة مقتنعة برأيها هذا حتى ظهرت بحوث العالم المحقق Glaser في سنة ١٨٩٦ حيث قرر ارتكائاً على منقوشات جلبها من أرض اليمن أن السيل قد حدث فعلاً ولكن لم يحدث في مدة واحدة بل تكررت نوابه مرات عديدة أما سببه فلا يرجع الى الطبيعة من حدوث أمطار غزيرة في مرات متوالية فحسب بل كان نتيجة إهمال شديد لهذا السد العظيم نشأ عن فتن داخلية بين الاقباليين من جهة وإغارات متوالية من الخارج من جهة أخرى ولما تطاوت الازمان على السد مع هذا الإهمال الشديد تصدعت جوانبه شيئاً فشيئاً ووهت أركانه قليلاً قليلاً

فلما حدث سيل العرم الأول في سنة ٤٤٧ ب . م الذي استمر الى سنة ٤٥٠ تنبه القوم الى الخطر المحقق بالسد فاهتموا بأمره وأصلحوا من شأنه ولكن لم تعد له منعته القديمة فلم يحتمل السيول المتواردة زمناً طويلاً وانكسر ثانياً سنة ٥٣٢ ب . م (٢)

بعد هذه التحقيقات الجلية زال الشك من النفوس في صحة روايات سيل

(١) تاريخ الامم الاسلامية جزء ١ ص ١٨

(٢) راجع كتاب Zwei Inschriften über den Dammbruch von Mareb

M. d. v. G.

العرم وانمحي كل ريب في حدوثه ومال بعض المستشرقين الى الجزم بأن نزوح البطون الازدية حدث بعد سيل العرم^(١)

ولكن من المتعذر على الباحث الذى يحمل في يده مصباح عقله أن يقتنع بأن جميع البطون الازدية هاجرت الى شمال الجزيرة بسبب واحد هو سيل العرم بل دائماً يرى أنه من المحتمل أن تكون هناك أسباب أخرى اجتمعت مع سيل العرم أو انفردت دونه واضطر بعض هذه البطون الى ترك وطنها والهجرة الى الأرجاء النائية عنه

على أنه يخيل الى أن المؤرخين أسرفوا في التكبير من شأن سد مأرب وهو لعارفى النتائج التى ترتبت على انكساره .بالغة كبيرة اذ كان هذا السد فيما نعلمه من أبحاث ياقوت فى معجم البلدان قديماً ومن مجهودات قريحة جلازر Glaser حديثاً يسقى ربوة من الأرض لم تكن مسكناً لكل بطون الازد

ويرجح رأينا هذا ما نجده فى جميع الروايات التى تضمنت حوادثه وأخباره من الغموض والابهام والنقص الظاهر فى البيان والتفصيل مع انه حدث حوالى قرن واحد قبل الاسلام وقد تراكت بشأنه القصص والأساطير حتى صارت عرضة لان يشك العلماء فى صحتها جميعاً ولم يرجعوا عن شكهم الا بعد ان ظهرت أبحاث العالم جلازر Glaser

واذا كان هذا شأن حادثة وقعت قبل الاسلام بقرن واحد فماذا يكون شأن الحوادث التى وقعت قبل سد مأرب بنحو خمسة قرون أو أكثر؟ ..

وهل يمكننا أن نعول على أخبارها التى ذكرت فى السيرة وفى الطبرى وفى الواقدى ونستنتج منها نتائج ننظم بها أبحاثنا فى تاريخ الجاهلية؟ ...

من المتعذر علينا إذاً أن نعين الزمن الذي وصلت فيه الأوس والخزرج الى جهات يثرب فلنكتف بما قاله القدماء من انهما من أزد اليمن وانه قد وجدت هناك بطون من اليهود قبل وصولهما الى يثرب

يقول لنا صاحب الأغاني « فلما توجه الأوس والخزرج ووردوها نزلوا في حرار ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ الى عفاء من ارض لا ساكن فيه فنزلوا به ومنهم من لجأ الى قرية من قراها فكانوا مع أهلها فأقامت الأوس والخزرج في منازلهم التي نزلوها بالمدينة في جهد وضيق في المعاش ليسوا بأصحاب نخل وزرع وليس للرجل منهم الا الاغداق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات والأموال لليهود فلبث الأوس بذلك حيناً . . . (١)

وأقام اليهود والعرب مدة طويلة يسود بينهم الوثام والوفاق دون أن يحدث ما يكدر أو يفرق بينهم

فكانت السلطة في أيدي اليهود وهواليهم من البطون العربية وكانت الأوس والخزرج تشتغل في الدوائر الزراعية اليهودية ومنهم من كانوا يشتركون مع اليهود في قوافلهم التجارية

ويحدثنا السهمودي عن حالة اليهود والازد في دور سيادة الوثام والوفاق بينهم فيقول : . . . وقد وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدي اليهود والعدد والقوة معهم فكانوا ما شاء الله ثم سألوه أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ويمتنعون به من سواهم فتحالفوا وتعاملوا ولم يزلوا كذلك زماناً طويلاً وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدد وخافت قريظة والنضير أن يغلبوهم على دورهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف . . . فأقاموا خائفين أن تجلبهم اليهود حتى نجم منهم مالك بن العجلان . . . (٢)

ودار الدهر دورته وظهرت الفتن والعداوات بين اليهود والأوس والخزرج غير أن المصادر العربية لم توافقنا بالأسباب الكافية لهذا التغيير واليك ما يقوله السهمودي : وكانت لا تهدي عروس الحيين حتى تدخل على الفيظون ملك اليهود فيكون هو الذي يفتضها فتزوجت أخت مالك رجلاً من قومه فبينما مالك في النادي اذ خرجت أخته فضلاء فنظر إليها أهل المجلس فشق على مالك فدخل وعنفها فقالت ما يصنع بي غداً أعظم أهدي الى غير زوجي فلما أمسى اشتمل على السيف ودخل متنكراً مع النساء وقتل الفيظون وانصرف لدار قومه . . . (١)

ويؤخذ من هذه القصة الملققة أن السهمودي وأمثاله لم يكن عندهم إلمام كاف بحياة العرب في الجاهلية بل كانوا يعتبرونهم متوحشين همجيين لا يعرفون من النظم الاجتماعية شيئاً ولا يفهمون من الآداب قليلاً ولا كثيراً ولا ينقادون إلا لما يدعوا اليه الخرق والسفاهة

ولا شك أن قولاً كهذا ليس إلا طعنًا فاحشاً في قبائل العرب في الجاهلية وانكاراً شنيعاً لما هو معروف عنهم من الانفة والغيرة وإباء الضيم والشجاعة والبسالة الى حد التضحية بكل شيء في سبيل العرض وحفظ الشرف والكرامة

ومن جهة أخرى فمثل هذا القول لا يمكن أن يكون له نصيب من الصحة لأن يهود الحجاز إنما كانوا أصحاب دين سماوى يأمر بالمعروف وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى وليس من المعقول أن ملكاً يهودياً يرتكب جريمة منكرة كهذه تناقض روح التوراة وتخالف الايمان بآله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة وانكاراً شديداً من شعبه وأبناء جلدته

على أن اختلاق هذه القصة يظهر جلياً متى علمنا أنه لم يوجد ملوك من اليهود في يثرب

ونرجح أن الباعث على اختلاق هذه القصة وتلفيقها إنما هو محاولة إخفاء

الحقيقة في حادثة غدر ابن العجلان بجيرانه وسفكه لدماء الأبرار منهم كما سيأتى
تفصيل ذلك

ومن الغريب أن قصة كهذه تماماً يقصها الطبرى عن طسم وجديس^(١) وذلك
يدل على أنها من الخرافات الشائعة عند أمم الشرق في قصصهم وتواريخهم^(٢)
ولم يأت ابن هشام والواقدي وصاحب الأغاني بقصة الفيطون بل حدثنا
الأخير بخبر يبعثنا على التسأمل والبحث في عوامل التغيير الذى طرأ فجأة على
ما كان بين اليهود والبطون العربية من المودة والوئام فقال « إن مالك بن العجلان
رحل الى أبى جبيلة الغسانى وهو يومئذ ملك غسان فسأله عن قومه وعن منزلتهم
فأخبره بحالهم وضيق معاشهم فقال له أبو جبيلة والله ما نزل قوم منا بلداً إلا غلبوا
أهله عليه فما بالكم ؟ ثم أمره بالمضى الى قومه وقال له اعلهم أنى سائر اليهم فرجع
مالك بن العجلان فأخبرهم بأمر أبى جبيلة ثم قل لليهود إن الملك يريد زيارتكم
فاعدوا نزلاً فأعدوه وأقبل أبو جبيلة سائراً من الشام فى جمع كثيف حتى قدم
المدينة فنزل بنى حُرُض ثم أرسل الى الأوس والخزرج فذكر لهم الذى قدم له
وأجمع أن يمكر باليهود حتى يقتل رؤساءهم وأشرفهم وخشى أن لم يمكر بهم أن
يتحصنوا فى آطامهم فيمتنعوا منه حتى يطول حصاره إياهم فأمر ببناء حائر واسع
فبنى ثم أرسل الى اليهود أن أبا جبيلة الملك قد أحب أن تأتوه فلم يبق وجه من
وجوه القوم إلا أتاه وجعل الرجل يأتى معه بخاصته وحشمه رجاء أن يحبوهم فلما
اجتمعوا ببابه أمر رجلاً من جنده أن يدخلوا الحائر الذى بنى ثم يقتلوا كل من
يدخل عليهم من اليهود ثم أمر حجابيه أن يأذنوا لهم فى الحائر ويدخلوهم رجلاً
رجلاً فلم يزل الحجاب يأذنون لهم كذلك ويقتلهم الجند الذين فى الحائر حتى أتوا
على آخرهم

(١) تاريخ الملوك والرسل للطبرى جزء ٢ ص ٣٧١

(٢) راجع كتاب الف ليلة وليلة (الليلة الاولى)

وقد أخذت اليهود تعترض الأوس والخزرج وتناوشهم فقال مالك بن العجلان والله ما أئتمنا اليهود غلبة كما نريد فهل لكم أن أصنع لهم طعاماً ثم أرسل في مائة من أشراف من بقي من اليهود فإذا جاءوني فاقتلوهم جميعاً فقالوا نفعل فلما جاءهم رسول مالك قالوا والله لا نأتيهم أبداً وقد قتل أبو جبييلة منا من قتل فقال لهم مالك إن ذلك كان على غير هوى منا وإنما أردنا أن نمحوه وتعلموا ما لكم عندنا فأجابوه فجعل كلما دخل عليه رجل منهم أمر به مالك بن العجلان فقتل حتى قتل منهم بضعة وثمانين رجلاً ثم إن رجلاً منهم أقبل حتى قام على باب مالك فتسمع فلم يسمع صوتاً فرجع وحذر أصحابه الذين بقوا فلم يأت منهم أحد... وصورت اليهود مالكا في بيعهم وكنائسهم فكانوا يلعنونه كلما دخلوها... فلما قتل مالك من اليهود من قتل ذلوا وقل امتناعهم وخافوا خوفاً شديداً وجعلوا كلما هاجهم أحد من الأوس والخزرج بشيء يكرهونه لم يمش بعضهم الى بعض كما كانوا يفعلون قبل ذلك ولكن يذهب اليهودى الى جيرانه الذين هو بين اظهرهم فيقول إنما نحن جيرانكم وهواليكم فكان كل قوم من اليهود قد لجأوا الى بطن من الأوس والخزرج يتعززون بهم... (١)

وقد يكون من المتعذر ان يقبل المؤرخ هذه القصة على علاتها إذ لا شك في أن اليهود كانوا يحترسون من عمال ملوك الروم كل الاحتراس وكان المعروف فوق ذلك عن يهود الحجاز انهم على جانب عظيم من الفطنة والذكاء وانهم ذوو قوة وبطش فلو أن أمراً كهذا وقع فعلاً لم يكنهم أن يحاربوا الأوس والخزرج ويضموا الى جانبهم في هذه الحرب جميع البطون العربية المجاورة لهم والتي لم تكن تضمر لليهود شراً

على أن أبا جبييلة هذا الذى يقول صاحب الأغاني انه كان ملكاً لم يكن من

سلالة ملوك غسان الذين كانوا من بني جفنة ولم يتول عرش غسان من غير بني جفنة الا أبو جبيلة والحارث الأعرج اللذان يذكر ابن خلدون في موضع من كتابه ان الروم ملكوها عرش الشام^(١) وان كان يذكر باسم أبي سعد أن الأعرج لم يكن ملكا وانما كان قائدا ولم يذكر أبا جبيلة البتة^(٢)

وعلى فرض ان أبا جبيلة والحارث بن الأعرج توليا العرش حقا فلسنا نعلم ما هي الاسباب التي حملت قياصرة الروم على تولية ملكين من غير سلالة آل جفنة ثم ارجاع العرش الى هذه الاسرة ثانيا لان آخر ملوك غسان كان من بني جفنة وهو جبلة بن الایهم الذي أسلم بعد ان فتح المسلمون الشام ثم ندم ورجع الى دين آباءه ودخل الى بلاد الروم^(٣)

من أجل هذا نرجح ان أبا جبيلة لم يكن من ملوك غسان ولكن اذا صححت الرواية عن حادثته مع يهود يثرب فمن المحتمل انه كان قائدا ذهب بايعاز من سيده لمنازلة اليهود ويحتمل أيضا من ناحية أخرى أن تكون الاوس والخزرج قد أرادت أن تعقد حلفاً مع بعض قبائل الشمال لأن الحلف التي عقدت بينهم وبين اليهود لم تعد حائزة كل رضاهم بعد ان رسخت أقدامهم في البلاد وبعد ان اطمأنوا اليها وانبعشت في نفوسهم المطامع الكبيرة والآمال الواسعة

نعم ان الحلف كانت في مصلحتهم أول الأمر لأنهم لم يكونوا يطلبون الا أن يعيشوا فلم يكن يسوؤهم أن تبقى الدوائر الزراعية والحركة التجارية في أيدي اليهود وحدهم وأن يكونوا هم معهم كعمال ومساعدین أما الآن فقد امتدت أنظارهم الى أكثر من هذا

ولم يكن أمامهم من سبيل لتحقيق هذه الآمال والمطامع الا أن يتخلصوا

(١) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٢

(٢) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٥

(٣) ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨١ . الاغاني جزء ١٤ ص ٣

من حلف اليهود ولم يكن سبيل التخلص من هذه الحلف ممكنا الا اذا اعتمدوا على حلف أخرى يضمنون بها لأنفسهم النفوذ اذا ثارت الثائرة بينهم وبين اليهود وقد رأوا الفرصة سانحة لمقد محالفة مع ملوك غسان الذين كانوا يقودون حركة المنافسة الشديدة والنضال العنيف الموجه من النصرانية ضد اليهودية و بطبيعة الحال كان ملوك غسان يرغبون في هذه المحالفة مع الاوس والخزرج بل ويسعون اليها ليتمكنوا بها من القضاء على اليهودية في بلاد الحجاز

وعلى كل حال فقد وجدت علاقات حسنة بين الطرفين كما يؤخذ من قصيدة المدح التي قالها حسان بن ثابت في ملوك بني غسان والتي يقول فيها

لله در عصابة نادمتهم	يوما بجلق في الزمان الاول
أولاد جفنة حول قبر أبيهم	قبر ابن مارية الكريم المفضل
يسقون من ورد البريص عليهم	بردى يصفق بالرحيق السلسل
يغشون حتى ما تهر كلابهم	لا يسألون عن السواد المقبل
بيض الوجوه كريمة احسابهم	شم الانوف من الطراز الاول ^(١)

ولكن هذا كله لا يثبت صحة ما روى عن أبي جبيلة اذ من الممكن جدا أن تكون العلاقات الحسنة بمثابة المعهد من جانب ملوك غسان بعد النعروض لتجار البطون الثيربية الذين كانوا يجولون في أنحاء سورية ومن الممكن أيضا أن تكون هناك علاقات كهذه بين اليهود وبين بني غسان نظرا للمصالح التجارية العظيمة التي كانت لليهود في بلاد غسان^(٢) وهناك أمر آخر يزيدنا شكاً في صحة قصة أبي جبيلة ذلك اننا لا نجد

(١) الاغاني جزء ١٤ ص ٢ . ابن خلدون جزء ٢ ص ٢٨٠

(٢) تاريخ الخميس جزء ٢ ص ١٣ (ابو الدقاعي الحيبري يرسل قوافله الى بلاد الشام)

بينها وبين يوم بعث الذى جاء بعدها أية صلة أو ارتباط بل على العكس من ذلك نستنتج اعتماداً على الاخبار المفصلة التى وصلتتنا عن يوم بعث ان اليهود كانوا متمتعين بجميع حقوقهم السياسية والاجتماعية وكانت مزارعهم وآطامهم وأولاهم كاملة غير منقوصة

ويقرر المؤرخ Graetz ان بطون الاوس والخزرج لم تصارع اليهود بالعداوة والمعصية الا بعد النكبة التى حلت باليهود فى اليمن اذ لا يتصور أن يضطهد اليهود فى الحجاز فى العصر الذى كان فيه ملوك متهودون يسيطرون على اليمن ويتعصبون لدينهم ويناهضون كل من يناهضهم أو يعتدى عليهم^(١)

ويؤيد قول هذا العالم ما ذكره بعض مؤرخى العرب من أن الحجاز الشمالية كانت فى شبه رتبعية لليمن فى عصر وجود حمير المتهودة وان واحداً من الاسرة المالكة فى اليمن كان يشرف على شؤون الطوائف المختلفة فى شمال الحجاز^(٢) وقد بقيت البطون العربية عصوراً طويلة على موالاة ومناصرة اليهود دون أن يظهر عليهم شيء يدل على أنهم يتربصون لهم الغوائل الى أن أخذت دولة غسان تنصب لليهود المكاييد وتحرض عليهم زعماء الاوس والخزرج ليفتكوا بهم والظاهر ان دولة بنى غسان لم تفعل هذا الا بايعاز من الدولة الرومانية الشرقية التى أرسلت أسطولها لمساعدة الحبشة فى كفاحها ضد اليهود فى اليمن

وليس غريباً على هذه الدولة أن يحرض عمالها من ملوك غسان على أن يثيروا الفتن والدسائس ضد يهود الحجاز فسياستها هذه واضحة كل الوضوح فى الجزيرة العربية أثناء القرن الخامس والسادس ب . م . وأما مناقصة فى كتاب السهمودى تستحق العناية لفهم السياسة الدينية عند زعماء النصارى فى الجزيرة العربية وهى ان مالك بن العجلان قد ذهب بعد قتاله للفيطون الى تبع الاصغر

(١) Graetz ج ٣ ص ٩١ وص ٤١٠

(٢) Perceval ج ٢ ص ٦٥٤ ينسبها للنويرى

فشكا اليه ما كان من أمر يهود يثرب فعاهده تبع ألا يقرب امرأة ولا يَمَسَّ طيبا ولا يشرب خمرا حتى يسير الى المدينة وينزل اليهود . . . (١)

ويعلق العالم Wüstenfeld الذى طبع كتاب السهمودى على رواية تبع الاصغر بقوله انه كان من اقبال الحبشة المنتصرين فى اليمن وانه ذهب لمحاربة يهود الحجاز مساعدة لابي جبيالة الغسانى (٢)

وانى انقل رواية السهمودى عن تبع الاصغر بتحفظ شديد دون أن أميل الى الاعتقاد بصحتها وانما تقلتها لانها توافق أقوال المستشرقين عن الخطة السياسية التى اتبعتها الدولة الرومانية الشرقية فى الاقاليم العربية

ويعتقد العالم Wellhausen ان الكفاح بين النصرانية واليهودية فى بلاد الحجاز كان عنيفا جدا وان اغارات الدولة الفارسية على حدود البلاد الرومانية وقفت الملحمة الفاصلة لزمان ما ولولا ظهور الاسلام لاصبحت بلاد الجزيرة من الوجهة الدينية منقسمة باجمعا الى قسمين يهودية ونصرانية (٣)

لم يصل اليانا من اخبار اليهود فى بلاد الحجاز بعد ان خمدت نار الفتنة بينهم وبين بطون الاوس والخزرج الا ما يعرف بيوم بعث

ويحدثنا صاحب الاغانى عن هذا اليوم العبوس بقوله : كانت الاوس قد أسندوا أمرهم فى يوم بعث الى أبى قيس بن الاسلت الوائلى فقسام فى حربهم وآثرها على كل أمر حتى شحَب وتغير ولبث أشهرها لا يقرب امرأة وكانت الاوس قد استعانت ببني قريظة والنضير فى حروبهم التى كانت بينهم وبلغ ذلك الخزرج فبعثت اليهم ان الاوس فيما بلغنا قد استعانت بكم علينا ولن يعجزنا أن نستعين بأعدادكم وأكثركم من العرب فان ظفروا بكم فذاك

(٣) خلاصة الوفاء ص ٨٣

(٢) ويؤيد العالم Wellhausen أقوال Wüstenfeld فى مصنفه Skizzen und

Vorarbeiten Heft 4 ص ٨ — ١١

(٣) Skizzen 4 ص ١٢

ما تكرهون وان ظفرت لم تم عن الطلب أبداً فتصيروا الى ما تكرهون ويشغلكم من شأننا ما أتم الآن منه خالون وأسلم لكم من ذلك أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين اخواننا فلما سمعوا ذلك علموا أنه الحق فأرسلوا الى الخزرج انه قد كان الذي بلغكم والتمست الاوس نصرنا وما كنا لننصرهم عليكم أبداً فقالت لهم الخزرج فان كان ذلك كذلك فابعثوا الينا برهائن تكون في أيدينا فبعثوا اليهم أربعين غلاماً منهم ففرقهم الخزرج في دورهم فمكثوا بذلك مدة ثم ان عمرو بن النعمان البياضى قال لقومه بياضة ان عامراً أنزلكم منزل سوء بين سبيخة ومفازة وانه والله لا يمس رأسى غسل حتى انزلكم منازل بنى قريظة والنضير على عذب الماء وكريم النخل ثم راسلهم إما ان تخلوا بيننا وبين دياركم نسكنها واما ان تقتل رهنكم فهموا ان يخرجوا من ديارهم فقال لهم كعب بن أسد القرظى يا قوم امنعوا دياركم وخلوه يقتل الرهن والله ما هى الا ليلة يصيب فيها أحد امرأته حتى يولد له غلام مثل أحد الرهن فاجتمع رأيهم على ذلك فأرسلوا الى عمرو بن لا نسلم لكم دورنا وانظروا الذى عاهدتمونا عليه فى رهننا فقوموا لنا به فعدا عمرو بن النعمان على رهنهم هو ومن أطاعه من الخزرج فقتلوه وأبى عبد الله بن أبى وكان سيداً حليماً وقال هذا عقوق واثم وبنى فلست معينا عليه ولا أحد من قومي أطاعنى وكان عنده فى الرهن سليمان بن أسد القرظى وهو جد محمد بن كعب القرظى فغلى عنه وأطلق ناس من الخزرج نفرا فلاحقوا بأهليهم فناولت الاوس الخزرج يوم قتل الرهن مناوشة ضئيلة

واجتمعت قريظة والنضير الى كعب بن أسد أخى بنى عمرو بن قريظة ثم تآمروا أن يعينوا الاوس على الخزرج فبعث الى الاوس بذلك ثم أجمعوا أن ينزل كل أهل بيت من النبى على بيت من قريظة والنضير فتلوا معهم فى دورهم وأرسلوا الى النبى يأمرهم بأتيانهم وتعاهدوا ألا يسلموهم أبداً وأن يقاتلوا معهم حتى لا يبقى منهم أحد فجاءتهم النبى فتلوا مع قريظة والنضير ثم أرسلوا

الى سائر الاوس فى الحرب والقيام معهم على الخروج فأجابوهم الى ذلك فاجتمع
الملا منهم واستحكم أمرهم وجدوا فى حربهم ودخلت بينهم قبائل من أهل المدينة
منهم بنو ثعلبة وهم من غسان وبنو زعوراء وهم من غسان فلما سمعت بذلك
الخزرج اجتمعوا ثم خرجوا وفيهم عمرو بن النعمان البياضى وعمرو بن الجوح
السلى حتى جاءوا عبد الله بن أبى وقتلوا له قد كان الذى بلغك من أمر الأوس
وأمر قريظة والنضير واجتماعهم على حربنا وانا نرى أن نقاتلهم فان هزمناهم لم
يحرز أحد منهم مقله ولا ملجأه حتى لا يبقى منهم أحد

فلما فرغوا من مقاتلتهم قام عبد الله بن أبى خطيبا وقال ان هذا بغى منكم على
قومكم وعقوق والله ما أحب ان رجلا من جراد لقيناهم وقد بلغنى أنهم يقولون
هؤلاء قومنا منعونا الحياة فيمنعوننا الموت والله انى أرى قوما لا ينتهون أو يهلكوا
عامتكم وانى لأخاف ان قاتلوكم ان ينصروا عليكم لبغيتكم عليهم فقاتلوا قومكم
كما كنتم تقاتلونهم فاذا ولوا نخلوا عنهم فاذا هزموكم فدخلتم أدنى البيوت خلوا
عنكم فقال له عمرو بن النعمان انتفخ والله سحر ك يا أبا الحارث حين بلغك حلف
الاوس قريظة والنضير فقال عبد الله والله لا حضرتكم ابدا ولا احد اطاعنى ابدا
ولكأنى انظر اليك قتيلا تحملك أربعة فى عباء وتابع عبد الله بن أبى رجال من
الخزرج منهم عمرو بن الجوح الحرامى واجتمع كلام الخزرج على ان رأسوا عليهم
عمرو بن النعمان البياضى وولوه أمر حربهم

ولبثت الأوس والخزرج أربعين ليلة يتصنعون للحرب ويجمع بعضهم
لبعض ويرسلون الى حلفائهم من قبائل العرب فأرسلت الخزرج الى جهينة
واشجع فكان الذى ذهب الى اشجع ثابت بن قيس بن شماس فأجابوه وأقبلوا اليهم
وأقبلت جهينة اليهم أيضاً وأرسلت الأوس الى مزينة وذهب حضير الكتائب
الاشهلى الى أبى قيس فقام حضير فاعتمد قوسه فخرضهم وأمرهم بالجد فى حربهم

وذكر ما صنعت بهم الخزرج من اخراج النبيت واذلال من تخلف من سائر الأوس في كلام كثير . . .

فأجابه أوس الله بالذى يحب من النصرة والمؤازرة والجد فى الحرب وأما الأوس فاجتمعت يومئذ الى حضير بموضع يقال له الحياة فأجابوا الرأى فقالت الأوس ان ظفرنا بالخزرج لم نبق منهم أحداً ولم نقاتلهم كما كنا نقاتلهم فقال حضير يامعشر الأوس ما سمعتم الأوس إلا لأنكم تؤسسون الأمور الواسعة

ولما اجتمعوا بالحياة طرحوا بين أيديهم نمرًا وجعلوا يأكلون وحضير الكتائب جالس وعليه بردة له قد اشتمل بها الصماء ما يأكل معهم ولا يدينوا الى التمر غضبًا وحنقًا فقال يا قوم اعتقدوا لأبى قيس بن الاسلت فقال لهم أبوقيس لا أقبل ذلك فانى لم أرأس على قوم قط إلا هزموا وتشاءوا برياستى وجعلوا ينظرون الى حضير واعتزله اكلمهم واشتغاله بما هم فيه من أمر الحرب وقد بدت خصياه من تحت البرد فاذا رأى منهم ما يكره من الفتور والتخاذل تقلصتا غيظًا وغضبًا واذا رأى منهم ما يحب من الجد والتشمير فى الحرب عادتا لحالهما وأجابت الى ذلك أوس مناه وجدوا فى المؤازرة والمظاهرة وقدمت مزينة على الاوس فانطلق حضير وأبو عامر الراهب بن صيفى ^(٢) الى أبى قيس بن الاسلت فقالوا قد جاءتنا مزينة واجتمع اليها من أهل يثرب ما لا قبل للخزرج به فما الرأى ان نحن ظهرنا عليهم الانجاز أم البقية فقال أبو قيس بل البقية قل أبو عامر والله لو ددت أن مكانهم ثعلبا ضباحا فقال أبو قيس اقتلوهم حتى يقولوا بزا بزا كلمة كانوا يقولونها اذا غلبوا قتشاجروا فى ذلك وأقسم حضير ألا يشرب خمرًا أو يظهر ويهدم مزاحما أطم عبد الله بن أبى قيسوا شهرين يمدون ويستعدون ثم التقوا ببعث وتخلف عن الاوس بنو حارثة بن الحارث فبعثوا الى الخزرج إنا والله

(١) وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح وكان يقال له الراهب . ابن هشام جزء

ما نريد قتالكم فبعثوا اليهم أن ابعثوا اليينا برهن منكم يكونون في أيدينا فبعثوا اليهم اثني عشر رجلا منهم خديج وبعث من أموال بني قريظة فيها مزرعة يقال لها قورى فلذلك تدعى بعث الحرب وحشد الحيان فلم يتخلف عنهم الا من لا ذكر له ولم يكونوا حشدوا قبل ذلك في يوم التقوا فيه فلما رأت الاوس الخزرج أعظمهم وقالوا لحضير يا أبا أسيد لو حاجزت القوم وبعثت الى من تخلف من حلفائك من مزينة فطرح قوسا كانت في يده ثم قال انظروا مزينة وقد نظر الى القوم ونظرت اليهم الموت قبل ذلك . ثم حمل وحملوا فاقتتلوا قتالا شديدا فانهزم الاوس حين وجدوا مس السلاح فولوا مصعدين في حرة قورى نحو العريض وذلك وجه طريق نجد فنزل حضير وصاحت بهم الخزرج أين الفرار الا أن نجدا سنت أى مجذب يعيرونهم فلما سمع حضير طعن بسنان رمحه فخنده ونزل وصاح واعقراه والله لا أرى حتى أقبل فان شتم يامعشر الاوس أن تسلموني فافعلوا فتقطعت عليه الاوس وقام على رأسه غلامان من بني عبد الاشهل فقاتلا حتى قتلا وأقبل سهم حتى أصاب عمرو بن النعمان رأس الخزرج فقتله لا يدري من رمى به الا ان بني قريظة تزعم انه سهم رجل يقال له أبو لبابة فقتله فبينما عبد الله ابن أبي يتردد على بغلة له قريسا من بعث يتجسس أخبار القوم اذ طلع عليه بعمر بن النعمان ميتا في عباءة له يحمله أربعة الى داره فلما رآه عبد الله بن أبي قال من هذا قالوا عمرو بن النعمان قال ذق وبال العقوق وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الاوس السلاح وصاح صائح يامعشر الاوس أسجحوا ولا تهلكوا اخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب فنناهت الاوس وكفت عن سلبهم بعد إثنان فيهم وسلبتهم قريظة والنضير وجعلت الاوس تحرق على الخزرج نخلها ودورها فخرج سعد بن معاذ الاشهل حتى وقف على باب بني سلمة وأجارهم وأوالهم جزاء لهم بيوم الرعل وكان للخزرج على الاوس يوم يقال له يوم مفلس ومضرس وكان سعد ابن معاذ حمل يومئذ جريحا الى عمرو بن الجوح فن عليه وأجاره وأخاه يوم رعل

وهو على الاوس من القطع والحرق فكافاه سعد بمثل ذلك في يوم بعث وأقسم كعب بن أسد القرظي ليدلن عبد الله بن أبي وليحلقن رأسه تحت مزاحم فناده كعب انزل يا عدو الله أنشدك الله وما خذلت عنكم فسأل عما قال فوجده حقاً فرجع عنه واجتمعت الاوس على أن تهدم مزاحماً أطم عبد الله بن أبي وحلف حضير ليهدمه فكلّم فيه فأمرهم أن يريثوا فيه كوة وأفلت يومئذ الزبير بن اياس بن باطا ثابت بن قيس شماس أخا بني الحرث وهي النعمة التي كافاه بها ثابت في الاسلام يوم بني قريظة (١)

وخرج حضير الكتاب وأبو عامر الراهب حتى أتيا أبا قيس بن الاسلم بعد الهزيمة فقال له حضير يا أبا قيس ان رأيت ان تأتي الخزرج قصرا قصرا ودارا دارا تقتل ونهزم حتى لا يبقى منهم أحد فقال أبو قيس والله لا نفعل ذلك فغضب حضير وقال ما مميتم الاوس الا لأنكم تؤسسون الامر أوسا ولو ظفرت منا الخزرج بمثلها ما أقالوناها ثم انصرف الى الاوس فأمرهم بالرجوع الى ديارهم وكان حضير جرح يومئذ جرحاً شديداً ثم مات من الجراح التي كانت به

وكان يهودى أعشى من بني قريظة يومئذ في أطم من أطامهم فقال لابنة له أشرفي على الاطم فانظري ما فعل القوم فأشرفت وقالت أسمع الصوت قد ارتفع في أعلى قورى وأسمع قائلا يقول اضربوا يا آل الخزرج فقال الدولة اذاً على الاوس لا خير في البقاء ثم قال ماذا تسمعين قالت أسمع رجلاً يقولون يا آل الاوس ورجلاً يقولون يا آل الخزرج قال الآن حي القتال ثم لبث ساعة ثم قال أشرفي فاسمعي فأشرفت فقالت أسمع قوماً يقولون نحن بنو صخرة أصحاب الرعل. قال تلك بنو عبد الاشهل ظفرت . . . ثم وثب فرحاً نحو باب الاطم فضرب رأسه بحاق بابيه وكان من حجارة فسقط فمات

وقال خفاف بن نذبة يرثي حضير الكاتب وكان نديمه وصديقه :
لو ان المنايا حدن عن ذى مهابة لهبن حضيراً يوم أغلق داقها
أطاف به حتى اذا الليل جنه تبوأ منه منزلاً متناعماً . . .

أتانى حديث فكذبته وقيل خليلك فى المرس
فياعين ابكى حضير الندى حضير الكتائب والمجلس
ويوم شديد اوار الحديد تقطع منه عرى الانفس
صليت به وعليك الحديد ما بين سلع الى الاعرس
فأودى بنفسك يوم الوغى وتقى ثيابك لم تدنس . . . (١)
..... اه

ولما كانت حوادث هذا اليوم قد جرت قبيل ظهور الاسلام بخمس سنوات
قبل الهجرة وكان كثير من زعماء الأوس والخزرج واليهود الذين جالوا فى ميدان
الوغى قد أدركوا الاسلام حتى كان لبعضهم أثر ظاهر فى حوادث المدينة بعد
هجرة النبي محمد اليها فلا شك أنه يوم حقيقى وأن أغلب ما نقلنا من أخباره صحيح
وللبخارى حديث يدل على الوقع العظيم الذى كان ليوم بعث فى نفوس أهل
يثرب « قالت عائشة دخل على رسول الله وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعث
فاضطجع على الفراش وحول وجهه فدخل أبو بكر فاتهرنى وقال مِرَّةَ الشيطان
عند رسول الله (٢)

وقد ظل اليهود بعد هذا اليوم محتفظين بمكاتبتهم بين القبائل العربية حتى

(١) الاغانى جزء ١٥ ص ١٠٤ — ١٥٩

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٢٥

ان الأوس والخزرج كانتا تحسبان لقوتهم حساباً كبيراً وكانت كل منهما تجتهد في أن تميلهم اليها ليساعدها في كفاحها ضد الأخرى

وكذلك تبين لنا من يوم بعث أن اليهود كانوا أهل نضال وكفاح وأنهم كانوا كالأعراب في قسوتهم وغلظتهم المعروفتين عنهم في الجاهلية حتى ان بنى النضير وقرية أنخنوا في بنى قينقاع ووزقوا شملهم بسبب انضمامهم الى بنى الخزرج ليكونوا عوناً لهم على أبناء جلدتهم

وقد أظهر الربيع بن أبي الحقيق استيلاءه الشديد من تلك المعاملة الغليظة لبنى قينقاع فذكر ما يب بنى النضير وقرية وكان الربيع من شعراء اليهود من بنى قرية وكان أحد الرؤساء في يوم حرب بعث وكان حليفاً للخزرج هو وقومه فقال :

سئمت وأمسيت رهن الفرا	ش من جُرم قومي ومن مَرم
ومن سَقَّه الرأي بعد الذَّهَى	وعيب الرشاد ولم يفهم
فلو أن قومي أطاعوا الحلي	م لم ينعُدوا ولم يظلم
ولكن قومي أطاعوا الغوا	ة حتى تعكس أهل الدم
فاودَى السفية برأى الحلي	م وانتشر الأمر لم يبرم... (١)

وكان من نتائج يوم بعث أن ضعف روح العدوان والحق في نفوس البطون البريئة حتى أخذ الناس ينصرفون لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناءة العيش وصفاء البال

وكانوا كلما هم أحدهم أن يصب زيتاً حامياً على نار العداوة الكامنة في

(١) الاغانى جزء ٢١ ص ٦٢ واما ابن سلام الجعفى صاحب طبقات الشعراء فانه يقول ان الربيع بن ابى الحقيق من بنى النضير (ص ١١٠ طبع مصر) ونحن نرجح رأى الجعفى على رأى صاحب الاغانى لما اتضح لنا من ان آل بنى الحقيق من بطون بنى النضير

القلوب ليزيد في ضرامها ويعظم من أوارها سعى كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين لكف يده حتى لا تسلب السيوف من اغمارها

وعلى العموم فان يوم بعثت قد أضعف بطون يثرب قاطبة وأدخل فيها الميل الى الاتحاد حتى أرادت فيما يقال أن تملك عليها ملكاً من بني الخزرج كما يحدثنا ابن هشام « ان قوم عبد الله بن أبي قد نظمووا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ثم جاء رسول الله الى المدينة وانصرف القوم عن عبد الله ورأى أن الرسول قد استلبه ملكاً فلما أن رأى قومه قد أبوا الا الاسلام دخل فيه كارهاً مصرأً على نفاق وضعن وكان لا يختلف عليه في شرفه اثنان لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين . . . (١)

فكان قلوب بني يثرب على اختلاف قبائلها وكثرة نزعاتها قد سئمت العداوة وكرهت حالة الجفاء والخشونة وشعرت بالحاجة الى من يخرجهم منها ويوجه عنايتهم الى ما هو أكثر خيراً وأعظم نفعا

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٧٧

الباب الرابع

أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية في بلاد الحجاز قبيل ظهور الاسلام

مسايرة النمو الادبي والاجتماعي للتقلبات السياسية — بسط نفوذ الدين اليهودي في الحجاز — الديانة الاسرائيلية لا تميل الى ارغام الامم على اعتناقها — العوامل التي حالت دون انتشار اليهودية في الحجاز — قصص ابن هشام في مبلغ تأثير اليهود في عقلية العرب — طعن بعض المستشرقين في صحة وجود صلة قرابة قديمة بين العرب واليهود — رد هذا الطعن بالأدلة التاريخية والبحث بعض المستشرقين — عادة الختان عند العرب واليهود وهل اخذها العرب من اليهود ؟ — التعبير (ملة ابراهيم حنيفا) وعادة الختان — الحنيفية في بلاد الحجاز — الجدل بين المستشرقين في هذا الموضوع — زيد بن عمرو بن نفيل والحنيفية — النساء عند العرب واليهود — الاصطلاحات الوثنية عند العرب وعلاقتها باللغة العبرية — ضعف تأثير الديانة المسيحية في قلوب أهل الحجاز — حالة اليهود الاجتماعية والدينية بين العرب في الجاهلية — الحالة عند قبائل الحجاز قبيل ظهور الاسلام — يوم الفجار ونتائجه — النهضة الفكرية في بلاد الحجاز قبيل ظهور الاسلام — قس بن ساعدة — أمية بن أبي الصلت — استعداد القلوب العربية لقبول ديانة سماوية جديدة

— — — — —

إذا أنعمنا النظر في التاريخ العام نجد النمو الادبي والتغير الفكري في أمة من الأمم يمتد ويسمو الى الدرجات الرفيعة مع امتداد النمو السياسي وازدياد الرقي الى ذرى المجد بقوة السيف والبطش كما نراه يسقط شيئاً فشيئاً ويتدهور تدريجياً كلما تدهورت القوة المادية في تلك الأمة وضعف سلطانها

وتكاد تكون هذه الظاهرة عامة وشاملة لكل الأمم والشعوب ولكننا لا نجد هنا حين نبحث عنها في يهود الجزيرة العربية اذ بعد ان انتصر الحبشيمون على ملوك

حمير المتهودة و بعد ان أظهر أبو جبيلة الأوس والخزرج على يهود يثرب — اذا فرضنا صحة هذه الرواية — بقى سلطانهم الفكرى بوجه عام ونفوذهم الدينى بوجه خاص قوين سليمين لم تنل منهما قوة أعدائهم الا قليلا

ولا شك أنه كان فى مقدرة اليهودية أن تزيد فى بسط نفوذها الدينى على العرب حتى تبلغ منزلة أرقى مما كانت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ولكن الذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام الى ارغام الامم على اعتناق دينها وان نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود (١)

ولسنا نعرف فى تاريخ اليهود أنهم أرغموا بقوة السيف أمة من الامم على اعتناق اليهودية اذا استثنينا حادثة واحدة ارغم فيها الملك اليهودى يوحنا هوركانوس طوائف بنى أدوم على اعتناق اليهودية صاغرين بعد ان استولى على بلادهم عنوة ولكن يجب ألا يغيب عن بالنا أن اليهود كانوا يعتبرون بنى أدوم إخوة لهم فى الجنسية اذ لم تكن هناك بينهم فروق ظاهرة فى العقلية والتقاليد فلعلهم أرادوا بارغامهم اياهم على اعتناق اليهودية أن يزيلوا الفارق الدينى أيضاً... (٢)

وهناك عامل آخر حال دون انتشار اليهودية فى الحجاز : فاليهودية كما نفهمها هى خلاصة القانون التلمودى بعقائده وتقاليده وطقوسه وهذا القانون الذى نشأ فى بيئة معينة وفى مدة قرون معينة والذى استمد مبادئه وتعاليمه من نصوص التوراة قد أدخلت عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التى طرأت على اليهود مع التغير الاجتماعى والرقى الروحانى الذى طبع العقلية اليهودية بطابع جديد لم يكن يعرف فى العصور الاسرائيلية القديمة وقد نجم عن ذلك ان الذين أرادوا

(١) راجع التلمود كتاب Kiddushin ص ٤ وكتاب Yebמות ص ١٠٣

(٢) Klausner ص ٢ ص ٧٢ وكتاب Simhoni ص ٢ ص ١٠٣

أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس التلمودى وعقائده لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية ولا شك ان هذا كان من أهم الاسباب التى أدت الى ظهور النصرانية فان طوائف اليونان والسريان المجاورة لفلسطين قد تأثرت بالدين الاسرائيلى وارتاحت لتعاليم التوراة فاعتنقت العقائد الجوهرية وآمنت بالمبادئ الأساسية ورفضت ما لا يناسب روحها القومى ولا يتفق مع تقاليدها القديمة كذلك وجدت هذه النفسية فى الجزيرة العربية اذ تأثر كثيرون من العرب بتعاليم اليهودية وأخذوا يخضعون لبعض الاصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر فلم ترض منهم اليهودية ذلك ولم تقربهم الى الله بل لم تفرق بينهم وبين بقية عبدة الأصنام لأنهم لم يقبلوا التمسك بالسبت ولم يخضعوا لبقية وصايا التوراة والتلمود

وهكذا صمم اليهود الذين انفردوا عدة قرون بحمل راية التوحيد على أن يبعدوا عن اليهودية كل من أراد أن يعتنقها الا اذا توافرت فيه جميع شروط التوراة والتلمود وخضع لكل نظمها دون أن يفضل بعضها على بعض على أن المسيحيين والمسلمين نحو هذا النحو مع كل من أراد أن يعتنق المسيحية أو الاسلام اذ لم يرض المسيحيون من شخص أن يعتنق بعض ما جاء فى الانجيل وينكر ما لم يوافق هواه وكذلك رفض المسلمون أن يدخلوا فى حظيرة الاسلام من آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر

وهناك أمر آخر عاق انتشار اليهودية بين العرب ذلك ان التوراة والتلمود كلفا الانسان بتكاليف صعبة وربطاه بتقاليد كثيرة لم يألفها فلم يستطع العربى الذى لم يكن يعرف للنظم المعقدة قيمة أن يدركها بسهولة وعسر على نفسه أن تقبل التقليد باغلال لا تحصى من القوانين الثابتة الثقيلة وهى المطبوعة على حب الاستقلال والحرية

ويقول الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار : وهناك أمر آخر له خطر . وهو

ان اليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وشعبه المختار من بين شعوب الارض . ولا تسمح أنفسهم أن تكون هذه الميزات لشعب آخر ليس منهم . لهذا لا يقرون بأن الله يختار نبيا غير اسرائيلي . (راجع آية — ١ — وما بعدها من الاصحاح ١٤ ثنية) — اه

كنا قد ذكرنا في الفصول الماضية ان بطونا عربية كثيرة سكنت بجوار اليهود في يثرب وخيبر ووادي القرى ولكن الاختلاط والتأثير بين العرب واليهود لم يقف عند هذا الحد بل انه انتشر في أكثر أقاليم العرب عموما والحجاز خصوصا . كانت مستعمرات اليهود واقعة على طريق القوافل الآتية من الحجاز واليمن قاصدة الى سورية والعراق وكان تجار العرب يأتون الى الاسواق اليهودية في شمال الحجاز ليبتاعوا من حاصلات اليهود وصناعاتهم وكذلك كان اليهود يعرضون بضاعتهم في الاسواق التي كان العرب يقيمونها في جهات شتى فينتج عن التعاون الاقتصادي والاختلاط الاجتماعي تبادل في الآراء وجدال في الديانات

كان اليهود يفتخرون بدينهم ويقصون على الاعراب ما يعلمون من عظمة الله وجبروته وعن خلق الدنيا والجنة والنار والقيامة والبعث والحساب والميزان وكانوا يذكرون معاييب الوثنيين ويمزقون أعراض الأصنام جهرا كما يحدثنا ابن هشام اذ يقول « كان سلامة من أصحاب بدر قال : كان لنا جار من يهود بن عبد الأشهل قال فخرج علينا يوما من بيته حتى وقف على بني الأشهل وأنا يومئذ أحدث من فيه سنا على بردة لي مضطجع فيها بفناء أهلي فذكر القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار فقال ذلك لقوم أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون ان بعثا كائن بعد الموت فقالوا له ويحك يا فلان أو ترى ان هذا كائن ان الناس يبعثون بعد موتهم الى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم قال نعم والذي يحلف به ويود أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ثم

يدخلونه اياه فيظنونونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً فقالوا له ويحك يا فلان فما آية ذلك قال نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده الى مكة واليمن (١)

يوجد عند بعض الباحثين ميل الى اعتقاد أن اليهود تعمداً نشر قصص التوراة والتلمود بين العرب لأسباب سياسية ودينية وأنها في حقيقة الأمر دسيسة لفقها اليهود للعرب تزلفاً اليهم واحتيالا على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والألفة بينهم » ويقول أحد هؤلاء العلماء : « . . . ان هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة اذ لوحظ عليهم كثيراً أنهم متى رأوا المصلحة في التودد الى قوم قالوا لهم أنتم اخواننا ونحن وأنتم صنوان . . . وظلوا منذ ذلك العهد الى ظهور الاسلام وهم يبذلون جهدهم في اشراب العرب عقيدة أنهم جميعاً ذرية أب واحد حتى نجعت فيهم هذه الأكذوبة التي كان العرب أجهل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق

ولما ظهر النبي محمد رأى المصلحة في اقرارها فأقرها وقال للعرب انما هو يدعوهم الى ملة ابراهيم . . . (٢)

والتأمل في هذه النظرية التي يشم منها رائحة الطعن في ديانة سماوية يرى أنها مجردة عن الصحة وليس فيها من الحقيقة التاريخية عين ولا أثر ويؤكد فسادها ما يأتي :

- (١) ان اليهود كانوا يقصون على العرب الاقاصيص المذكورة في التوراة والتلمود كما هي دون أن يزيدها عليها شيئاً من عند أنفسهم
- (٢) اذا وجد الميل عند بعض المستشرقين الى انكار وجود الآباء الأقدمين لبني اسرائيل من ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب فانهم لا يستطيعون أن

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٣

(٢) مقالة في الاسلام من كتب المبشرين ص ١٨

ينكروا وجود قبائل بنى اسرائيل وقبائل بنى اسماعيل لان التوراة نصت على وجودها في طورسينا والحجاز بما ذكرته من الحوادث التي وقعت بين بطون اسماعيلية وأدومية واسرائيلية ولا شك أن هذا كاف لاثبات العلاقة الدموية المتينة بين اليهود وعرب طورسينا والحجاز

وقد عثرت على نص في التوراة يؤيد نظريتي في هذا الصدد ولكنى مضطر الى أن أترجم هذا النص ترجمة عربية جديدة لان تراجم التوراة العربية والافرنجية قد أخطأت في تفسيرها الحقيقي وهذا هو النص العبري : וישבנו (בני-שמעאל) מחוירה עד שור אשר על פני מצרים באכה آشורה עד פני כל אחיו נפר^(١) ومعناه : ونزلت (بطون بنى اسماعيل) مع نشأتها^(٢) بين اخوتها واستوطنت البلاد من الحولة الى طريق القوافل بين مصر والعراق

(٣) قرر علماء الافرنج جميعاً أن علاقة بطون بنى اسرائيل الجنوبية بعرب الحجاز وطورسينا أقرب منها الى قبائل بنى اسرائيل الشمالية كل هذا يوضح انه لم تكن ليهود الحجاز ضرورة لاختلاق الأباطيل^(٣)

وأما الاستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار فيقول : لو أن اليهود كانوا في تلك الأزمان المنصرمة يستغلون القرابة يخترعونها لتكون رباطاً بينهم وبين قوم يرجون منهم نفعاً أو يخشون منهم ضرراً أو حيفاً لكان الأجدد بتلك القرابة الرومان والفرس أى الأمم التى تعاقب حكمها عليهم فى الأزمنة المختلفة . ولكننا لم نرهم شيئاً من ذلك ودعوى انهم يفعلون ذلك مع الأمم كلما رجوا نفعاً أو خافوا حيفاً دعوى لا نظن ان من يدعيها يقدر أن يقيم أدنى برهان عليها

(١) التكوين فصل ٢٥ / ١٨

(٢) راجع فى نهاية هذا الباب عن النساء ص ٨١

(٣) ص ٢٧ — ٣٤ Israel's settlement in Canaan

وأعجب ما يعجب له السامع لأولئك الطاعنين في اليهود بهذه الفرية أن يكون اليهود يخترعون تلك الاسطورة تزلفاً لقريش أو العدنانيين في حين أنه ليس ثمة من صلات بين اليهود وقريش تجعل الأولين يرهبون سطوة الآخرين ويرجون خيرهم لبعد الشقة بين مواطن الفريقين ولم يعهد أحد ولم يروراو في القديم ولا في الحديث أن اليهود استعانوا قريشاً في حرب من حروبهم أو غزوة من غزواتهم معتمدين على صلة القرابة واتحاد الدم أو على صلة أخرى من الصلات التي تكون بين الشعوب المتقاربة أو المتباعدة

ولو أن اليهود يتجرون بأحمة القرابة النسبية ويستغلونها للمصلحة يجلبونها أو المضرة يدفعونها لكان الأليق بهم والأجدر أن يخترعوا تلك القرابة بينهم وبين الأوس والخزرج الذين يتأخونهم ويشاركونهم في المواطن والمرافق ويرتبطون معهم بربط المعاملة والجوار . فكيف يتركون هؤلاء المجاورين لهم ويخترعون أسطورة يلققونها تربطهم بقوم بعيدى الدار لا يملكون لهم ضرراً ولا نفعاً

بقى أمر آخر له أهمية في هذا الموضوع : وهو أن أسفار التوراة ترجحت الى اليونانية في عهد بطليموس فيلادلتوس . وهو ثانى ملك من البطالسة في مصر ويوافق حكمه أوائل القرن الثالث قبل المسيح وفي صلب تلك الترجمة كل النصوص التي تنص على ارتباط العرب الاسماعيلية بالقرابة النسبية مع اليهود وذلك قبل رحيل يهود يثرب الى الحجاز بما يقرب من أربعة قرون . فهل كان اليهود يعلمون ما ستحدثه الأيام وانهم بعد أربعة قرون أو أكثر سيصيرون الى بلاد العرب ويتخذونها دار مقام لهم . ثم أنهم سوف يحتاجون الى ربط أنفسهم برابطة النسب مع قوم من العرب لا يخالطونهم في الدار وليس بينهم وبينهم حلف أو جوار فأعدوا ذلك قبل ترجمة التوراة الى اليونانية وكذبوا تلك الأكذوبة سلفاً وقبل الاحتياج اليها بقرون متطاولة . اذا قال أولئك الطاعنون على اليهود : نعم ، فليس لدينا ما نجيبهم به سوى قول القائل :

من كانت يخلق ما يقو ل فخلت في فيه قليلة اه —
ومها يكن من الأمر فان اتصال العرب باليهود قد أدى الى تغيير جوهرى
فى عقلية المضر والبادية بالحجاز وظهرت هناك نظم جديدة طرأت على شؤونهم
الاجتماعية وتسربت الاصطلاحات من العبرية الى العربية
وإني أشير هنا الى بعض التغييرات التى يعتقد العلماء انها ظهرت فى الحجاز
بعد وصول اليهود اليها فى طورهم الثانى ...

لا شك فى أن عادة الختان لم تسر من اليهود الى العرب لأنها كانت
شائعة عند قبائل مختلفة فى الجزيرة العربية منذ عصور غابرة ويستدل العالم
(Wellhausen) ^(١) بوجود قبائل متوحشة حتى فى أفريقيا كانت تألف
هذه العادة

ولست أنكر صحة هذا رأى لأن التوراة توضح لنا أن بنى إسرائيل قد
جاءوا بالختان من موطنهم الاصلى فعلى ذلك يحتمل أن هذه العادة كانت ذاتمة
عند قبائل أخرى مجاورة لبنى إسرائيل فى الصحراء

غير أن هناك اعتباراً آخر لم يعن العلماء نظرم فى فحصه ربما يرشدنا الى
اكتشاف تأثير اليهود على العرب فى عادة الختان

كان الاصطلاح « ملة ابراهيم حنيفا » ^(٢) شائعاً عند العرب قبل ظهور
الاسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكرى العرب لم تكن عبادة الأوثان
تعجبهم وكانوا يرون أن التقرب الى الله بالحجارة أمر لا قيمة له

لا أريد أن أعود الى اقوال مفسرى القرآن فى هذه العبارة ولكن أجتهد
فى أن أصل الى تفسير جديد لهذا الاصطلاح

(١) Skizzen & Vorarbeiten H III ١٤٥ ص

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧ و ٢١٩ و ٢٢١

يعرف العضو التناسلى بعد ختانه فى العبرية باسم **مِلَّة** (מילה) كما ان له اسما خاصاً قبل ختانه وهو **غرلة**

وبما أن الختان من أصول الدين الاسرائيلى^(١) فقد عبر الناموس الدينى عن كل من اختتن انه دخل فى ذمة وعهد ابراهيم الخليل **להכניסו בכריתו של אברהם אבינו** ومن هنا أطلق اليهود على كل من اختتن التعبير « **ملة ابراهيم** » وهذا اللفظ يقوله العاذر للطفل عند ما يعذره والحاضرون يؤمنون (**לונים אמין**)

ولكن من حيث أن الختان وحده لا يؤدى الى الايمان باليهودية لأن هناك شروطاً أخرى لا بد من توفرها كاعلان الدخول فى الديانة التوحيدية الاسرائيلية واتباع ما تأمر به التوراة واجتناب ما تنهى عنه فقد أطلق اليهود على كل من يختتن دون أن يعتنق اليهودية اسم **حنيف** **חניף**^(٢) غير الصالح أى الختان الغير الوافى بالشروط اليهودية وقد جاء فى لسان العرب وكان فى الجاهلية يقال من اختتن وحج البيت حنيف القراء الحنيف من سنَّته الختان ... الجوهرى الحنيف المسلم وقد سمي المستقيم بذلك كما سمي الغراب أعور وتحنف الرجل أى عمل عمل الحنيفية ويقال اختتن

وفيه أيضاً : أبو عمرو الحنيف المائل من خير الى شر ومن شر الى خير ومن ذلك كله يمكننا أن نقول إن الحنيف فى الأصل هو المائل الى الشر كما هو عند اليهود فى لغتهم والعرب قد يطلقون اللفظ على الشئ وضده فأطلقوا الحنيف على المستقيم على **ملة ابراهيم** استعمالاً للفظ فى أحد معنييه^(٣) فيحتمل أن اليهود أطلقوا على العرب التى شاعت عندها عادة الختان هذا اللفظ دون أن

(١) راجع التوراة سفر التكوين فصل ١٧ آية ١١ والتلمود كتاب **دبريم** ص ٢١

(٢) لهذه الكلمة بعض المعانى بالعبرية مثل : تملق أو اقترف أثماً أو تذلل وتداهن

(٣) لسان العرب جزء ١٠ ص ٤٠٣

توضح لهم معناه ثم شاع استعماله عند العرب حتى في معناه الاصلى^(١)

لو اتضحت صحة هذا الرأي لكان فيه برهان قاطع على ان عادة الختان قد

سرت الى العرب من اليهود في الدور الثاني

يجتهد العالم (Wellhausen) في أن يبرهن ان الحنيفية كانت مذهباً نصرانياً ذائع الصيت^(٢) في بلاد العرب ولكن Leszynsky يعارضه^(٣) ويقول ان الحنيفية لم تكن نصرانية البتة كما لم تكن مذهباً معيناً بل كان هناك أشخاص من مفكرى العرب استنكروا عبادة الأوثان متأثرين بتعاليم اليهودية والنصرانية ودخل بعضهم في اليهودية ودخل بعض آخر في النصرانية وبقى جماعة منهم غير متمسكين بدين من الأديان واستدل على ذلك بقول القرآن ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً فانه صريح في أن الحنيفية لم تكن واحداً منها

وقد جاء لبعض الافراد من الحنيفيين ذكر في سيرة ابن هشام أكتفى بنقل ما يقوله عن واحد منهم « وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف ولم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميثة والذبايح التي تذبح على الاوثان ونهى عن قتل الموءودة وقال أعبد رب ابراهيم وباداً قومه بعبادته ما هم عليه . . . وكان زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً يسند ظهره الى الكعبة ويقول يا معشر قريش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين ابراهيم غيرى ثم يقول اللهم لو انى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدتك ولكنى لا أعلمه . . . »^(٤)

(١) دوزى ص ١٩٠

(٢) Skizzen H IV ١٩٢

(٣) Die Juden zu Medina ٤٣ ص

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢١٧

كذلك قرر بعض العلماء من الافرنج أن أمر النسىء نشأ من تأثير اليهود على العرب^(١)

يحدثنا ابن هشام بأن « النساء هم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيحلون الشهر من الأشهر الحرم ويحرمون مكانه من أشهر الحل ويؤخرون ذلك الشهر^(٢) »

وللعرب في موضوع النساء ومعناها كلام طويل عريض^(٣) وأما الافرنج فينكرون وجود تفسير لكلمة نساء بالعربية ويميلون الى القول بما كان معروفاً عند اليهود من ان الناسى^(دس١٤) أى الرئيس الدينى عند اليهود كان يؤخر ويقدم الشهور ويعين مواعيد الأعياد والصيام ويعلم النتيجة بواسطة وفود الى الطوائف اليهودية المختلفة^(٤)

وأضيف الى ذلك أن الناسى^(دس١٤) هو الاسم الشائع لرئيس القبائل عند بنى اسرائيل منذ أزمنة غابرة^(٥)

ويحدثنا ابن هشام أن أول من نسا الشهور على العرب فأحلت منها ما أحل وحرمت منها ما حرم القلمس وهو حذيفة بن عبد بن ققيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمه ثم قام بعده على ذلك ابنه (ابن حذيفة) ثم قام بعد عباد قلع بن عباد ثم قام بعد قلع أمية ابن قلع ثم قام بعد أمية عوف بن أمية وكان آخرهم وعليه قام الاسلام وكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت اليه فحرم الاشهر الحرم الأربعة رجباً وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فاذا

(١) Die Israeliten zu Mekka ١٦٨ — ١٧٤

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٤٣

(٣) أديان العرب تأليف محمد نومان الجارم ص ٤٣ — ٤٦

(٤) ראש השנה פ' ע'

(٥) سفر الخروج فصل ٣٤ آية ٣١ وسفر عدد فصل ٧ آية ٣

أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم . مكانه صفر فخرموه ليوافقوا عدة الأربعة الأشهر الحرم فإذا أرادوا الصدر قام فيهم فقال انى قد أحملت لكم أحد الصفرين الصفر الأول ونسأت الآخر للعام المقبل . . . (١)

هذه أقوال ابن هشام عن النساء وهى توضح قبل كل شيء أن وظيفة النساء أدخلت على العرب فى عصر غير بعيد من ظهور الاسلام ثم ان وجود هذه الوظيفة فى بنى كنانة يرشدنا الى سؤال : هل كان لبطن بنى كنانة الذى اصدر النساء علاقة ببطون بنى كنانة المتهودة التى سكنت جنوبى مكة ثم لماذا وجدت المقاومة للنصرانية فى اليمن وللنجاشى الذى قضى على ذى نواس من جهة النساء وحدهم دون الزعماء الوثنيين ؟ ألم يكن من المحتمل أن لهؤلاء النساء علاقة باليهودية ؟ . . .

ولكنى أكتفى بما أشرت اليك من العلاقة بين كنانة والنساء وكنانة واليهود ومقاومة النساء للنجاشى بسبب عطفهم على القضية اليهودية فى الجزيرة دون أن أجزم فيها برأى

ويؤيد أبو معشر البلخى (٢) وأبو الريحانى البيرونى (٣) والمقرئزى (٤) رأينا فى النساء ويقولون ان العرب تعلموا عمل الكبسية من اليهود قبل الهجرة بقريب من مائتى سنة وأخذوا يعملون بالكبس . ما يشاكل فعل اليهود من الحاق فضل ما بين سنتهم وسنة الشمس وقد أطلق العرب على عمل الكبسية بالنسء أى التأخير غير انهم خالفوا اليهود فى بعض أعمالهم لأن اليهود كانوا يكبسون تسع عشرة سنة قمرية بسبعة أشهر قمرية حتى تصير تسع عشرة شمسية والعرب تكبس

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٤٥

(٢) كتاب الالوف

(٣) الآثار الباقية عن القرون الخالية

(٤) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار

أربعاً وعشرين سنة قمرية باثني عشر شهراً قمرياً

كذلك نظن أن لوظيفة الصوفة علاقة باليهود أو بلغتهم العبرية على أقل تقدير يحدثنا ابن هشام « كانت صوفة تدفع بالناس من عرفة وتجزئهم إذا انفردوا من منى فاذا كان يوم النفر أتوا لرمى الجمار ورجل من صوفة يرمى للناس ما يرمون حتى يرمى فكان ذوو الحاجات المتعجلون يأتونه فيقولون له قم فارم حتى نرمى معك فيقول لا والله حتى تميل الشمس فيظل ذوو الحاجات الذين يحبون التعجيل يرمونه بالحجارة ويستعجلونه بذلك ويقولون له ويلك قم فارم فيأبى عليهم حتى إذا مالت الشمس قام فرمى ورمى الناس معه . . . وكان آخرهم الذي قام عليه الاسلام كركب بن صفوان . . . (١)

وأما صوفة بالعبرية فان معناها الحارس وهذا التفسير يلائم ما نقلناه من كتاب السيرة عن الصوفة (٦٥٤) بصر أو الشخص الذي يبصر في الشؤون الدينية لأنه أصدر الأمر حين مسابقة الافاضة وكان أول من رمى الجمار بالحجارة أو الحصى في وادي منى

ومنى هذا من الأصنام المشهورة عند بني اسرائيل في عصور جاهليتها لاننا نعلم من آيات نبوات أشعيا أن منى (٦٥٥) كان الها للخمير « وأما الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسى فرتبوا الى جد (٢) مائدة وملأوا لمنى خمرًا ممزوجًا (٣) وكذلك يرى العالم دوزى ان استعمال العرب لاسماء الأسبوع تأثيراً يهودياً (٤) اذ لا يمكن تصور استعمال لفظ السبت ليوم من أيام الأسبوع دون أن يأتى من

(١) ابن هشام جزء ١ ص ١١٣

(٢) من الاصنام الكنعانية ٦٥ اله الجد والحظ وقد أخطأت تراجم التوراة العربية في

تفسير هذه الآية : راجع ترجمة التوراة لجمعية المبشرين البريطانيين ص ١٠٧٠

(٣) أشعيا فصل ٦٥ آية ١١

(٤) ص ١٨٠ Die Israeliten zu Mekka

تأثير اليهود كذلك عرف يوم الجمعة عند أهل مكة بلفظ عروبة وهو لفظ شائع عند اليهود يطلقونه على كل يوم يقع قبل السبت وقبل الأعياد :

ערב שבת, ערב חג הפסח (١)

ومما يكن من مبلغ تأثير اليهود في العرب فاني أميل الى الاحتراس والتحفظ لئلا نصل الى المبالغة والمجازفة في الحقائق التاريخية على أن هناك مقياساً آخر يجب ألا ينسى وهو ما قلته فيما مضى من ان الصلة الدموية في العنصر والتقارب في اللغة والاخلاق هو أساس التشابه بين العقلية واتجاه الأفكار والآداب بين العنصرين

ولا يمكننا في كل الأحوال أن نستنتج نتائج تتعلق بالنفوذ كما يحكم بعض الذين لا يتعمقون في البحث فيقولون مثلاً ان مهنة التجارة وما يتصل بها من دهاء وذكاء ونشاط قد جاءت الى أهل مكة من يهود بلاد الحجاز اذ ترجع ملكة التجارة عند بطون أم القرى قبل كل شيء الى مركزها الجغرافي ووقوعها في وسط بلاد العرب وعدم وجود مرافق أخرى للتكسب والارتزاق

ثم ان التشابه العظيم بين اليهود وأهل مكة من وجهة الأخلاق والتقاليد والاصطلاحات الدينية كان سبباً في ضلال بعض المستشرقين حتى خيل اليهم أن أهل مكة واليهود قُدموا من أديم واحد ونبتوا من نبتة واحدة فأخذوا يذهبون في المبالغات والظنون مذاهب عجيبة ومنهم دوزي (٢) الذي يجتهد في أن يبرهن على أن حرم مكة قد عمر بواسطة بطون بني شمعون وان تقاليد الحج والطواف حول الكعبة ليست الا وراثه اسرائيلية قديمة ولكننا نعتقد أنه اذا ظهر التشابه بين أهل مكة واليهود أكثر منه بين اليهود والبطون الحجازية الأخرى فان ذلك

(١) راجع التلمود كتاب אבות פ' ה' וكتاب פסחים קט

(٢) Die Israeliten ص ٤٠ — ١٨٥

يرجع الى أن مكة كانت أرقى وأرفع من بقية البلاد في شمال الجزيرة ومن أجل هذا كان حرم مكة موضع الاحترام والتبجيل من جميع العرب في الجاهلية . ومع انى أستنكر استنكاراً شديداً ما استنتجته دوزى في أمر حرم مكة وعلاقته ببطون بنى شمعون فان هناك أمراً يستوقف الأ نظار وهو انه كثيراً ما يحدثنا ابن هشام عن حرم مكة وبنائه واشتراك ابراهيم واسماعيل والملائكة في تقديسه الخ (١) . . . بشكل يشبه ما يقصه التلمود عن بناء الهيكل المقدس بأورشليم وعلاقة الآباء الأقدمين به وتقديس الملائكة له حتى خيل الينا أثناء قراءتنا كتاب السيرة لابن هشام في هذه الموضوعات اننا نقرأ صحف التلمود القصصية . . .

تجتهد طائفة من أنصار Wellhausen في أن تبرهن على أن تأثير النصرانية في النفوس العربية الحجازية كان أقوى من تأثير اليهودية . مستندين الى أن عدد نصارى العرب كان أكثر من عدد اليهود (٢) ولكن هذا غير صحيح لان الكثرة النصرانية العربية انما كانت على أطراف الجزيرة من جهة الشمال أما في داخل الحجاز حيث المراكز التجارية والدينية والفكرية فقد كانت الاكثرية في جانب اليهود بل لم يكن هناك من نصارى العرب الا عدد قليل جداً

وفضلاً عن ذلك فقد كانت الصلة قوية جداً بين مكة ويثرب التى كانت تسكاد تعتبر . وطناً خالصاً لليهود

(١) ١٠٦ / ١٣٤ / ١٨١ من ابن هشام جزء ١ وللبخارى أحاديث في هذا الموضوع منها : وقال الرسول يوم فتح مكة ان هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والارض فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة وأنه لم يحل القتال فيه لاحد قبلى ولم يحل لى الا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله الى يوم القيامة لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطه الا من عرفها ولا يختلي خلاه . . . جزء ٢ ص ٣٠١

(٢) Skizzen Heft III ١٩٧ ص

ويكفيها في تقويض مزاعم هؤلاء المستشرقين اننا نجد أكثر من ثلث القرآن يتكلم عن اليهود ويناقشهم ويهتم بأقوالهم والرد عليها فطوراً يمدحهم وتارة يقرعهم ويؤنبهم تأنيباً شديداً فان ذلك يدل على ما كان لليهود من المكانة العظيمة في نفوس العرب وعلى الصلة المتينة التي كانت تربطهم بهم لا ننكر على النصرانية تأثيرها في العرب بوجه عام ولكنه على كل حال تأثير ضئيل بالنسبة للنفوذ اليهودي الذي كان واضحاً جلياً في كل ناحية من نواحي الحياة الروحية والمادية . . .

وهناك مسألة أخرى تلفت نظر الباحث في كتب بعض المؤرخين من الافرنج وهي ما يزعمونه من ان اليهود كانوا محتقرين في الجزيرة العربية قبيل ظهور الاسلام^(١) ونحن نميل الى الاعتقاد بأن ذلك غير صحيح لان العربي في الجاهلية لم يكن يفهم البغض والضغينة الدينية كما فهمها المتأخرون ولقد يؤيد الاستاذ النجار رأينا بقوله : لو كان اليهود محقرين لما اهتم رسول الله بمحالقتهم ولما أتهم أمرهم يوم الأحزاب حين مالوا عنه ولما قام لحربهم بعد يوم الأحزاب على مما لأتهم عليه واتيانهم بالأحزاب لحربه . . . اهـ

وكان عرب الجاهلية يلقبون اليهود أثناء القتال والنضال بألقاب قبيحة ذميمة وكذلك كان اليهود يفعلون ولكن ذلك لم يؤد الى احتقار اليهود أو التعريض بالقومية اليهودية ودينها وما كان للعربي الذي طبع على حب الحرية والغيرة على الكرامة أن يسلبها من غيره وكل القرائن تدل على أن العرب على اختلاف بطونهم وأديانهم كانوا يتبادلون الاحترام دون أن يعرفوا فرقاً بينهم من وجهة الحقوق السياسية والاجتماعية والأدبية فقد نجد كعب بن الأشرف يرثي قتلى قريش كما نجد عباس ابن مرداس يذكر جلاء بني النضير ويبكيهم في قصيدة

وكذلك يمدح أبو سفيان زعيماً من زعماء اليهود ويقول :

سقاني فرواني كميّاً مدامة على ظمأ منى سلام بن مشكم
تخيرته أهل المدينة واحداً سواهم فلم أغبن ولم أتندم
فلما تقضى الليل قلت ولم أكن لأفرحه أبشر بعرف ومغم
وان أبا غنم يجود وداره يثرب مأوى كل أبيض خضرم^(١)

ولا يمكن أن يعول على ما يؤخذ من القصص والروايات التي جاءت بعد فتور الأحوال بين اليهود والأنصار أو يستدل به على مكانة اليهود في نفوس العرب زمن الجاهلية

كان اليهود موضع الاحترام عند الأشراف والنقباء من قريش وكان رسول الاسلام ينظر اليهم هذه النظرة من التبجيل الى زمن طويل بعد مبعثه كما سنوضح ذلك فيما بعد

وكان العرب يجهلون الديانة اليهودية ويقولون لليهود « لكم علم ليس لنا »^(٢) وقد يحدثنا ابن هشام أن رجلاً من يهود الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبيل الاسلام بسنين فحل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلى الخمس أفضل منه فأقام عندنا فكنا اذا قحط عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة فنقول له كم فيقول صاعاً من تمر أو قُدَيْن من شعر فخرجها ثم يخرج بنا الى ظاهر حرتنا فيستقي لنا والله ما يبرح من مجلسه حتى تمر السحابة ونسقى قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً...^(٣)

والذى يمكننا ان نستنتجه من هذه القصة الخرافية ان مؤرخى العرب كانوا يعتقدون ان الديانة اليهودية واقواها كانوا موضع الاحترام في الجاهلية

(١) الاغانى جزء ٦ ص ٩٧

(٢) ابن هشام جزء ١ ص ٢٠١

(٣) ابن هشام جزء ٠ ص ٢٠٤

وكتن من نساء العرب من تنذر اذا ولدت وعاش ولدها ان تهوده لان اليهود كانوا فى نظرهم أهل علم وكتاب^(١)



قبيل ظهور الاسلام حدثت حروب عظيمة بين بطون يثرب عرفت بيوم بعثت دامت سنين طويلة كذلك حدث فى جهة مكة حرب ضروس عرفت بايام الفجار التحمت فيها المعارك بين بطون قريش وكنانة فى أربعة أدوار يقال لها الفجارات الاربعة

أما الفجار الاول فكان عمر النبي محمد فيه عشر سنين وسببه ان بدر ابن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم انه اعز منى فليضربها بالسيف فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فأسقطها وأزالها فاقتتلوا . وسبب الفجار الثانى ان امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة فسألها أن تكشف وجهها فضحك الناس فنادت المرأة يا آل عامر فنادوا بالسلاح ونادى الشاب يا بنى كنانة فاقتتلوا . . . وسبب الفجار الثالث انه كان لرجل من بنى عامر دين على رجل كنانى فماطله فغرت بينهما مخاصمة فاقتتل الحيان^(٢)

وكانت آخرها فجار البراض وقد بلغ رسول الله أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة حين هاجت حرب الفجار بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان وكان الذى هاجها ان عروة الرحال من بنى هوازن اجاز لطيمة (وهى الجمال التى تحمل المسك) للنعمان بن المنذر فقال له البراض بطلب غفلته حتى اذا

(١) ديانات العرب فى الجاهلية ص ٢٠١

(٢) من تهليقات الشيخ محمود سيد الطهطاوى على كتاب السيرة لابن هشام جزء ١

كان بتيمن ذى طلال بالعالية وثب عليه فقتله فى الشهر الحرام فلذلك سعى
الفجار فارتحل العرب عن عكاظ وهوازن لا تشعر أن البراض قد قتل ثم بانهم
الخبر فاتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم
فأمسكت عنهم هوازن ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً والقوم متساندون على كل قبيل
من قريش وكنانة رئيس منهم وعلى كل قبيل من قيس رئيس منهم وشهد رسول
الله بعض أيامهم أخرجه أعمامه معهم وقال الرسول كنت أنبل على أعمامى أى
أرد عليهم نبل عدوهم اذا رءوهم بها . . . (١)

وأما الذى نقلناه عن أيام الفجار فيحتمل أن يكون من العال المباشرة
والقريبة لظهور الهياج بين قبائل قريش وكنانة وهوازن .

ويلوح لى أن النضال الشديد الذى ظهر بين قبائل الحجاز فى شماله وجنوبه
يدل على انه وجد فى القرن السادس ب . م حركة سياسية قوية بين زعماء الحجاز
كان كل واحد منهم يطمع أن يستأثر بالحكم لىتمكن من أن يشيد أركان مملكة
جديدة

ولكن التنافس أضعف الجميع وقلم أظافره وزاد فى المصاعب والمتاعب
التي كانت تحول بين كل واحد منهم وبين ما يريد حتى ظهر هناك شخص توافرت
فيه شروط لم تتوافر فى غيره فألف بين القلوب

ومن ذلك الحين أخذت جداول الجزيرة العربية تتجه اتجاهاً واحداً ويقترب
بعضها من بعض الى أن امتزجت فى نهر واحد أخذ يتدفق من قلب الجزيرة
ويفيض بقوة حتى غمر وجه الأرض . . .

وقبيل ظهور الاسلام وجدت فى الديار العربية نهضة فكرية عظيمة كان
الاضطراب من علاماتها وقبيل الاسلام أيضاً أصبحت القلوب صالحة لقبول

دعوة دينية جديدة وصارت الديانة الوثنية موضع السخرية جهراً عند بعض الطبقات من المفكرين

يحدثنا صاحب الأغاني أن قس بن ساعدة الأيادي كان يتكىء عند خطبته على سيف أو عصا ويقول « مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا والله ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلمكم زمانه وأدرككم أوانه فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لمن خالفه^(١) »

ومع ان النصرانية واليهودية قد أوجدتا الشك في صحة الديانة الوثنية فانهما لم تفلحا في ادخال تغيير جوهري في النظم الدينية وظلت الوثنية واليهودية والنصرانية في نزاع عنيف دون أن تتغلب واحدة على الاخرى

واننا نعتقد أنه لو ظهر هناك يهودى ذو عاطفة ربانية قوية ودعا العرب الى الدخول في دين جديد يشبه اليهودية في جوهره ويبقى عربياً في تقاليده وروحه لكانت دعوته قد وجدت آذاناً مصغية وقلوباً واعية

كذلك لو كان واحد من المفكرين الحنيفيين أو غيرهم دعا لتوحيد الآله مع ابقاء النظم العربية الاجتماعية النليدة لكانت دعوته قد صادفت أرضاً خصبة يقول صاحب الأغاني ان أمية بن أبى الصلت « كان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وكان ممن ذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفة وحرم الخمر وشك في الأوثان وكان محققاً والتمس الدين وطمع في النبوة لانه قرأ في الكتب أن نبياً يبعث من العرب فكان يرجو أن يكون ذلك . . .^(٢) »

ولكن أمية وغيره لم يظهروا بمظهر الأنبياء ولم يجتروا على أن يفادوا بحياتهم

(١) الاغانى جزء ١٤ ص ٤٠

(٢) الاغانى جزء ٣ ص ١٧٩

فى سبيل الدعوة الدينية وبقيت أفكار أهل الجزيرة العربية مضطربة اضطراباً
عنيفاً بين اليهودية والنصرانية والوثنية الى أن ظهر رجل رفع علم النبوة وصار غرة
ناصعة فى جبين الدهر ومجداً باقياً ما بقى الزمان وأرغم التاريخ على أن ينحون نحواً
جديداً . . .

وكان اسمه محمد بن عبد الله من آل قريش من مدينة مكة



البابُ الخامسُ

مكة ويثرب ازاء الحركة الاسلامية

مبعث الرسول — كيف يكون البحث في سيرة الانبياء ؟ طريقة البحث عند رجال العلم ورجال الدين — الظروف التي كانت تحيط بالنبي محمد قبل هجرته الى يثرب — هل سكن اليهود في مدينة مكة قبيل الهجرة — رأى الاب المستشرق لامنس في هذا الموضوع تقسيم العالم Noeldke القرآن الكريم الى أربعة أقسام — الآيات القرآنية الموافقة لمبادئ التوراة الجوهرية — ذكر الآيات القرآنية الاولى لموسى وسردها بعض أنباء بنى اسرائيل في مصر — رواية احتكام رسول الله وبنى قريش الى يهود يثرب — ارتياب بعض المستشرقين في صحة هذه القصة الخطيرة — رأى المؤلف في هذا الموضوع — اضطهاد أهل مكة للمسلمين — نزوح فئة من المسلمين الى الحبشة — لماذا لم يلتجئ المسلمون الى اقليم من أقاليم العرب أو الى يهود يثرب ؟ سياسة الحبشة في بلاد العرب — عرض الرسول نفسه على العرب في المواسم — رحلة الرسول الى الطائف — معاناة الرسول للشدائد والصعاب في سبيل نشر دعوته — التقاء الرسول في العقبة برهط من الخزرج — الفرق بين عقلية القبائل العربية وبطون يثرب — آثار تعاليم اليهودية فيهم — الديانة اليهودية من الاسباب القوية لظهور الاسلام — اعتقاد اليهود بظهور مسيح — تأثير هذه العقيدة في نفوس قبائل يثرب — حاجة بطون يثرب الى محالقات سرية — قصة الحيسرانس بن رافع وقدمه الى مكة قبل يوم بعث — بيعة النساء بالعقبة — بيعة العقبة الكبرى — مطامع بنى الخزرج من هذه البيعة — الفاية التي كان النبي يرمى اليها — نتائج بيعة العقبة الكبرى في التاريخ الاسلامي — موقف قريش واليهود ازاء البيعة الكبرى بالعقبة

يوجه العلماء أثناء بحثهم عن حياة العظماء من الجنس البشرى عناية عظيمة الى البيئة التي نشأوا فيها والوسط الذي أحاط بهم ولا يفتأون يبحثون باهتمام شديد عن الظروف الداخلية والخارجية التي وجدوا فيها لوثوقهم بأن لها الفضل الاكبر في تكوين عقليتهم وتنمية عبقريتهم حتى اذا ما استوفوا ابحاثهم الدقيقة

العميقة يأخذون في استنتاج النتائج التي يطمئنون اليها وترتاح لها ضمائرهم غير أن هذه الوجهة في البحث لا يرتضيها كثيرا رجال الدين أثناء البحث في تاريخ الانبياء لاسيما من لا يوافقون منهم على فكرة التوفيق بين العلم والدين لانهم يعتبرون للشؤون الدينية مقياساً آخر وينزلون رجال الوحي منزلة أخرى وينظرون اليهم بعين غير التي ينظرون بها الى ابطال التاريخ البشرى

على أن هذا الاختلاف بين مقياس محقق العلم والدين لا يوجد الا في تعريف النظرية دون الوجهة العملية في جوهر البحث لان رجال الدين لا يخالفون الرأى العلمى القائل بأن الوحي انما نزل على الانبياء في ظروف داخلية وخارجية دعت اليه الأحوال وبواعث نفسية توافرت في الانبياء دون غيرهم ممن عاشوا في بيئاتهم وعصورهم ولمقلبات وعوارض نفسية كانت تعرض لهم في ظروف خاصة من سرور وشجون واضطراب

وقبل أن نشرع في توضيح الظروف التي كانت تحيط بالنبي محمد أثناء نزول الآيات القرآنية الى عهد هجرته الى يثرب فاننا نود أن نبحث في مسألة وقع فيها نزاع بين المستشرقين وهى هل اتصل رسول الاسلام بافراد وجماعات من اليهود قبل هجرته الى المدينة أم لا ؟

لا شك أن أفرادا من اليهود كانوا يأتون الى مكة لاشغال تجارية وأعمال مختلفة وأن أهل مكة أنفسهم كانوا يقصدون الى خيبر لي جلبوا منها حلى آل أبي الحقيق التي كانت نساؤهم وفتياتهم تتحلى بها حين زفافهن وغير ذلك^(١)

كذلك كان كعب بن الاشرف قد جاء الى مكة ليرثى قتلى بدر كما جاءت وفود من يهود النضير الى مكة لتحزب الاحزاب ليوم الخندق^(٢) وذلك بعد الهجرة

(١) الواقدي ص ٢٧٧

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٦٨

وكان رجال مكة يجلبون العبيد من اليهود ويحدثنا الواقدي أنه وجد في مكة عبد من اليهود كان اسمه عبد الدار بن جبر دخل في ذمة الرسول بعد أن سمع منه سورة يوسف فكان لها وقع شديد في نفسه ولما بلغ الخبر مشركي مكة أوسعوه ضرباً فاعطاه الرسول بعد فتحه لمكة مقداراً من المال فتزوج بامرأة شريفة من بنات مكة (١)

وقد أفرغ المستشرق Lamens جهده في أن يبرهن على أن عدداً من اليهود كان يسكن مدينة مكة قبيل ظهور الاسلام (٢) ولكن نظرياته لا يطمئن اليها الباحث ولو صح ما ادعاه هذا العالم لكان لليهود حي خاص بهم في مكة ولكان لهم معبد خاص يقيمون فيه صلواتهم ويدرسون كتبهم وليس في جميع المصادر التاريخية القديمة ما يشير أقل إشارة الى وجود شيء من ذلك

غير أنه من الممكن أن يكون بعض الأفراد سكنوا في مدينة مكة كما سكن بعضهم في مدينة الطائف (٣) وفي عدة مدن أخرى من الحجاز ولكنهم كانوا قليلين .

يحتمل أن النبي قد اتصل باليهود منذ حداثة لاسيما بعد أن اشتغل بالتجارة عند السيدة خديجة إذ كانت الأعمال التجارية في مدينة مكة مرتبطة ارتباطاً شديداً بيهود يثرب وخيبر

ويرتاب بعض المستشرقين في صحة خروج النبي الى الشام والتقاءه بالراهب بحيرا (٤) ويعتقدون أن الرسول لم يتجاوز حدود الحجاز طول حياته (٥)

(١) الواقدي ص ٣٤٩

(٢) راجع الرسالة Les Juives a la Meque

(٣) فتوح البلدان للبلاذري ص ٦٣ طبع مصر

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ١٦٩

(٥) Die Juden zu Medina ص ٤١

وقد قسم العالم Noeldke القرآن الكريم الى أربعة أقسام يشتمل القسم الاول منه على الآيات التى أنزلت قبل الهجرة الى يثرب ويتضح أن الآيات فى هذا الدور كانت موافقة لمبادئ التوراة الجوهرية وكانت ترمى الى التأثير فى النفوس العربية التى كانت تنظر باحترام عظيم الى تعاليم التوراة ومبادئها « ان هذا لى الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى » (١)

وينبئ التنزيل أهل مكة بأن محمداً للعرب إنما هو مثل موسى لبني إسرائيل وينذرهم ان هم لم يؤمنوا بما جاء به النبي محمد ان يصيبهم ما أصاب قوم فرعون فيقول « إنا أرسلنا اليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبئلا فكيف تتقون إن كفرتم يوماً يجعل الولدان شيباً » (٢)

كما يقول « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن اتبع إلا ما يوحى الى وما أنا إلا نذير مبين » (٣)

نفس هذا التعريف يوجد فى كتب العهد القديم عن بعض الأنبياء الاسرائيليين (٤) ويخاطب الوحي العرب بما يقنعهم بأن النبي ذكر فى التوراة وأن بنى إسرائيل يعلمونه « وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربى مبين وانه لى زبر الأولين أولم يكن لهم آية ان يعلمه علماء بنى إسرائيل » (٥)

ويشير التنزيل الى أن هناك وفقاً تاماً بين القرآن والتوراة « قل أرايتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن

(١) سورة الاعلى آية ١٩

(٢) سورة المزمل آية ١٥

(٣) سورة الاحقاف آية ٨

(٤) راجع ميخا فصل ٢ آية ٦ هزقيا فصل ٢١ آية ٧ (מטמף)

(٥) سورة الشعراء آية ١٩٥

واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . . . ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين »^(١)

من هذا يستنتج المستشرقون أن الافكار في مدينة مكة كانت على علم بدين اليهود وتعاليمه وأن النبي الجديد قد ظهر بظهر الأنبياء الاسرائيليين كي يثبت صحة رسالته ويؤيد دعوته التي يعلم قريش لها نظيراً في اليهودية ويعجب المستشرقون من أنه لم يأت في هذا الدور أقل ذكر للمسيح أو لتعاليم الانجيل وأن أول إشارة في القرآن للسيد المسيح لم تكن إلا في السنة العاشرة بعد مبعث النبي محمد^(٢)

وقد يستنتج العالم (Lesynsky) من هذا انه كان هناك بون شاسع بين قلوب رجال عرب الحجاز في الجاهلية وبين مبادئ النصرانية وتعاليمها بينما كانت السور القرآنية في الدور الأول لا تخلو واحدة من الإشارة الى ما في التوراة والتلميح الى مواضعها وذكر شيء من تاريخ بني إسرائيل^(٣)

مع أن من المؤكد الثابت أن أفراداً من أحرار النصارى وعبيدهم قد كانوا في مكة ساكنين ومختلطين بأهلها ولكن لم يثبت أن أهل مكة قد عرفوا النصرانية وتعاليمها ومبادئها

كان التأثير بتعاليم اليهودية شديداً جداً الى حد أن قبلة الرسول في صلاته كانت الى جهة أورشليم كما هي عند اليهود فكان الرسول اذا صلى صلى بين الركنين البراني والاسود وجعل الكعبة بينه وبين الشام^(٤)

ورواية احتكام رسول الله وبنى قريش الى يهود يثرب تدل على ما كان

(١) الاحقاف ٩ — ٢١

(٢) سورة مريم

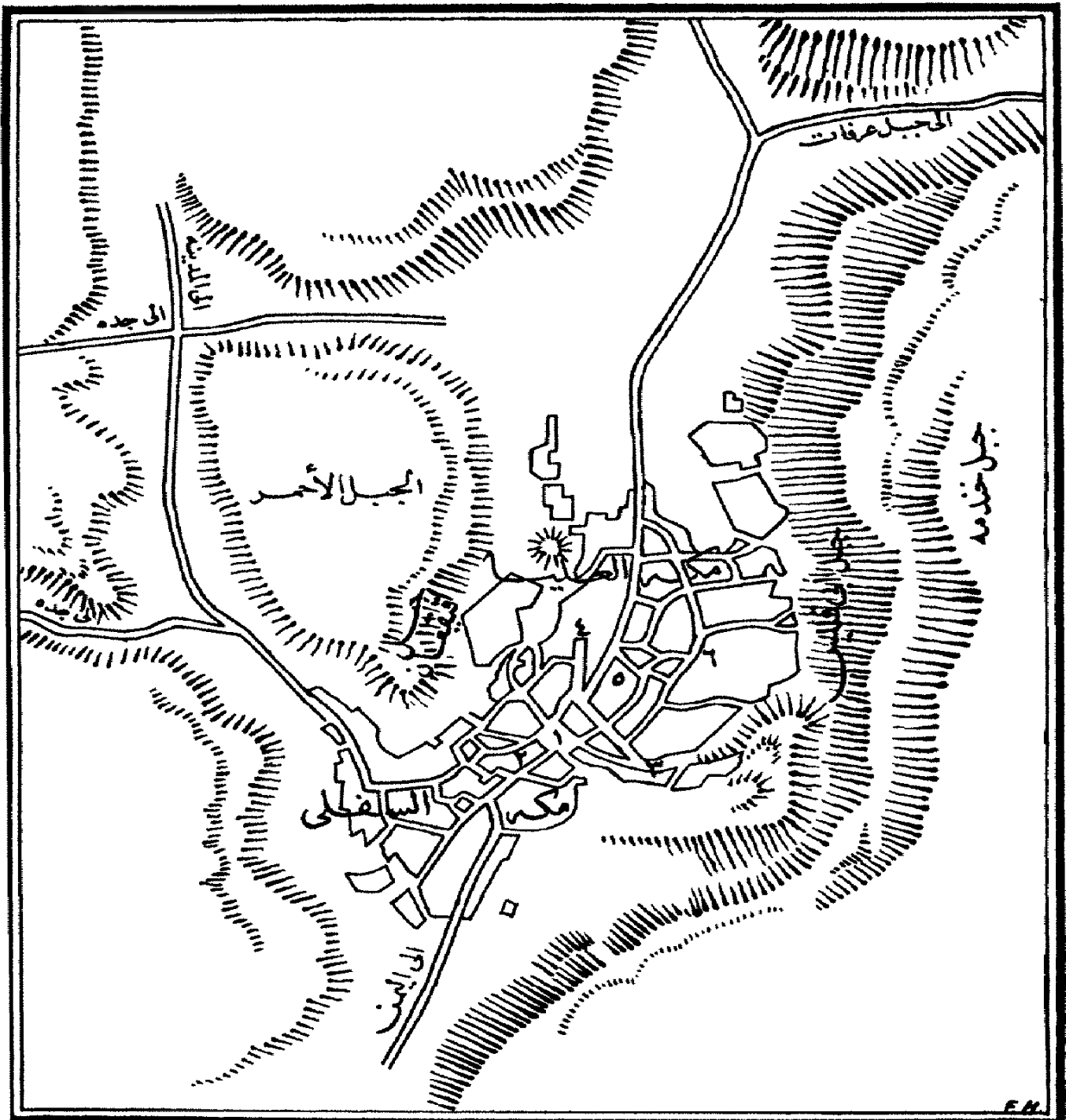
(٣) Die Juden ٤١ ص

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٢١

فَكَرَّ الْمَلِكُ عَنْ هَيْبَةٍ

مقاس الرسم ١ : ١٦,٦٦٦

ملحوظات { (١) الكعبة (٢) بيت الندوة (٣) الصفا .
(٤) المروة (٥) منزل السيدة خديجة (٦) السوق



وقعت كتاب بائع اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدرا الاسلام للدكتور اسرائيل واغفون .

للإهود فى نفوس أهل مكة من المكانة الكبيرة

ومحدثنا ابن هشام أن قریشاً بعثت النضر بن الحارث ومعه عقبة بن أبى معيط الى أخبار الإهود بالمدينة وقالوا لهما سلام عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله فاتهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجا حتى قدما المدينة فسألا أخبار الإهود عن رسول الله ووصفا لهم أمره وأخبراهم ببعض قوله وقال لهما إنكم أهل النوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا فقالت لهما أخبار الإهود سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل وإن لم يفعل فالرجل مُتَقَوِّلٌ فأروا فيه رأيكم سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فانه قد كان لهم حديث عجيب وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وسلوه عن الروح ما هى فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فانه بنى وإن لم يفعل فهو رجل مُتَقَوِّلٌ فاصنعوا فى الرجل ما بدا لكم فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط حتى قدما مكة وأخبرا بنى قریش ما سمعا من أخبار الإهود فجاءوا الى رسول الله فقالوا يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول وقد كانت لهم قصة عجب وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها وأخبرنا عن الروح ما هى فقال لهم رسول الله أخبركم بما سألتهم عنه غداً ولم يستثن فأنصرفوا عنه فمكث رسول الله فيما يذكر من خمس عشرة ليلة لا يحدث الله اليه فى ذلك وحياً ولا يأتیه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشئ مما سألناه عنه وحتى حزن رسول الله ومكث عنه الوحى وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة أصحاب الكف فيها معاتبته إياه على حزنه وعلى انه لم يكل الأمر لمشيئة الله وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتنة والرجل

الطواف والروح (١)

وينفى بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدلائل
نظمئن اليه (٢) والحق أن من العسير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً فى نزول
سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذى القرنين

وعندنا دليل يحملنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون
واقعية وهى أن فى التلمود قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف (٣) ومن هذه
القصة أخذ أحبار اليهود الأسئلة التى وجهوها للرسول بواسطة وفد بنى قريش
وتؤيد هذه القصة ما ذهبنا اليه من انه لم يكن بمكة أحد من اليهود إذ لو
وجد منهم فى مكة ما أوفد بنو قريش وفدهم الى المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن
شأن النبي واذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم

انتهى بعد ذلك دور المناقشات بين الرسول وأهل مكة وبدأ النفور والاضطهاد
ويحدثنا ابن هشام أن أهل مكة تآمروا على من أسلم واتبع الرسول فوثبت كل
قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع
والعطش (٤)

ولما رأى الرسول ما يصيب أصحابه وانه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه
من البلاء أشار عليهم بالنزوح الى بلاد الحبشة وكان لهم ملك لا يظلم عنده أحد
وهى أرض صدق نخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب الرسول الى الحبشة مخافة
الغتنة وفرارا الى الله بدينهم (٥)

ولماذا لم يلتجئ هؤلاء المهاجرون الى إقليم من أقاليم العرب أو الى يهود

(١) ابن هشام جزء ١ ص ٢٧٤

(٢) Die Juden ص ٣٦

(٣) راجع التلمود كتاب בבא בתرا لا

(٤) ابن هشام جزء ١ ص ٢٨٨

(٥) ابن هشام جزء ١ ص ٢٩٢

يثرب ؟ بعض المستشرقين من المتعصبين للنصرانية يقولون بأن النبي إنما أشار على المسلمين بالنزوح الى الحبشة لأنه كان يفضل وجود المسلمين في بيئة مؤمنة من النصارى على وجودها بين المشركين ولـكننا نميل الى الاعتقاد بأن عاملاً سياسياً هو الذى كان السبب فى نزوح المهاجرين الى الحبشة

كانت الأمة الحبشية تطمع منذ أجيال قديمة فى فتح الأقاليم العربية وكان ملوك الحبشة يراقبون أحوال الجزيرة مراقبة شديدة ويتحينون الفرص لتنفيذ مطامهم الاستعمارية ، من أجل ذلك بالغ النجاشى فى الاحتفاء باللاجئين من مكة أملاً فى أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل فى شؤون مكة الداخلية

ولم يلجأ المهاجرون الى قوم من العرب فى الجزيرة مخافة من هيئة قريش وعدوانها وكانت بلاد العرب مرتبطة برجال قريش ارتباطاً تجارياً ودينياً وكان لبعضها محالفات وعقود سياسية مع رجال قريش

ولهذا السبب نفسه منع النبي الهجرة الى يثرب إذ كان بين بطون اليهود وآل قريش علاقات تجارية متينة لم تكن تسمح لليهود أو للأوس والخزرج بالاحتفاء بأعداء قريش وفوق ذلك فقد كانت الحرب دائرة بين بطون يثرب فى ذلك الحين (يوم بعث)

إذاً فقد كانت بلاد الحبشة أقرب إقليم هادئ الى مكة وكانت هى البلاد التى تمكن الهجرة اليها مع امن المهاجرين على حياتهم وأموالهم وبعد هجرة المسلمين الى الحبشة أخذ الرسول يعرض نفسه على العرب فى المواسم ويدعوهم الى الله ويخبرهم انه نبي مرسل

وقد رحل الى الطائف وعرض نفسه على بطونها فلم يقبلوا منه وخذلوه وأنكروه فقال له أحدهم هو يمرطن ثياب الكعبة ان كان الله أرسلك وقال الآخر أما وجد الله أحداً يرسله غيرك وقال الثالث والله لا أكلمك أبداً لئن كنت

رسولا من الله كما تقول لأنك أعظم خطراً من أن أرد عليك بالكلام ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لى أن أكلمك ثم أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يرمونه بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه الى حائط فلما اطمأن روعه قال اللهم اليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى الى من تكلنى الى عبد يتهجمنى أم الى عدو ملكته أرى (١)

وهذه القصة المؤثرة تدل على الشدة التى كان يعانىها الرسول أثناء عرضه دعوته على بطون الطائف ثم تظهر مقدرته الفائقة التى لا توجد الا عند كبار الأخيار من رجال التاريخ البشرى حين لم يكن يبالى بعدوان البطون عليه ولا بقوارص السكك التى كان السفهاء يوجهونها اليه بل مضى فى سبيله يدعو العرب الى الله بكل ما أمكنه من حيلة ووسيلة ولكن نجاحه كان بطيئاً جداً فى ذلك الحين لان تعاليمه كانت تقوم على ترك عبادة الأصنام وهدم العقيدة الراسخة فى نفوس العرب « وعلى أن تسلخ هبل واللات والعزى من أعناقها » (٢) وكان ذلك فوق ما تهضمه عقولها وتحتمله نفوسها ثم رجع الرسول الى مكة

وبقى النبي يعانى الشدائد والصعاب فى سبيل نشر دعوته وأعداؤه يزدادون فى اساءتهم اليه حتى التقى بأفراد من عرب يثرب فوجدت دعوته لديهم آذاناً مصغية وقلوباً واعية فبينما الرسول فى العقبة اذلقى رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً فقال لهم من أتم قالوا نفر من الخزرج قال من والى اليهود قالوا نعم قال أفلا تجلسون أكلكم قالوا بلى فجلسوا معه فدعاهم الى الله عز وجل وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن وكان مما صنع الله لهم به فى الاسلام أن يهودا كانوا معهم فى بلادهم وكانوا أهل كتاب وعلم وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٢٦

قد غزوه ببلادهم فكانوا اذا كان بينهم شىء قال لهم اليهود إن نبياً مبعوث الآن قد أظلم زمانه فنتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وادم فلما كلم رسول الله أولئك النفر ودعاهم الى الله قال بعضهم لبعض يا قوم تعلموا والله انه للنبي الذى وعدكم به اليهود فلا تسبقنكم اليه فأجابوه فيما دعاهم اليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الاسلام وقالوا له انا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم وعسى أن يجمعهم الله بك فسنقدم عليهم فندعوهم الى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك اليه من هذا الدين ثم انصرفوا عن الرسول راجعين الى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا (١)

. ويتضح من هذا أنه كان هناك بون شاسع بين عقلية القبائل القاطنة بالطائف وغيرها من سائر القبائل التى عرض عليها الرسول دعوته وبين عقلية هذا النفر من رجال يثرب اذ كانت الأولى عقليتها جامدة جافة ليس فيها أى استعداد للتصور الروحي وكانت الثانية عقليتها مرنة قابلة للتطور مستعدة للترقى فلم تكذب تسمع دعوة الرسول حتى قبلتها واعتقدتها ووجدت دعوة الرسول فى هذه النفوس أرضاً خصبة صالحة لنمو الدين الجديد فيها وازدهاره ولا شك أن هذا أثر من آثار التعاليم اليهودية ونتيجة من نتائج الاختلاط الشديد بيهود يثرب

وهكذا بعد تلك الشدائد والرزايا التى نزلت بالنبي بسبب عرضه دينه على العرب فى تمسكهم الشديد بالقديم وهجومهم على كل من يتعرض لدين آبائهم وجد أمائه بطوناً يثربية دخلت فى دينه بلا مقاومة وأخذ أفرادها ينظرون اليه نظر التعظيم والتقديس لما ألقى عليهم الرسول ومن هنا يمكن أن يقال إن اليهود كانوا من أهم الاسباب التى ساعدت على ظهور الاسلام وان يكن ذاك بطريقة غير مباشرة

وهناك ملاحظة أخذناها من هذه القصة — قصة النفر من الخزرج — ولم نجد من تنبه اليها من المؤرخين وهي ان ما رسخ في نفوس اليهود من اعتقاد مجيء مسيح ينقذهم من البؤس والشقاء كان له الأثر الكبير في انتشار الاسلام كما كان سبباً في ظهور النصرانية في فلسطين عند طائفة خاصة من اليهود وكما كان سبباً لظهور عدة أشخاص من اليهود في القرون القديمة والوسطى بظهور الانبياء والمرسلين حيث عرضوا على اخوانهم تعاليم دينية جديدة وادعوا لانفسهم دعوة المسيح المنتظر

وقد ملأت هذه القصة صحفاً كثيرة من صحف الأدب الاسرائيلي القديم والحديث وكثيراً ما كانت سبباً في نزول بلايا ورزايا كثيرة باليهود في أدوار مختلفة ولا تزال هذه العقيدة الى اليوم راسخة في نفوس الطبقات المتدينة من اليهود واذا قام شخص وادعى أنه المسيح المنتظر الذي يحنون اليه منذ أزمان طويلة أنكروا ادعاءه وسفهوا قوله ورفضوا الاذعان لما يدعوه اليه . وكأن الأمة الاسرائيلية كانت ترمى لهذه الفكرة الى غاية معنوية لا يريدون تحقيقها بوجه من الوجوه

ولكنها لعبت دورها بين العوامل التي أدت الى انتشار الاسلام اذ كان العرب يسمعون من اليهود أثناء أوقات الشدائد والازمات أن المسيح المنتظر سيأتي ليتغلب على اعداء الشعب المختار فلما عرض النبي رسالته على أفراد من الخزرج تنبهوا الى أقوال اليهود فاقبلوا يعتنقون الاسلام ويؤمنون بدعوة الرسول وهكذا أدت تلك المحادثة بين الرسول وبين النفر من الخزرج الى هذه النتيجة العظيمة ذات الاثر البعيد في التاريخ البشرى

لكن هناك عوامل أخرى ذات أهمية كبيرة وهي تلك المقاصد السياسية التي كانت ترمى اليها بطون العرب بارتباطها بروابط العروة الوثقى مع النبي

والذى ينعم النظر فى تاريخ بطون يثرب يرى أن الطوائف الضعيفة فى المدينة كانت تعمل سرا على ايجاد محالفات مع قبائل عربية قريبة وبعيدة فمن المحتمل اذن أن تكون الاوس والخزرج قد حالفت بطون بنى غسان لمحاربة اليهود فى عصر أبى جبيلة كذلك يحتمل أن تكون تلك البطون قد عرضت المحالفة على قريش ولكن لم يصل شىء عنها اليينا أو أن قريشاً قد استنكرتها لمصلحتها التجارية

ونحن نعلم أن بطون الاوس قد أرسلت قبل يوم بعث وفد الى مكة وكانت فى ذلك الحين عاجزة عن محاربة بطون الخزرج وكان رائد وفد الاوس يرمى الى تحريض قريش على الخزرج ولكن قريشاً رفضت الدخول فى أمور كان يشتم منها رائحة الدماء

ويحدثنا ابن هشام عن هذا الوفد « ان أبا الحيسرانس بن رافع قدم مكة ومعه فتية من بنى عبد الاشهل فيهم اياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج وقد سمع بهم رسول الله فأتاهم فجلس اليهم فقال لهم هل لكم فى خير مما جئتم له فقالوا له وما ذاك قال أنا رسول الله بعثنى الى العباد أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب فقال اياس بن معاذ وهو غلام حدث هذا والله خير مما جئتم له فلطمه أبو الحيسر اياس بن معاذ على وجهه وقال دعنا منك فلعمري لقد جئنا لغير هذا فصمت اياس ثم انصرفوا الى المدينة وكانت وقعة بعث بين الاوس والخزرج ^(١)

وهذه القصة ذات شأن عظيم فى فهم تاريخ بطون يثرب وانى لأميل الى الاعتقاد بأنه لو لم تكن لها صلة بالرسول لاهملها ابن هشام كما أهمل مؤرخو العرب القدماء ذكر محالفات أخرى مع قريش جاءت الاوس أو الخزرج لتعرضها عليها

أما بعد يوم بعثت ققذ ظهر عند بطون الخزرج المغلوبة على أمرها أن تقتفى أثر الاوس فى أيام عجزها وكانت بطون الخزرج تحن الى الشأر من الاوس واليهود . ما لانهم قد انخنوا فيهم إئخانا وبالغوا فى قتلهم فلما ذهب النفر من الخزرج الى مكة لتأدية فروض الحج وكان قلبهم يفيض أسى وحزنا فلم يكدر يعرض الرسول دعوته عليهم حتى قبلوا منه وآمنوا بدعوته وبايعوه لانهم أرادوا أن يكون لهم منه مسيح ينقذهم مما يعانون من بؤس وشقاء

وفى العام المقبل فى موسم الحج حدثت بيعة العقبة المشهورة ببيعة النساء (١) وفى الموسم الثالث تمت البيعة الكبرى بالعقبة وقد اشترك فيها اثنا عشر نقيباً من نقباء الأس والخزرج وأخبارها مطولة فى سيرة ابن هشام (٢)

وأما الغرض الذى كان يرمى اليه الرسول فكان غرضاً دينياً قبل كل شىء ثم الى إيجاد قوة لمحاربة قريش التى تسيء اليه والى كل مؤمن بينما كانت الغاية التى يرمى اليها بنو الخزرج سياسية قبل كل شىء وهى إيجاد قوة لمحاربة عدوهم الذى بالغ فى قتلهم وإذلالهم وهو بطون اليهود فى يثرب

وقد قال الزعيم الخزرجى ابو الهيثم للرسول « ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا فتبسم الرسول وقال بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم (٣)

واذا سلمنا بصحة هذا الحديث فاننا نقرر أن الغاية التى كان بنو الخزرج يرمون اليها من مشروعات بيعة العقبة الكبرى ظاهرة جليلة اذ هى مقاتلة يهود يثرب وهدم كياناتهم

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٨ — ٤٢

أما النبي فقد وعدهم ما وعد لكسب ثقتهم التامة وأما الغرض الذي كان يسمو اليه في الواقع فقد كان غير غرضهم تماماً إذ لم يكن بعد قد نشأ بينه وبين اليهود شيء من العدااء ولم يكن يضرهم لهم أقل شر بل كان يرمى الى توحيد بطون يثرب جميعاً وجعلهم أمة واحدة ليتمكن من أن يحارب بهم اعداءه . . .

وكذلك يحتمل أنه وعد النفر من الخزرج الذين التقى بهم الرسول في البيعة الأولى بأن يقاتل أعداءهم من الاوس واليهود جميعاً ولكن في بيعة النساء قد اشترك بعض النقباء من الاوس ومع أنه لم يشترك أحد من زعماء اليهود في البيعة الكبرى فان النبي كان يعتقد رغم هذا ان سيدخل اليهود في ذمته حين يظهر في يثرب

والذي مهد السبيل وهياً القلوب للبيعة الكبرى هو مصعب بن عمير الذي ذهب مع النقباء من بطون يثرب بعد بيعة النساء وقرأ مع الانصار القرآن وألف بين قلوبهم وكان الاوس والخزرج يكره بعضهم بعضاً فكروه بعضهم أن يؤثروا البعض الآخر (١)

ولكن مصعب بن عمير استطاع أن يحالف بين النقباء الاثني عشر في يثرب وأن يأتي بهم من ألفين متضامنين في غاية واحدة الى البيعة الكبرى وهنا يعترضنا سؤال وهو لماذا لم يشترك من اليهود في هذه البيعة أحد ألم يكن مصعب بن عمير يسعى لادخالهم في الحلف أو أن اليهود لم يلبوا دعوته أو أنه خشي من دخول اليهود في هذه البيعة أن تضعف عزيمة زعماء الخزرج ؟ . . . هذه أسئلة يجب ألا تغيب عن بالنا في أثناء بحثنا في تاريخ البيعة الكبرى بالعقبة

وهنا يعنّ لنا سؤال وهو كيف كان موقف قريش واليهود ازاء اتجاه الرسول

الى بطون يثرب العربية التي انتهت بالبيعة الكبرى بالعقبة ؟

لقد رجعنا الى ما كتبه العرب عن حركات قريش أثناء البيعات في مواسم الحج من ناحية بطون الاوس والخزرج فوجدناهم اقتصروا على بسط أعمال زعماء قريش بعد البيعة الكبرى وفي أثناء العمل لها فهل يمكننا أن نصدق أن قريشاً وقفت موقف الحياد في تلك السنوات الثلاث التي استمرت فيها المحادثات والمفاوضات بين انصار الرسول وبين بطون يثرب ونحن نعلم أن زعماء قريش قد أعلنوا عداوتهم للديانة الجديدة منذ نشأت ولم يألوا جهداً في قتلها وهي في المهد ولم يتركوا وسيلة لا يقاد الفتنة ضد المسلمين الا لجأوا اليها حتى لقد أرسلوا الوفود الى الحبشة يستعينون بها على اخراج المؤمنين من ديارهم ، أيمن أن نسلم بأن قريشاً أغضت أو تفاضت عن تلك الحوادث الهامة التي كانت تجري في مكة في حين كان القوم يؤدون شعائرهم الدينية وكانت تلك الحركات العدائية مصوبة الى العقائد القديمة من ناحية عنصر عربي له قوة ونفوذ في شمال الحجاز بأجمعه ؟

ازاء هذا لا يمكننا أن نسلم بذلك الحيات المظنون بل نرجح أن قريشاً بذلت كل ما كان في وسعها من القوة والنفوذ لتحبط مشروعات الرسول ولترجع زعماء الاوس والخزرج الى موقفهم الاول ولكنها خابت في هذا المسعى لأن بطون يثرب لم تستمع لهم اذ كانت تأثرت بنفوذ النبي ورأت أن مصالحها السياسية والاقتصادية تقضى بالانضمام اليه

وانه ليعيننا أكثر من هذا أن نعرف موقف يهود يثرب ازاء هذه البيعة الكبرى بالعقبة فان المراجع العربية لم تشر الى حركاتهم ونياتهم ازاء هذه البيعة الكبرى كأن الدعوة الاسلامية لم تصل اليهم وكأنهم لم يقفوا على شيء من أعمال البطون اليثربية العربية

ونحن نرجح أن اليهود لم يغفلوا عن تلك الحركة لأنها متصلة بمصالحهم

السياسية والتجارية والاجتماعية خصوصا اذا لاحظنا اتجاه الدعوة الاسلامية صوب المدينة وميل زعماء الخزرج الى الاتصال بالرسول ونحن نعلم ما كان بينهم وبين اليهود من الحقد مما جعل زعماء بني النضير وقرظة يرافيون حركاتهم جميعا ثم نعلم أن الاسلام لم ينشر خفية في يثرب وكيف وقد كان مصعب بن عمير يدعو الناس الى الله ورسوله على مرأى من جميع البطون وكان يتنقل من بطن الى بطن ومن حى الى حى مدة طويلة ثم إننا نعلم أن عددا من تجار اليهود كان يشترك في مواسم الحج فمن البعيد اذن أن يجهل اليهود تلك الشؤون كما صورتهم كتب الاخبار

نحن لا نشك في أن اليهود لم يكونوا متحدين في ميولهم السياسية والاجتماعية فقد كانوا في شقاق دائم ولم تظهر بينهم الألفة الا في أيام البؤس والشدة كما اتحد بنو النضير وبنو قرظة في يوم بعث ضد عدوهم من بني الخزرج وفي يوم بعث كان بنو قينقاع يحاربون الى جانب صفوف الخزرج ضد أبناء جلدتهم وقد بالغ اليهود في قتلهم وعداوة بني قينقاع لبقية اليهود قديمة فيما يرى بعض المستشرقين اذ أكرههم اليهود على الخروج من مزارعهم والاكتفاء بحبيهم الذي كان يحميهم بنو الخزرج

وأمامنا عنصر ثالث من اليهود هو البطون المتهودة الصغيرة وكان من بطون العرب في يثرب أسرتهمودت ولم تخرج من ديارها بل بقيت محتفظة بمنازلها بين قومه ونحن لا نجد لهذه البطون المتهودة ذكراً في النضال العنيف ضد الاسلام

فهل نظن انهم لم يتدخلوا قط في شؤون الحرب أو انهم قاتلوا في صفوف أبناء دينهم ولم يذكرهم المؤرخون لقتلهم وقد يصح أن نفترض انهم مع تهودهم آثروا النزعة القومية على العاطفة الدينية فلم يشتركوا في حرب اليهود للمسلمين ؟

كانت العلاقات بين اليهود وبين قريش في غاية الصفاء لذلك نفرض انه اذا لم يفلح زعماء قريش في استمالة زعماء الخزرج فانهم لا بد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على احباط أعمال المسلمين في المدينة وكذلك كان فان الذى يتأمل ما جرى بين كعب بن الأشرف زعيم بنى النضير وبين الرسول يرى أن ذلك الرجل كان يقاوم الحركة الاسلامية منذ وصات أرض يثرب والعداء الذى استفحل أمره بين الجهتين يؤيد ما نقول

ولكن اذا اقترضنا اتفاق بعض زعماء اليهود مع قريش للتحرش بالاسلام فاندنا نعلم من جهة أخرى أن مخيريق اليهودى أحد زعماء وأغنياء بنى النضير كان من أوفى الناس للرسول وأكثرهم ميلا اليه منذ هجرته وكذلك أظهر عبد الله بن سلام ولاء للنبي قبل أن تنشأ الأزمة بين النبی وبين يهود المدينة كل ذلك يؤيد ما نميل اليه من ان النزعات السياسية عند زعماء البطون كانت مختلفة كل الاختلاف وهذا كله فرض قد يساعدنا في البحث عن العلاقات بين المسلمين وبين قريش واليهود

ويقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار وقد ذكر المؤرخون وأصحاب السير أن أهل يثرب لما بايعوا النبي البيعة الكبرى علمت قريش في تلك الليلة بتلك البيعة مع أنها كانت سرية لم يعلم بها وثنيو أهل يثرب فمن الذى أفضى الى قريش بذلك الأمر ؟

لا جائز أن يكون أحد المبايعين أخبرهم بما كان . والثنيون لا علم لهم بشئ . والذى نفترضه أحد أمرين :

الأول أن تكون قريش تنبئت الى الأمر وراقبت محمداً من حيث لا يدري حتى اذا اجتمع بأنصاره بلغهم عينهم بما كان ففطنوا للأمر
الثانى أن أحد اليهود من تجار الموسم رأى جيرانه في الدار على حال غير

• معتادة ففطن للاهتر وأسر الى قريش بما رأى
وقد ذكر المؤرخون أن قريشاً عاتبت أهل يثرب على ما كان من أمر بيعة
الرسول فسكت من كان منهم • مؤمناً ودخل في بيعة النبي وتكلم الوثنيون فأنكروا
أن يكون حصل منهم شيء • تكرهه قريش وحلفوا لهم على ذلك فرجع القرشيون
حين سمعوا ذلك . . . اه

وهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة فانها من الحوادث ذات النتائج
الخطيرة في التاريخ الاسلامي

واني أعتقد انه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك
السنة لأن قيمتها لم تكن أقل شأنًا من قيمة هجرة الرسول الى يثرب . . . ومع
ذلك فلم يفتهم شيء كثير فان الهجرة حصلت في السنة التالية لها عن قرب

الباب السادس

هجرة الرسول الى يثرب

واملاؤه بنى قينقاع والنضير عنهما

آمال اليهود التي كانوا يفتظرون تحقيقها بعد قدوم النبي الى يثرب — معاهدة الرسول مع يهود يثرب — نص الصحيفة — آراء المستشرقين فيها — قيمة هذه الصحيفة — نظام الحكم في منطقة يثرب قبل الهجرة — رغبة الرسول في التأليف بين قلوب المسلمين واليهود — كيف نشأ سوء التفاهم بين الرسول واليهود — بعض أسباب جوهرية لسوء التفاهم أهلها المؤرخون — المجادلة الدينية سبب مباشر للخصومة — اشتداد الازمة السياسية بين الرسول واليهود — فشل الطائفة المعتدلة من اليهود في سعيها لارجاع المياه الى مجاريها — دور المنافقين في هذا النزاع — يوم بدر — لماذا لم يشترك اليهود في القتال يوم بدر ؟ — دعوة الرسول بنى قينقاع الى الاسلام — الاسباب التي أدت الى نشوء العداوة بين المسلمين وبنى قينقاع قبل غيرهم من اليهود — رد بنى قينقاع على دعوة الرسول — جلاؤهم عن المدينة — آيات قرآنية نزلت في جلاء بنى قينقاع عن المدينة — يوم أحد — امتناع بنى النضير عن الاشتراك في هذه الموقعة — مخيريق اليهودي صديق الرسول — قتل كعب بن الاشرف — نقطة خلاف بين ابن هشام واليعقوبي — أمر الرسول باجلاء بنى النضير عن المدينة — أصرار بنى النضير على المقاومة بتشجيع زعيم المنافقين — نزول بنى النضير على حكم الرسول — مفانم بنى النضير — شعر العرب في يوم بنى النضير

لا شك أن اليهود كانوا يرصدون الاحوال التي طرأت على يثرب بعد البيعة الكبرى بالعقبة ويراقبون تطور الحوادث باهتمام شديد ولم يكن يدور في خلدِهم ان سيحدث ما يوجه الحوادث في تيار مضاد لمصالحهم ومضاد لكيانهم ولو أنهم تبينوا في مظاهر الخرج ما يدل على شيء من ذلك لأعلنوا الحرب جهراً منضمين الى حلفائهم من البطون النثرية أو منضمين مع قريش

ويلوح لى أن اليهود كانوا ينظرون بفارغ الصبر قدوم النبي الى يثرب وكانوا يعتقدون أنه فى مصلحتهم فقد نادى فيهم أول رجل منهم رأى النبي فى يثرب بأعلى صوته « هذا جدكم قد جاء » (١)

كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذى ينشر دعوة دينية تتفق فى جوهرها مع عقائدهم وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ليس من بنى إسرائيل يدعو الى توحيد الآلهة والى تعاليم التوراة والى تمجيد ابراهيم وموسى إنما هو ظاهرة غريبة فى التاريخ البشرى

ولا شك انهم سمعوا من مصعب بن عمير بعض الآيات القرآنية وانه كان لهذه الآيات وقع حسن فى نفوسهم جعلهم يؤمنون فى هجرة النبي الى يثرب آمالاً كباراً

ويظهر أنهم كانوا يعتقدون أوعلى الأقل يرجون أن يتمكنوا من التأثير فيه حتى يدخل فى دينهم حيث يتعاونون على محو عبادة الاصنام وقد يحتمل انهم كانوا يرجون أيضاً أن يتمكن الرسول من التأليف بين البطون اليثربية وجعلها كتلة واحدة تتعاون على النهوض بهذه المدينة التى كانت فى حاجة شديدة الى الهدوء والسكينة وكانوا يعتقدون انه لو تم ذلك لأصبحت يثرب أعظم مركز للتجارة فى الجزيرة ولتتمكن أهلها من أن يضربوا تجارة مكة وغيرها

من المحتمل أن آمالا من هذا النوع كانت تيجش فى صدورهم أثناء الفترة التى كانت بين البيعة الكبرى وبين الهجرة

كذلك كان الرسول يرغب فى التقرب الى اليهود نظراً لمساكنتهم الرفيعة من الوجهة الأدبية والمالية والسياسية فى البلاد الحجازية وكان يعتقد أن اليهود يدخلون فى ذمته وملته بلا مقاومة بل يرحبون بدعوته التى تشبه فى جوهرها تعاليم

الآباء الأقدمين من بنى إسرائيل حيث يكون منهم ومن البطون العربية أمة واحدة تبذل النفس والنفيس في سبيل تنفيذ مشروعاته

وقد عقد الرسول بعد قدومه الى يثرب معاهدة ودية مع اليهود وقد جاء ابن هشام بنص هذه المعاهدة ويقول :

قال ابن إسحاق وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم عليهم وشرط واشترط لهم بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عافيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الحرث على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركوا مفرجاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل

ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه وأن المؤمنين المتقين على من بنى أو

ابتغى وسيعه ظلم أو اثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم

ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدانهم وأن المؤمنين بعضهم موالى لبعض دون الناس

وانه من تبعنا من اليهود فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم وان سلم المؤمنين واحدة لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غاربية غزت معنا تعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً عن بيته فانه قود به الى أن يرضى ولي المقتول وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم الاقيام عليه وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه وأنه من نصر أو آواه فان عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وانكم مها اختلقتم فيه من شيء فان مرده الى الله عز وجل والى محمد صلى الله عليه وسلم

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم والمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم الا من ظلم وأثم فانه لا يوتغ (أى لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته وأن لليهود بنى النجار مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى الحرث مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى جشم مثل ما لليهود بنى عوف وأن لليهود بنى

(١) وفي القرآن آية صريحة نزلت على الرسول في هذا الشطر من الزمن تقر هذا النص من المعاهدة « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم » (سورة البقرة آية ٢٥٦)

الاوس مثل ما ليهود بنى عوف إلا من ظلم وأنتم فانه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم وأن لبنى الشطنة مثل ما ليهود بنى عوف وأن البردون الاثم وأن موالى ثعلبة كأنفسهم وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بأذن محمد صلى الله عليه وسلم وانه لا ينحجز على ثار جرح وانه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا

وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وان بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم وانه لم يأنم امرؤ بحليفة وأن النصر للمظلوم وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين

وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وانه لا تجار حرمة إلا بأذن أهلها وانه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساد فانه مردد الى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الله على أنقى ما فى هذه الصحيفة وأبرد وانه لا تجار قریش ولا من تضرها وان بينهم النصر على من دهم يثرب واذا دعوا الى صالح يصالحونه ويلبسونه فانهم يصالحونه ويلبسونه وانهم اذا دعوا الى مثل ذلك فانه لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم وأن يهود الأوس مواليتهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة اه

وقبل أن نتعرض لهذه المعاهدة نقول : ان الصحائف التى عقدها الرسول مع المشركين واليهود تنقسم الى قسمين : القسم الأول يشتمل على عقود وعهود وقعت حقا وشهد بوقوعها القرآن الكريم وأثبتها المؤرخون القدماء . أما القسم الثانى فيشتمل على عهود غير صحيحة نحلّت بعد وفاة الرسول لاغراض شتى اذ كان الخلفاء يقرون كل ما وعد به النبي ولو لم يكن مكنوبا

ولا يشك المؤرخون فى أن النبي عقد مع اليهود عقوداً مختلفة بعد حضوره

الى المدينة اذ كان يخاف على حياته وحياة انصاره ويود عقد المحالفات مع اليهود الذين لعبوا دوراً هاماً في يثرب . وفي القرآن تأنيب لليهود على نقض العهد وهو اصدق دليل على أنه عقدت معهم معاهدات ^(١)

وقد ذكر ابن هشام عقوداً مختلفة عقدت بين اليهود وبين الرسول عدا هذه المعاهدة ^(٢) وقال أبو عبيد في كتاب الأموال : انما كتب رسول الله هذا الكتاب قبل أن تفرض الجزية واذ كان الاسلام ضعيفا وكان لليهود اذ ذاك نصيب من المغنم اذا قاتلوا مع المسلمين كما شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة معهم في الحروب . . . ^(٣)

وكانت هناك صحيفة خاصة بينه وبين بني قريظة وبين الرسول وبين يهود خيبر وتيما، ووادي القرى وذكر ابن سعد عقودا عقدها الرسول مع يهود بني غديّة ^(٤) وذكر صاحب فتوح البلدان صحيفة عقدت بين الرسول وبين أسرة شريفة من اليهود ^(٥)

وكل هذا يؤيد وجود معاهدات بين النبي وبين اليهود ولكن من العسير أن نأنس الى جميعها كما يفعل المستشرقون فان ابن اسحق لم يتحدثنا عن معاهدات مخطوطة وصلت اليه وانما يكتفى بالرواية عن السابقين وهذا لا يقدر في قيمة هذه الصحيفة التاريخية التي نرجو أن تزيل بعض الغموض من حياة القبائل العربية واليهودية بالمدينة

(١) وكان بينهم وبين رسول الله عهد الى مدة فنقضوا ذلك العهد (جزء ٣ ص ١٥٨ على الهامش من كتاب جامع البيان للطبري والرواية عن ابن عباس) ثم في الجزء الاول من جامع البيان ص ١٤٢ — ١٤٣ روايات كثيرة في تفسير الآية الذين ينقضون عهد الله

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤ وجزء ٣ ص ١٩٧

(٣) الروض الانف جزء ٢ ص ١٧ طبع مصر

(٤) ابن سعد : بمئة رسول الله الرسل بكتبه ص ١٨ طبع Wellhausen برلين

(٥) فتوح البلدان ص ٦٠

أما الغرض الذي كان يرمى اليه الرسول من وراء هذه الصحيفة وما اليها من العهود التي عقدها مع بطون يثرب فهو هدم النظام القديم وإيجاد نظام جديد يمكن به أن تتوحد العناصر اليثربية وأن تعود يثرب بعد فرقة أحيائها مدينة واحدة فقد كانت يثرب منقسمة الى عدة دوائر وكانت كل دائرة تابعة لبطن من البطون وكانت الدائرة تنقسم الى قسمين يشتمل القسم الاول منها على الاراضي الزراعية بمنازلها وسكانها وكان من الزراع والفلاحين فئة تضم هيئة البطن من أصحاب الأرض الزراعية تعمل في الفلاحة ولها ما للبطون التي تملك الآطام من الامتيازات والحقوق وفئة كانت تجمع العمال المستأجرين من البطون اليثربية وهم أحرار ولهم حقوق الاحرار ثم وجدت طبقة العبيد التي لم يكن لها من الحقوق الا القليل

أما القسم الثاني من الدائرة فكان يملك الآطام وكان البطن يملك أطما أو آطاما وهذه الآطام كانت ملكا خاصاً بالاسر العريقة وكان رئيس الاسرة صاحب السلطان في الاطم كما كان يعتبر زعيما من زعماء البطون

وكانت أهمية الآطام عظيمة في يثرب فكان يفرع اليها أفراد البطن عند هجوم العدو ويأوى اليها النساء والاطفال والعجزة حين يذهب الرجال لمقاتلة الاعداء وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثمار ذلك أنها كانت معرضة في أما كنها المكشوفة للنهب والسلب وكان الاطم مرجعاً لكنز الاموال والسلاح وكان للقوافل المثقلة بالبضائع أن تنزل بالقرب منه كما كانت تقام على أبوابه الاسواق

وكانت الآطام تشتمل — كما نظن — على المعابد وبيوت المدراس^(١) اذ كانت فاخرة الاثاث كثيرة الادوات مملوءة بالاسفار فكان يجتمع فيها الزعماء

للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة حين يهمون بأبرام العقود والاتفاقات

ثم وجدت في يثرب بطون لم تكن تملك الآطام وكانت تقيم في الأحياء حيث تحمي البطون الكبيرة مواليتها من إغارات البطون الأخرى وكانت الأحياء متضامة يلاصق بعضها بعضاً وكانت مع هذا مختلفة في نظمها الداخلية حيث يهتم كل حي بشؤونه

واذ كانت الآطام في نظامها قد وجدت في شمال الحجاز أكثر مما وجدت في أي بقعة أخرى من بلاد العرب فأننا نرجح أنها كانت متأثرة بالنظم الاجتماعية اليهودية التي كان يجري عليها اليهود في وطنهم الأصلي فلسطين

وهنا يعرض هذا السؤال : مم اشتقت كلمة اطم ؟ فان معناها بالعربية غيره بالعبرية. يقول صاحب الروض الانف الاطم اسم مأخوذ من ائطم اذا ارتفع وعلا يقال ائطم على فلان اذا غضب وانتفخ والاطامات نيران معروفة في الجبال لا تحمد فيها تأخذ بعنان السماء فهي أبداً باقية لأنها في معادن الكبريت^(١)

أما العبرية فللفعل اطم (אָטַם) معان شتى يقال اطم عينيه أغمضهما وأطم اذنيه سدّهما والاطم في الجدران والحيطان هي النوافذ المغلقة من الخارج والمفتوحة من الداخل ويستعمل الاطم في السور أي الحائط الضخم وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن اسم اطم لأنه كان في إمكانهم أن يغلقوا أبوابه وان كانت له نوافذ ثقيل من الخارج وتفتح من الداخل

كانت الوظائف المختلفة من دينية وسياسية تنتقل بالوراثة من الساف الى الخلف في الأسرة الواحدة التي تنفرد بعمل من الأعمال وكانت البطون الكبيرة أصحاب الحكم في يثرب وكان كل بطن يجتهد في أن ينفرد بالنفوذ

وكان كل بطن من البطون الكبيرة يضم اليه طائفة من البطون الصغيرة تعد من مواليه وكان يشرف على مزارعها ومتاجرها وحقوقها واذا وقعت اغارة عدها واقعة على رعاياه فطالب بالثأر أو دفع الدية وكان أفراد البطن الصغير يلجأون الى آطام البطن الكبير اذا هاجمهم العدو وكان البطن الصغير بتابعيته للبطن الكبير مضطراً الى الاشتراك في الحروب التي توجه الى البطن الكبير والا رمى بالتمرد والعصيان ومع هذا حافظت البطون الصغيرة على شخصيتها ولم تسمح للبطون الكبيرة بأن تتحد من حريتها وكان من نتيجة ذلك أن تجنبت البطون الكبيرة كل ما يهيج البطون الصغيرة

وكان هناك شبه توازن في نظام الحكم بين البطون الكبيرة فكانت تنور بقية البطون اذا هم بطن كبير بالاستئثار بالنفوذ

هذا كل ما يمكن أن نفرضه واقعاً عن نظام الحكم في يثرب ولا نعلم بالضبط كيف وصلت الى هذا النظام فليس لدينا من المصادر ما نعرف به كيف انتقلت البطون اليتيمية من البداوة الى النظام المعقد الذي وصلت اليه قبيل ظهور الاسلام ولكنه من المرجح أن يكون هذا النظام نتيجة لحروب وحوادث وقعت في قرون مختلفة قبل هجرة الرسول الى يثرب فان النظم الاجتماعية لا توجد الا متأثرة بالحوادث راقية كانت تلك النظم أو منحطة

كان تضافر تلك البطون وتوافقها نافعاً لها كل النفع في درء الأخطار الخارجية التي كانت تهددها من سائر البلاد العربية وكان يمكن أن يصل هذا التوافق الى شيء من النظام الجمهوري الراقى ولو استطاعت يثرب أن تتحد اتحاداً يقوم على أساس التعاون والتوازن الصحيح لاستطاعت هذه القوة أن تبسط سلطانها على قبائل الجزيرة العربية

وما يذكروا في المراجع العربية من أن بطون يثرب أرادت أن تملك عليها

عبد الله بن أبي وأنها نظمت له الخرز لتتوجه فذلك مشكوك فيه لأسباب منها أن رهط عبد الله كان قد غلب على أمره يوم بعث فليس من المعقول أن يرتاح الأوس واليهود بعد فوزهم المبين إلى تملك زعيم من الخزرج وكانوا لهم من الأعداء.

على أن عبد الله بن أبي لم يكن صالحاً للقبض على ناصية الحكم في يثرب وإنما كان ضعيفاً دساساً . تردداً لا يستقر على حال . . .

يضاف إلى ذلك أن إيجاد عرش في يثرب كان يقضى على استئصال البطون وما كان يمكن أن تصل يثرب إلى شيء من هذا بغير الحرب وسبك الدماء . كل هذا كان الرسول يعلمه وكان يعلم أنه يتنافر مع أغراضه العظيمة فلم ير بداً من هدم نظام يثرب فقد كانت في حاجة شديدة إلى قوم . وتلفين لم تفرق بينهم الأهواء المتعاكسة يستطيع أن يسوسهم بإرادته ونفوذه وهؤلاء كانت سياسة الآطام والأحياء . رزقهم شرمزق فكان من الحزم أن يهدم نظام الطوائف وأن يؤسس نظاماً جديداً وكان سبيله إلى غايته أن يعقد العقود بينه وبين البطون اليتيمية وأن ينشر تعاليم القرآن من ناحية أخرى

كل ذلك جرى عليه الرسول قبل أن ياجأ إلى السيف لتهرب أعدائه في السياسة والدين كما سيجيء بيانه . . .

وأمل للقصة التي نقلها عن ابن اسحاق في السيرة مغرى نعرف به شيئاً في سياسة الرسول بعد هجرته إلى يثرب : قال ابن اسحاق ومرشاس ابن قيس وكان شيخاً قد عسى ، عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم نفر من أصحاب رسول الله . من الأوس والخرزج في مجلس قد جمعهم . . . فغاظه ما رأى من ألقمهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال قد اجتمع ملائكة بني قيلة بهذه البلاد لا والله ما لنا

معهم اذا اجتمع ملاثم بها من قرار فأمر فتى شابا من يهود كان معه فقال اعمد اليهم فأجلس معهم ثم اذ كر يوم بعث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتناولون فيه من الأشعار وكان يوم بعث يوماً اقتتلت فيه الأوس والخزرج وكان على الأوس يومئذ حضير بن سمالك الاشهلي وابو أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمر بن النعمان البياضى فقتلا جميعاً . . . ففعل فنكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى توائب رجلان من الحيين على الركب أوس بن قبيطى أحد بنى حارثة بن الحرث من الأوس وجبار ابن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ثم قال أحدهما لصاحبه ان شئتم رددناها الآن جذعة وغضب الفريقان جميعاً وقتلوا قد فعلنا . وعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة السلاح السلاح فخرجوا اليها فبلغ ذلك رسول الله فخرج اليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد ان هداكم الله للإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر وألف به بين قلوبكم فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله سامعين مطيعين

وقد استغرق ما جاء فى هذه المعاهدة عن اليهود أكثر من نصفها مما يدل على أن الرسول كان يحسب حساباً غير قليل لنفوذ اليهود وسلاحهم

ولكن الذى يتأمل فى هذه الصحيفة يعجب اذ لا يجد للبطون الكبيرة من الأوس والخزرج وبني قينقاع ذكراً فيها فكيف أمكن أن يعقد النبي هوداً مع البطون الصغيرة من اليهود دون الكبيرة منها

وللمستشرقين فى هذه الظاهرة رأيان : الأول : ان هذه المعاهدة كانت خاصة بالعرب والبطون اليهودية الصغيرة لأنها كانت منتشرة بين البطون العربية ومتداخلة فيها ومعدودة من مواليها حتى لا يمكن أن يعتبر لها وجود خاص

والثانى : ان هذه المعاهدة كانت تشتمل على البطون اليهودية الكبيرة أيضاً من بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع ولكن مؤرخى العرب المتأخرين حذفوا أسماءها من المعاهدة فيما بعد لأنه ساء لهم أن يذكر فيها أن الرسول تعاقد مع بطون خالفته وقاومته مقاومة عنيفة انتهت بسفك الدماء (١)

ويؤيد رأى الأخير أن المؤرخين لم يذكروا البطون الصغيرة التى تعاقدت مع الرسول ضمن من اعتدوا على الأنصار وحادبوهم ومن المحتمل أن ما جاء فى الصحيفة عن يهود الأوس كان شاملاً لبنى النضير أيضاً

وعلى كل حال فليس من شك فى أن النبى قد عقد العقود والعهود مع العرب واليهود بعد حضوره الى يثرب فعلى ذلك أميل الى الاعتقاد بأنها كانت أكثر من معاهدة واحدة لاننا نجد الرسول يغضب من بنى النضير لأنهم لم يشتركوا فى يوم أحد فى حين انه لم يطلب من بنى قريظة أن يشتركوا معه فى حرب المشركين

ومن جهة أخرى فان عقد معاهدات كثيرة مع بطون كثيرة قد يكون فى مصلحة الرسول أكثر من عقد معاهدة واحدة تضم جميع البطون لان المعاهدات الكثيرة تقسم قوة البطون وتضعفها من الوجهة السياسية والحربية بينما يكون الاعتداء على بطن من البطون المجتمعة فى معاهدة واحدة كأنه اعتداء على جميعها

وقد نرى الرسول يحارب بطناً من البطون دون أن تتحرك البطون الأخرى وكأن الحرب التى تقع بين المسلمين والبطان من بطون اليهود لم تمس صحيفتها ولم تنقض شروطها . ولنا عودة لهذا الموضوع فيما بعد

وقد عقد الرسول معاهدة كانت خاصة ببني قريظة (١)

أما روح هذه المعاهدات فملائم كل الملاءمة للحالة التي كان عليها المسلمون واليهود في الفترة لأولى بعد مجيء النبي الى يثرب . . .

لقد قلنا ان الرسول قد أراد أن يؤلف بين القلوب فأحل المسلمين أكل ما أحل لليهود أكله وأحل لهم التزوج مع بناتهم « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم اذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان » (٢)

كذلك أمر المسلمين أن يصوموا بعض أيام كان اليهود يصومونها (٣) ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربة الديانة الوثنية فحسب ولم يكاف اليهود أن يعترفوا برسالته لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفُسهم حتى يحطم الأصنام ويقضى على العقائد الوثنية لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة لأن العقلية اليهودية لا تأين أمام شيء يزحزحها عن دينها ونأبي أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني اسرائيل بل يعتقدون عقيدة راسخة أنه بعد ان ختمت صحف التوراة وكتب العهد القديم قد انقضى عهد بعث الرسل وظهور الانبياء سواء كانوا من بني اسرائيل أو من غيرهم (٤) كما يعتقد المسلمون انه لن يبعث نبي بعد الرسول محمد

هذه العقيدة يجب أن لا تغرب عن الاذهان لأنها أساس كل ما حدث بين

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) سورة المائدة آية ٤٨

(٣) البخاري جزء ١ ص ٤٩٨

(٤) راجع التلمود كتاب סנהדרין י"א בבא בר רב

اليهود وبين الرسول من خلاف وزاع ولولا وجودها لما حدث شيء من الخلاف
أو لكان في الامكان أن يتلافى ما قد ينشأ من ذلك

ونلاحظ هنا على معظم المستشرقين أنهم أهملوا هذه النقطة الجوهرية في
بحثهم عن أسباب الخلاف بين الرسول واليهود مع أنه مما لا شك فيه أنه اذا
أهملت هذه النقطة فلا سبيل مطلقاً للبحث في هذا الموضوع

وبدأ النزاع بين النبي واليهود بالمناقشة الدينية المتبادلة بين الطرفين (١)
فكان احبار اليهود يوجهون الاسئلة الى رسول الله ويصلون فيها الى حد التعنت
فكان القرآن ينزل فيما يسألون عنه (٢)

وكانوا يطالبون النبي بأن يأتي اليهم بالمعجزات « الذين قالوا ان الله عهدنا
ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان . . . تأكله النار . . . » (٣)

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء . . . » (٤)

ثم انتقلت المناقشة الى مخاصمة كلامية فجعل التنزيل يلوم اليهود ويعنفهم
« ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا
الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون .. » (٥) ولما جاءهم كتاب من عند
الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم
ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين (سورة البقرة آية ٨٩)

ثم ظهرت العداوة فأخذ النبي يطعن في يهود يثرب وأخذ اليهود يرمون
الانصار بقوارص الكلم فنزلت الآيات الكثيرة مشيرة الى فتور الاحوال بين
الرسول واليهود « أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٣٥ — ١٨٢

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ١٠٦

(٣) سورة آل عمران آية ١٨٣

(٤) سورة النساء آية ١٥٣

(٥) سورة البقرة آية ١٠١

ناصرين (١) »

« الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وأن فريقاً منهم ليكتمون

الحق وهم يعلمون (٢) »

وهكذا اشتد النفور حتى كانت المخاصمات تقع بين اليهود والانصار في الشوارع يتراءون فيها بالالفاظ القبيحة وَيَنْتَضِلُونَ كما نعلم من حديث للبخارى انه استب رجلان رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال المسلم والذي اصطفى محمداً على العالمين فقال اليهودي والذي اصطفى موسى على العالمين فرفع المسلم يده عند ذلك فلطم وجه اليهودي فذهب اليهودي الى النبي بما كان من أمره وأمر المسلم فدعا النبي المسلم فسأله عن ذلك فأخبره فقال النبي لا تخبروني على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فأصعقهم فأكون أول من يفيق فاذا موسى باطن جانب العرش فلا أدري كان فيمن صعق قبلي أو كان ممن استثنى الله... (٣)

ونزل كثير من الآيات في ذلك الحين متضمنة الطعن المر في اليهود منها « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا (٤) » ومنها : بثما اشتروا به أنفسهم بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين (سورة البقرة آية ٩٠) « ومنها مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بثس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين »

وأخذ القرآن يذكر بما ارتكبه أجدادهم من الجرائم كعصيانهم لموسى وقتلهم أنبياء بني إسرائيل وسجودهم للعجل... (٥)

(١) سورة البقرة آية ١٤٦

(٢) سورة آل عمران آية ٢٢

(٣) البخارى جزء ٢ ص ٨٩ وص ٣٥٤ و ٣٥٩

(٤) سورة المائدة آية ٨٥

(٥) راجع سورة البقرة آية ٩٠ — ٩١

ولكن كل هذا لم يضعف من عزيمة اليهود فاستمروا على مناقشة الرسول ومخاصمة الانصار الى أن حذر التنزيل المسلمين من المجادلة الدينية « قد نزل عليكم ان اذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره (١) »

فنجم من ذلك أزمة سياسية جعلت تشتد يوماً بعد يوم وشعر النبي بأنه لم يوفق الى النجاح في تحقيق الفكرة التي كان يرمى اليها من التأليف بين قلوب اليهود والعرب وایجاد أمة مؤلفة من جميع عناصر يثرب

وهكذا لم يمض ثمانية عشر شهراً من قدوم النبي الى يثرب حتى تلبد الجو بالغيوم الكثيفة وجعل كل فريق يتواصى بالحنذر والنفور من الفريق الآخر وكذلك طرأت تغييرات دينية وظهر ما يسمى في عرف القرآن الكريم بالنسخ « ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير (٢) » وتحولت قبلة الصلاة الى الكعبة بعد أن كانت متجهة نحو بيت المقدس « قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام . . . وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون . . . » (٣) ويحدثنا ابن هشام عن هذا الموضوع فيقول :

ولما صرفت القبلة من الشام الى الكعبة وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهراً (قبيل يوم بدر) من مقدم رسول الله الى المدينة أتى رفاعه بن قيس وقردم بن عمرو وكعب بن الاشرف من اليهود الى النبي فقالوا يا محمد ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها وأنت تزعم انك على ملة ابراهيم ودينه ارجع الى قبلتك

(١) سورة النساء آية ١٤٠

(٢) سورة البقرة ١٠٦

(٣) سورة البقرة آية ١٣٦ حديث البخارى جزء ١ ص ١٨

التي كنت عليها تتبعك ونصدقك . . . (٤)

وكان هناك طائفة معتدلة من اليهود أرادت أن تصلح بين الفريقين المتخاصمين وتزيل ما بينهما من أسباب النزاع ولكنها أخفقت في مسعاها لأن السيل كان قد بلغ الزبي فأوجست هذه الطائفة خيفة من استمرار العداء وتوقعت شراً مستطيراً مما يضره كل من الفريقين للآخر من الحقد والبغضاء وكان مخيريق اليهودي رفيق الرسول من أنصار هذه الطائفة وقد حار في كيفية معالجة المشكلة التي صارت أعقد من ذنب الضب

وكان هناك عنصر آخر لعب دوراً خطيراً في الحوادث اليتربية وهو العنصر الذي يضم أعداء اليهود السياسيين من بني الخزرج فقد كانوا أشد الأقسام خصومة لليهود ولم يكونوا مخلصين للرسول فكان همهم منحصراً في أن يصبوا الزيت ليزيدوا في إشعال نار العداوة بين الرسول وبين اليهود وقد عرف بعضهم عند المسلمين باسم المنافقين وكان عبدالله بن أبي من زعماء هؤلاء المنافقين وقد استمرت هذه الأزمة الشديدة الى يوم واقعة بدر الكبرى

ويظهر ان اليهود كانوا يرجون أن يضجر الرسول من عنادهم وحملهم على قبول دين جديد فيكتفى بنشر دعوته الدينية بين القبائل العربية ونستنتج ذلك من أنهم لم يكونوا يرغبون في محاربة الأنصار مع أن يوم بدر كانت فرصة مناسبة لمن كان في مركزهم

وكان النبي لا يريد أن يحارب اليهود في تلك الظروف التي لم تكن ملائمة بل كان يؤجل الدخول معهم في حرب حتى تتحسن الأحوال وتكون أكثر ملاءمة وفي الواقع كان اليهود يفضلون السلام والسكينة على المشاحنات والمخاصمات لأن السلام والسكينة أساس النجاح في الأعمال التجارية والصناعية

وعميل بعض المستشرقين الى رأى القائل بأن الحالة كادت ترجع بين اليهود والمسلمين الى ما كانت عليه قبل اشتداد النفور والناصومة من الألفة والولاء. لولا أن حدثت موقعة بدر الكبرى في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً مبيناً على قريش^(١) فقد أصبح المسلمون بعد هذا الظفر العظيم أصحاب الأمر والنهي في مدينة يثرب وشرعوا يأخذون بالنار من الافراد والجماعات التي أساءت اليهم وطعننت في أعراضهم ولم يشترك اليهود مع الرسول في محاربة قريش يوم بدر لأنه لم يكن مشتركاً عليهم في المعاهدة أن يشتركوا في الغزوات الخارجية عن دائرة المنطقة اليثربية وكذلك كان عدد الأوس والخزرج في هذه المعركة قليلاً وكان أغلب المحاربين من المهاجرين .

كان النبي في أول الأمر يرجو أن يدخل اليهود في الاسلام بطريق المجادلة والمناقشة فلما لم تنجح معهم هذه الطريقة صبر عليهم الى يوم بدر حيث صارت الظروف ملائمة للدخول معهم في حرب دامية

لذلك ظهرت عند الأنصار بعد موقعة بدر الكبرى سياسة جديدة جليلة حيث صمموا على أحد أمرين ان يندمج اليهود مع العرب بواسطة اعتناق الاسلام أو يحاربوهم حتى يجلوهم

وكان المهاجرون ينتظرون بفارغ الصبر نتيجة مقاومة اليهود في يثرب لأن حالتهم كانت سيئة جداً إذ لم يكن لهم مال ولا مزارع ولا منازل بل كانوا يسكنون مع الأنصار من الأوس والخزرج وكان أعداء اليهود من الخزرج يشجعون النبي على الشروع في محاربة

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ١٩٦ — ٢٣١

(٢) تاريخ الخميس جزء ١ ص ٤٠٦ و ص ٤٠٨ في قتل المعصاء بنت مروان وقتل

أبي علفك

اليهود كما وضعنا ذلك من قبل

ويحدثنا ابن هشام عن هذه الأحوال فيقول انه بعد مرور بضعة أيام من موقعة بدر جاء الرسول الى حى بنى قينقاع وجمعهم بسوقهم ثم قال « يا معشر اليهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا فانكم قد عرقتم أنى نبي مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله اليكم ^(١) »

وانى لأعتقد أن لأصرار النبي على دخول اليهود فى الاسلام سبباً آخر فوق الأسباب التى ذكرتها وهو أن دخول أهل الكتاب فى الاسلام يزيد فى هيئته ويكبر شأنه فى نظر قريش ذات المجد التليد وتدخل الجماعات الكثيرة فى الاسلام بدون مقاومة

أما الأسباب التى حملت النبي على البدء بمحاربة بنى قينقاع من بين جميع اليهود فترجع الى أن بنى قينقاع كانوا يسكنون داخل المدينة فى حى واحد من أحياء الاقوام العربية فأراد النبي أن يطهر المدينة وأحياء الأنصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه

وغنى عن البيان أن بنى قينقاع كانوا أغنى طوائف اليهود فى مدينة يثرب فكانت بيوتهم تحتوى على الأموال الطائلة والحلى الكثيرة من الفضة والذهب وكان العرب يطمعون فى كل ذلك

ثم كان عدد بنى قينقاع غير كثير فكان من السهل مقاتلتهم واستئصال شأقتهم .

وفوق كل هذا فقد كانت هناك عداوة بين بنى قينقاع وبقية اليهود سببها أن بنى قينقاع كانوا قد اشتهر كوا مع بنى الخزرج فى يوم بعاث وقد أثنى بنو النضير وبنو قريظة فى بنى قينقاع ومزقوهم كل ممزق مع أنهم دفعوا الفدية عن كل من

وقع في أيديهم من اليهود وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم بعث حتى وقعت الحرب بين الانصار وبين بنى قينقاع فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الانصار

وقد أشار القرآن الى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله « واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم ... » (١)

فيظهر من هذه الآية مقدار ما كان بين بنى قينقاع وبين بنى النضير وقرينة من العداوة والبغضاء ويظهر أيضاً أن بنى قينقاع كانوا أصحاب مزارع فأخرجهم أبناء جلدتهم منها وأرغموهم على الالتجاء الى حى واحد في داخل المدينة على أن هناك عاملاً آخر ذا قيمة كبيرة في حمل الرسول على البدء بمحاربة بنى قينقاع وهو أن بنى قينقاع كانوا من موالى بنى الخزرج وكانت أغلب بطون بنى الخزرج قد دخلت في الاسلام ما عدا بطن عبد الله بن أبي فقد كان يظهر الايمان ويبطن الكفر وكانت بطون بنى الخزرج توافق على مشروعات النبي بدون معارضة

ننتقل من هذا الى ما رد به بنو قينقاع على أقوال النبي إذ أجابوا بكل جرأة وتبجح « يا محمد لا يغرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصببت منهم فرصة إنا والله لئن حاربناك لتعلمن انا نحن القوم » (٢)

ويظهر من هذا الرد أن بنى قينقاع كانت تعتمد على معاضدة حلفائهم من الخزرج في نزاعهم مع الرسول قبل كل شيء إذ لا يتصور أن بطناً صغيراً كبطن

(١) سورة البقرة آية ٧٣

(٢) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

بنى قينقاع يجرؤ على اعلان الحرب ضد أغلب بطون يثرب ولكن بنى الخزرج خذلهم ولم يتحركوا لنجدتهم رغم انهم من مواليتهم
 « وحاصرهم رسول الله حتى نزلوا على حكمه فقام اليه عبد الله بن أبي فقال يا محمد أحسن الى موالى وكانوا حلفاء الخزرج فأبطأ عليه الرسول فقال يا محمد أحسن الى موالى فأعرض عنه النبي فأدخل عبد الله يده فى جيب درع الرسول فقال له الرسول أرسلنى وغضب حتى رأوا لوجهه ظللا قال ويحك أرسلنى قال لا والله لا أرسلاك حتى تحسن فى موالى أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوا من الاحمر والاسود تحصدهم فى غداة واحدة انى والله امرؤ اخشى الدوائر فقال الرسول هم لك . . . وكان محاصراً إياهم خمس عشرة ليلة . . . ثم أجلاهم الرسول من المدينة فخرجوا منها الى اذرعات بالشام » (١)

ويحدثنا الواقدي أن الرسول أمر بجمع أموالهم وأسلحتهم ثم قسمها على الأنصار بعد أن حجز منها الخمس وأبقى لبنى قينقاع ذراريتهم ونساءهم وأمهاتهم ثلاثة أيام ولما رحل بنو قينقاع من يثرب نزلوا بوادى القرى حيث احتفى بهم اخوانهم من اليهود فأقاموا عندهم على الرحب والسعة الى أن رحلوا نهائياً الى الشام (٢)
 وفى ابن هشام قصة يذكرها على أنها تتضمن السبب فى اعلان المسلمين الحرب على بنى قينقاع الا أن المستشرقين لاحظوا أنه لم يروها عن ابن اسحق الذى هو المرجع الثقة لابن هشام ثم هى ليست موجودة فى كتاب الواقدي لذلك هم يعتبرونها قصة متأخرة وغير واقعية « وفخواها ان امرأة من العرب جلست الى صائغ بسوق بنى قينقاع فجعل بعض اليهود يريدونها على كشف وجهها وهى تأبى فعمد الصائغ الى طرف ثوبها فعقده الى طوقها فلما انكشفت سواتها ضحكوا منها فوق الشر بين الأنصار وبين بنى قينقاع » (٣)

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

(٢) الواقدي ص ٩٤

(٣) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٣٤

وقد أشار القرآن الى حادثة اجلاء بنى قينقاع عن المدينة بقوله : « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية في فتنتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لاولى الأبصار^(١) »

يظهر ان أمر اجلاء بنى قينقاع كان له وقع عظيم فى نفوس اليهود فقد امتنعوا بعد ذلك عن المجادلة الدينية وكفوا عن رمى المسلمين بقوارص السكلم ودخلت هيبة المسلمين فى قلوب البطون العربية التى لم تسكن دخلت فى الاسلام فانفسح المجال أمام النبي لنشر دعوته

ثم جاء يوم أحد فى شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة « فخرجت قريش بحدها وجدها وأحاييشها ومن تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة وخرجوا معهم بالظمن التماس الحفيظة وأن لا يفروا فخرج أبو سفيان بن حرب وهو قائد الناس ومعه عمرو بن العاص وغيره من الزعماء فأقبلوا حتى نزلوا بحنين جبل ببطن السبخة من قناة على شفير الوادى مقابل المدينة » ثم خرج اليهم رسول الله فى ألف من أصحابه حتى اذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخزل عنه عبد الله بن أبى بلث الناس وقال علام نقتل أنفسنا أيها الناس فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل الريب والنفاق^(٢)

ولم يشترك أحد من اليهود فى واقعة أحد الا رجل اسمه مخيريق « كان رجلاً غنياً كثير النخيل وكان يعرف رسول الله بصفته وما يجد فى علمه وغلب عليه إلف دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أحد^(٣) »

(١) آل عمران آية ١٣

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٤٦ — ٤١٢

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ١١٠

وقد كانت موقعة أحد في يوم سبت فأبى اليهود أن يحملوا السلاح في ذلك اليوم ورفضوا الاشتراك مع الرسول في غزوة أحد معتمدين على أن المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي تسمح لهم بالتخلف عن المعارك التي تقع بعيداً عن المدينة كما ذكرنا سابقاً

ولكن مخيريق اليهودي قال : لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته وقال ان أصبت فمالي لحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا الى رسول الله فقاتل معه حتى قتل فقال الرسول مخيريق خير اليهود (١)

وفي ابن هشام زعم منسوب لغير ابن اسحاق ملخصه ان الأنصار سألوا النبي يوم أحد : ألا تستعين بحلفائنا من اليهود فقال لا حاجة لنا فيهم (٢)

غير ان المستشرقين يرتابون في صحة هذا الحديث كما هوشأنهم في كل ما يرويه ابن هشام عن غير ابن اسحق ويستدلون على عدم صحته بأن الرسول غضب من اليهود بسبب عدم اشتراكهم معه في يوم أحد واتخذ من امتناعهم عن ذلك سبباً لإعلانه الحرب على بنى النضير كما سنبين ذلك فيما بعد

ويؤيد صدق نظر المستشرقين في هذا الزعم ما نقلناه عن ابن هشام نفسه من ثناء الرسول على مخيريق وقوله مخيريق خير اليهود فانه لم يقل ذلك الا لان مخيريقاً لم يتخلف عن تلك الموقعة كما تخلف بقية اليهود

ولصاحب الطبقات الكبرى رواية تفيد أن النبي بعد ان خرج بجيوش المسلمين الى أحد حتى اذا كان بالشيخين وهما أطمان التفت فنظر الى كتيبة خشناء لها زجل فقال : ما هذه قالوا : حلفاء بن أبي من جهود فقال رسول الله : لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك . . . (٣)

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٧٣

(٣) ابن سعد ج ٢ ص ٢٧

أما نحن فنغض الطرف عن هذه الرواية لأنها تناقض ما قصصنا عن ابن اسحق . على أن الذي يعمن نظره في الحالة التي كان عليها اليهود بعد اجلاء بني قينقاع عن المدينة يتضح له جلياً أنه لم يبق لعبد الله بن أبي موال من اليهود اذ كان بنو النضير وقريظة من ألد أعدائه كما مر ذلك في عدة مواضع
ودخلت الأشهر الحرم بعد يوم أحد فلم يحصل فيها نضال ولا قتال ثم أتجه النبي لمحاربة بني النضير

وهنا نقطة خلاف هامة بين ابن هشام وبين اليعقوبي فابن هشام يقول ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد خروج بني قينقاع من المدينة أى في ربيع الاول من السنة الثالثة للهجرة ويدكر ابن هشام أنه بعد قتل ابن الأشرف قال الرسول « من ظفرت به من اليهود فاقتلوه فوثب محيصة بن مسعود على بن سنيينة رجل من تجار اليهود كان يلابسهم ويبايعهم فقتله وكان حريصة بن مسعود اذ ذاك لم يسلم وكان أسن من محيصة فلما قتله جعل حريصة يضربه ويقول : أى عدو الله أفقتلته أما والله لرب شحم في بطنك من ماله ! قال محيصة : والله لقد أمرنى بقتله من لو أمرنى بقتلك لضربت عنقك . . . (٢)

ولكن اليعقوبي يقول إن النبي أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد^(١) أى قبيل محاصرته لبني النضير أى في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة وكان قتله بمثابة اعلان الحرب عايتهم لأنه كان زعيماً من زعمائهم وكان قاتله أبو نائلة أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة ومعه أربعة من الانصار^(٣)

ويقول العالم Leszynsky إن العلاقات بين الرسول وبين بني النضير كانت على ما يرام قبل يوم أحد فلو ان قتل كعب بن الأشرف حدث بعد اجلاء بني

(١) ابن هشام جزء ٢ ص ٣٤٤

(٢) تاريخ اليعقوبي جزء ٢ ص ٤٩ وتاريخ الخميس جزء ١ ص ٤٦٤

(٣) ابن هشام ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٤٤

قينقاع أى قبل واقعة أحد لما أمكن أن تكون هناك علاقات حسنة بين الرسول وبين بنى النضير لأن كعب بن الاشرف كان من زعماء بنى النضير وفوق ذلك فقد كان الرسول محتاجا الى معاضدتهم قبل يوم أحد^(١)

وانى أميل الى رأى اليعقوبى وأعتبره تصحيحاً هاما لحادثة تاريخية كبيرة اذ لا يتصور أن الرسول يحرض انصاره على قتل أفراد من اليهود قبل يوم أحد وليس هناك أى دليل على أن العداوة وجدت بين الانصار وبين بنى النضير الا قبيل محاصرة الانصار لآطام بنى النضير حيث كان اليهود يوجسون خيفة من أعمال الارهاب التى كان الانصار يقومون بها

ويرتاب المستشرقون فيما يقوله ابن هشام من أن سبب قتل كعب انما هو قصيدة الرثاء التى رثى بها قتلى بدر الكبرى وارتباب المستشرقين فى هذا مترتب على ارتبابهم فيما قاله ابن هشام عن وقت قتل كعب ويقولون انه أعوزه المبرر لاغتيال كعب فى الوقت الذى ذكره فزعم أنه قصيدة الرثاء لقنلى بدر وانه التشبيب بنساء المسلمين^(٢)

ويحدثنا البخارى أن كعب بن الاشرف قد آذى الله ورسوله فأتاه محمد بن مسامة فقال أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين قال أترهنونى نساءكم قالوا كيف ترهنك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنونى أبناءكم قالوا كيف ترهنك أبناءنا فيُسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكن ترهنك السلاح قال سيفان يعنى السلاح فوعده أن يأتيه فقتلوه ثم أتوا النبي فأخبروه^(٣)

ولصاحب الاغانى قصيدة ينسبها للربيع بن أبى الحقيق تلامم الحالة التى كان عليها بنو النضير بعد قتل كعب ابن الاشرف

(١) Die Juden ٦٨ ص

(٢) ابن هشام ج ٢ ص ٣٤٣

(٣) البخارى ج ٢ ص ١١٥

ألا يا لقومي لا أرى النجم طالماً ولا الشمس الا حاجبي يميني
معذبتى خلف القفا بعمودها فجل نكيري أن أقول ذريني
أمين على أسرارهن وقد أرى أكون على الاسرار غير أمين
فللموت خير من حراج موطأ مع الطعن لا يأتي المحل حين^(١)
أنذر النبي بنى النضير بأن يخرجوا من آطامهم وينزحوا من يثرب في مدة
عشرة أيام ولكنهم رفضوا الاذعان لهذا الانذار



وكان انذار الرسول لهم بذلك بمثابة انتقام منهم على عدم اشتراكهم في
واقعة أحد وكأن الرسول كان يعتبرها كغزوة موجهة الى مدينة يثرب فكان على
بنى النضير أن يخرجوا للقاء العدو كما تقضى شروط المعاهدة
ثم يظهر ان بنى قريظة كانوا مرتبطين بمعهد آخر غير عهد بنى النضير وأن
الشروط كانت غير شروط عهد بنى النضير اذ لم يطالبهم الرسول بالاشتراك في
واقعة أحد كما طالب بنى النضير ولم يثار منهم بحجة مخالفة الشروط كما ثار من
بنى النضير

وليس معقولاً أن يغضب الرسول من بنى النضير لعدم خروجهم الى الوغى
في واقعة أحد دون أن تكون هناك معاهدة تلزم الفريقين بتنفيذها
ويعتقد العالم Leszynsky ان ماجاء في الحديث من ان يوم السبت يوم عبوس
وغدر يرجع الى اعتذار بنى النضير الممقوت وان جميع الأحاديث التي من هذا
النوع ترجع الى حادثة تاريخية ومن هنا نفهم ان غضب الرسول من اعتذار بنى
النضير قد ترك في نفسه أثراً سيئاً من نحو يوم السبت بوجه عام^(٢)
ويقول الاستاذ النجار ان هذا القول ليس حديثاً وانما هو من كلام الناس

(١) الاغانى ج ٢١ ص ٦٢

(٢) Die Juden ص ٧٠ ...

على أن بعضاً يتشائم به كما أن بعض الناس يتيمن به ويتشائم بغيره وليس ذلك من الحديث في شيء . . . اهـ

ويذكر مؤرخو العرب سبباً آخر لاعلان الحرب على بني النضير غير امتناع اليهود عن الاشتراك في يوم أحد واعتذارهم بيوم السبت فيقول ابن هشام : ان الرسول خرج الى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر اللذين قتلها عمرو بن أمية الغمري للجوار الذي كان رسول الله عقده لهما فلما أتاها رسول الله يستعينهم قالوا نعم يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا انكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — والرسول الى جنب جدار من بيوتهم قاعداً — فن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه فانتدب لذلك عمرو بن جحاش أحدهم فقال أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة فأتى رسول الله من السماء الخبر بما أراد القوم فقام وخرج راجعاً الى المدينة فلما استلبث النبي أصحابه قاموا في طلبه حتى انتهوا اليه فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر به فأمر النبي بالتهيؤ لحربهم والسير اليهم . . . (١)

لكن المستشرقين ينكرون صحة هذه الرواية ويستدلون على كذبهم بعدم وجود ذكرها في سورة الحشر التي نزلت بعد اجلاء بني النضير.

على اننا لو سلمنا صحة هذه الرواية فاننا لا نجد لها كافية لاشهار الحرب على جميع بطون بني النضير اذ نعلم من نص المعاهدة الكبيرة بين الرسول واليهود ان كل جرم من جهة فرد أو عدة أفراد يقع عقابه على فاعليه وأهل بيتهم دون أن يمس غيرهم بشيء من الأذى

والذي يظهر لكل ذي عينين أن بني النضير لم يكونوا ينوون الغدر بالنبي

واغتياله على مثل هذه الصورة لانهم كانوا يخشون عاقبة فعلتهم هذه من أنصاره ولو أنهم كانوا ينوون اغتياله غدرًا لما كانت هناك ضرورة لالقاء الصخرة عليه من فوق الحائط بل كان في استطاعتهم أن يفاجئوه وهو يحادثهم اذ لم يكن معه غير قليل من أصحابه

وقد أراد بنو النضير أن يدعنوا لحكم الرسول ويحلوا عن يثرب ولكن « رهطاً من بنى عوف بن الخزرج منهم عبد الله بن أبي وديعة بن مالك وسويد وداعي قد بعثوا الى بنى النضير أن البشوا وتمتعوا فاننا ان نسلمكم ان قتلتم قاتلنا معكم وان أخرجتم خرجنا معكم فتر بصوا ذلك من نصرهم فلم يفعلوا ^(١) » وقد طلب بنو النضير من بنى قريظة أن ينجدوهم فلم يفعلوا وصرح كعب ابن أسد زعيم بنى قريظة انه لا يريد أن ينقض حلفه مع الأ نصار ^(٢)

ويشير القرآن الى غدر عبد الله وقومه يهود بنى النضير بقوله « ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ائنا أخرجتم لنخرجن معهم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الادبار ثم لا ينصرون... ^(٣) »

وكانت أطام بنى النضير حصينة جداً وكان من الحال فتحها في مدة وجيزة « لا يقاتلونكم جميعاً الا في قرى محصنة أو من وراء جدر... ^(٤) » لذلك أمر الرسول بقطع النخيل والتحريق فيها فنادوه ان يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعييب على من يصنعه فما بال قطع النخيل وتحريقها.... ^(٥)

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠

(٢) الواقدي ص ١٦٣

(٣) سورة الحشر آية ١١

(٤) سورة الحشر آية ١٤

(٥) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠ وحديث البخارى جزء ٢ ص ٢٥٢

ويظهر أن قطع النخل وتحريقه كان سبباً في تسرب اليأس الى قلوب اليهود اذ وجدوا أنفسهم بين أمرين اما الاذعان لحكم الرسول واما الخروج من المدينة لمهاجمة المسلمين ومنعهم من حرق النخيل وكانت نمارها من أهم مرافق الحياة فاختاروا الاذعان لحكم الرسول وكان ذلك رأى سلام بن مشكم « فسأل الرسول أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الابل من أموالهم الا الحلقة فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الابل فخرجوا الى خيبر ومنهم من سار الى الشام باذرعات فكان أشرافهم من سار منهم الى خيبر سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع وحبي بن أخطب فلما نزلوها دان لهم أهلها (١)

وقبل أن ينزح بنو النضير من منازلهم هدموا البيوت عن نجاف بابهم فوضعوها على ظهر البعير وانطلقوا بها (٢) وكانت هذه الرواية المبهمة سبباً في أن يقول بعض المستشرقين ان الاخشاب كانت غالية في الاقاليم الصحراوية فأخذها اليهود معهم ليبيعوها ولكننا لا نميل الى تفسير ذلك على هذا المنوال بل أقول ان هدم نجاف البيوت يتعلق بعقيدة تلمودية معروفة وهي أن كل يهودى يتعلق على نجاف داره صحيفة تشتمل على وصية موسى لبني اسرائيل أن يحفظوا بالايمان بالله واحد ولا يبدلوه ولو عذبوا وقتلوا (٣) فاليهود حين ينزحون من منازلهم يأخذونها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود الى يومنا هذا ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يصنعون تلك الصحيفة (٣١١٢٥) في داخل النجاف خوفاً من اتلاف الهواء أو مس الأيدي فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها

ويقول القرآن بصدد اجلاء بني النضير « هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم

(١) جزء ٣ ص ٥١ ابن هشام

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٥٠

(٣) كتاب تثنية فصل ٦ آية ٥

حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الألباب (١)

ويصف ابن هشام خروجهم من أطامهم بقوله « انه حدث أنهم انتقلوا بالنساء والابناء والاموال معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم... » (٢)

ويقول الواقدي إن النساء تحلين بحليهن وتزين أحسن زينة حتى بدت الواحدة منهن غاية في الجمال وكان يبدو عليهن السرور والابتهاج بدرجة أدهشت المسلمين وأما منافقو المدينة فقد نكسوا رؤسهم بعد ذلك حتى قال عبد الله بن أبي أنه قد أصبح يشعر بأنه صار رجلاً أجنبياً في وطنه غريباً عن بلاده بعد اجلاء بني النضير (٣)

وقد غنم الانصار بقية الامتعة التي لم يستطع بنو النضير حملها معهم وكان منها ٥٠ درعاً و ٣٤٠ سيفاً (٤)

وقد كانت هذه المغانم لرسول الله خاصة يضعها حيث يشاء فقسمها على المهاجرين الاولين دون الانصار الا أن سهل بن حنيف وأبا دجاجة ذكرا فأعطاهما الرسول (٥) وينذكر القرآن هذه المغانم « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون » (٦)

ولم يسلم من بني النضير الا رجلان يا مينا بن عمير وأبو سعد بن وهب أسلما على أموالهما فاحرزاها (٧)

(١) سورة الحشر آية ٢

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

(٣) الواقدي ص ١٦٥

(٤) الواقدي ص ١٦٤

(٥) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

(٦) سورة الحشر آية ٨

(٨) ابن هشام جزء ٣ ص ٥١

وقد قيل بمناسبة اجلاء بنى النضير شعر كثير بعضه مدح وبعضه ذم وأهم ما يلفت نظرنا من ذلك الشعر قصيدة قالها عباس بن مرداس يذكر جلاء بنى النضير ويبكيهم

لو ان قطين الدار لم يتحملوا وجدت خلال الدار ملهى وملعبا
فانك عمرى هل رأيت ظعائنا سلكن على ركن الشطا فتيا با
اذا جاء باغى الخير قلن بشاشة له بوجوه كالذنانير مرحبا
فلا تحسبني كنت مولى ابن مشكم سلام ولا مولى حبي بن أخطبا
فقال خوات لعباس بن مرداس أنت الذى رثيت اليهود وقد كان منهم فى
عداوة الله ما كان فقال عباس انهم كانوا أخلائي فى الجاهلة وكانوا قوماً أنزل
بهم فيكروني ومثلى يشكر ما صنع اليه من الجليل ثم أنشد

هجوت صنيع الكاهنين وفيكم لهم نعم كانت من الدهر ترتبا
أولئك أخرى إن بكيت عليهم وقومك لو أدوا من الحق موجبا
من الشكر إن الشكر خير غبة وأوفى فعلا للذى كان أصوبا
فصرت كمن أمسى يقطع رأسه ليبلغ عزا كان فيه مركبا
فبكى بنى هارون واذكر فعالهم وقتلهم للجوع إذ كان مسغبا
أخوات أذر الدمع بالدمع وابكمهم وأعرض عن المكروه منهم ونكبا
فانك لو لاقيتهم فى ديارهم لالفيت عما قد تقول منكبا
سراع الى العليا كرام لدى الوغى يقال لباغى الخير أهلا ومرحبا

البَابُ السَّابِعُ

غزوة بنى قريظة

تحريض زعماء بنى النضير لبني قريش وغطفان على محاربة المسلمين — انحياز زعماء بنى النضير الى بنى قريش الوثنيين — هل تعتبر هذه المحالفة عملاً مخالفاً لاوامر التوراة ؟ — احتجاج القرآن على هذه المحالفة — يوم الاحزاب — مطامع قريش وغطفان واليهود من وراء هذه الغزوة — تحريض حيي بن أخطب لبني قريظة على نقض معاهدتهم مع الرسول — مخالفة سرية بين الرسول وبين غطفان — فشل يوم الاحزاب وأسبابه — حصار الرسول لبني قريظة — نزول بنى قريظة على حكم الرسول — اشفاق الاوس على حلفائهم بنى قريظة — تنفيذ حكم الاعداء في رجال بنى قريظة — نتيجة غزوة بنى قريظة — كثرة شعر العرب في يوم الاحزاب وبني قريظة

لما نزل أشراف بنى النضير في خيبر أخذوا يفكرون في الثأر من الانصار وجعلوا يفكرون في الوسائل التي توصلهم الى آطامهم وتردهم الى مزارعهم في منطقة يثرب فعزم نفر من اليهود فيهم سلام بن ابى الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع أن يحزبوا الاحزاب على المسلمين « نخرجوا حتى قدموا على قريش بمكة فدعواهم الى حرب رسول الله وقالوا انا سنكون معكم حتى نستأصله فقالت لهم قريش يا معشر اليهود انكم اهل الكتاب الاول والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد أفديننا خير أم دينه قالوا بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعواهم اليه من حرب رسول الله فاجتمعوا لذلك واتعدوا له ثم خرج أولئك النفر من اليهود حتى جاءوا غطفان من قيس عيلان فدعواهم الى حرب رسول الله وأخبروهم أنهم سيكونون معهم عليه وأن قريشاً قد

تابعوهم على ذلك فاجتمعوا معهم فيه . . . (١)

ومن ينظر الى حالة بنى النضير التعسة التى صاروا عليها بعد اجلائهم عن بلادسكنوها منذ قرون وكانوا فيها أصحاب السلطان المطلق والثروة الطائلة والمزايا الواسعة لا يوجه اليهم أقل لوم على محاولتهم الرجوع الى أرضهم وبخثهم عن الانصار والحلفاء الذين يعينونهم على تحقيق أملمهم والثأر من خصومهم فأن هذه سجية من السجايا البشرية وطبيعة من الطبائع الانسانية بل وعمل مشروع مقبول لدى جميع الامم

لكن الذى يلامون عليه بحق والذى يؤلم كل مؤمن بآله واحد من اليهود والمسلمين على السواء انما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين بنى قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود اديان قريش على دين صاحب الرسالة الاسلامية

نعم ان ضرورات الحروب أباحت للامم استعمال الحيل والا كاذيب والتوسل بالخدع والاضاليل للتغلب على العدو ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا فى مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الاصنام أفضل من التوحيد الاسلامى ولو أدى بهم الامر الى عدم اجابة مطلبهم لأن بنى اسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملى راية التوحيد فى العالم بين الامم الوثنية باسم الآباء الاقدمين ، والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب ايمانهم بآله واحد فى عصور شتى من الادوار التاريخية كان من واجبههم أن يضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم فى سبيل أن يخذلوا المشركين

هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم الى عبدة الاصنام انما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم ويناقضون تعاليم التوراة التى توصيهم بالنفور من أصحاب الاصنام

والوقوف معهم موقف الخصومة

وقد أشار القرآن الى عمل النفر من اليهود ونحزبهم مع قريش وغطفان على الاسلام بقوله « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ^(١) »

ثم أقبلت جموع قريش في شوال سنة خمس ونزلت بمجتمع الاسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بنى كنانة وأهل تهامة وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذب نَقَمَى الى جانب أحد وخرج رسول الله والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم الى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين فضرب هنالك عسكره الخندق بينه وبين القوم .. ^(٢)

وقد أخذ المسلمون آلات الحفر من مساح وكرازين ومكاتل من بنى قريظة الذين بقوا على الولاء ولم ينقضوا عهدهم فحفروا بها الخندق حول المدينة ^(٣) ويعتقد المستشرقون أن مؤرخي العرب قد بالغوا في اخبار يوم الخندق وأدخلوا فيها الاساطير التي تسد على الباحث سبيل استخلاص الصحيح من الحوادث . وكان للاحزاب في يوم الخندق قوة عظيمة لا تقل عن ١٠٠٠٠ مقاتل وكانوا مسلحين بانحر الاسلحة وكانت لديهم الخيول الكثيرة فان استعدادهم كان كاملا من الوجهة المادية ولكنه كان ناقصاً نقصاً كبيراً من الوجهة المعنوية اذ لم تكن لهم غاية مشتركة تجمع بين قلوبهم وتحملهم على الاخلاص في أعمال الحرب

فقد كان السبب في اشتراك غطفان في هذه الحرب أن اليهود وعدوهم بأن يعطوهم ثمار سنة كاملة من ثمار مزارع وحدائق خيبر ^(٤) اذا تم لهم النصر وكانت

(١) سورة النساء ٥١

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٣) الواقدي ص ١٩٣

(٤) الواقدي ١٩١

قريش تريد من مواصلة القتال أن تثار لقتلى بدر وأحد
وهناك سبب آخر لم يذكره المؤرخون من العرب والافرنج وهو أن قريشاً
رأت أن وجود قوة معادية لاهل مكة في شمال الحجاز ضار بهم ومؤد الى كساد
تجارة مكة فكانهم قد اضطروا الى الحرب اضطاراراً لئتمكنوا من أن يفتحوا
لتجارهم طريق القوافل الى الشام
وقد دخل أبو سفيان ونفر من زعماء قريش بين استار الكعبة حتى التصقت
أكبادهم بها وأقسموا ليواصلن القتال حتى لا يبقى فيهم رمق من الحياة (١)
وأما اليهود فقد كان رائدهم غير الذي كان لحلفائهم من بني قريش وغطفان
كما ذكرنا قبلاً

وقد كان هناك عامل آخر أضعف من قوة هذا الجيش العظيم ونقص من هيئته
ذلك انه لم يكن موحد القيادة فلم يكن الأمر كله فيه بيد أبي سفيان قائد قريش
لذلك سرعان ما ظهر الخلاف في الرأي والعمل بين قواد الجيوش
وبعد أن مضت بضعة أيام غير كثيرة تبادل فيها الفريقان المناوشات
والمبارزات اتضح لزعماء الاحزاب أن الحرب قد لا تنتهى الا اذا انضم بنو
قريظة اليهم فقد كان بقاؤهم على الولاء للمسلمين من جهة وعدم امكان جيوش
الاحزاب أن تتعرض لهم من جهة أخرى مما يزيد في قوة المحصورين الذين
كانوا يأخذون منهم المؤن والسلاح وآلات الحفر وكانت آطامهم بين جيوش
المسلمين والاحزاب بمثابة السور الذي لا يخترق

لذلك أخذ حي بن أخطب صاحب مشروع يوم الخندق يؤثر في أبناء جلدته
من بني قريظة ويحرضهم على نقض المعاهدة التي كانت بين كعب بن أسد
والرسول ويقول له « قد جئتكم بعز الدهر وبيحر طام جئتكم بقريش وسادتها

حتى أنزلتهم بمجتمع الاسيال فلم يفلح في أول الامر لان
الزعيم القرظي أبي أن ينقض صحيفته مع الأنصار وقال يا حي بن أخطب جثني
والله بذل الدهر وبجهام قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق ليس فيه شيء ويحك
فدعني وما أنا عليه فاني لم أر من محمد الا صدقا ووفاء فلم يزل حي بكمب يفتل
له في الذروة والغارب حتى سمح بما طلب وأعطاه عهدا وميثاقا لئن رجعت قریش
وغطفان ولم يصبوا محمدا أن أدخل معك في حصنك حتى يصينني ما أصابك
فتنقض كعب بن أسد عهده وبري مما كان بينه وبين الرسول . . . (١)

وقد أرب هذا العمل المسلمين لانهم علموا ما يحتمل أن ينجم من انضمام
بنی قريظة الى الاعداء واقترب جيوش الاحزاب الى يثرب وقد عظم البلاء
واشتد الخوف حتى ظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق بين بعض المنافقين حتى
قال أحدهم كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه
أن يذهب الى الغائط . . . ولما اشتد على الناس البلاء بعث رسول الله بعض
رجاله الى قائدي غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه
وعن أصحابه فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب . . . (٢)

وقد كان هذا الاتفاق بمثابة الهزيمة التامة لجيوش الاحزاب إذ أخذ القواد
بعده يتناولون الدسائس وأخذت كل فئة تضمر الشر للآخرى ثم فسد الامر بين
الاحزاب وبين بنی قريظة حيث شعر بنو قريظة أن تغييرا أخذ يطرأ على الحالة
فطلبوا من حلفائهم رهاث من الناس وأخذ بنو قریش وغطفان يلومون بنی قريظة
ويقولون لهم انا لسنا بدار مقام قد هلك الخلف والحافر فأعدوا للقتال حتى تناجز
محمدا فأرسلوا اليهم أن اليوم يوم سبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك
بالذين نقاتل معكم محمدا فاننا نخشى إن اشتد عليكم القتال أن تنتشروا الى بلادكم

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ٧٤

وتتركونا والرجل في بلدنا ولا طاقة لنا بذلك فارسلوا لنا الرهائن حتى نطمئن وأما بنو قريش وغطفان فقالوا والله لا ندفع اليكم رجلا واحدا من رجالنا فاذا كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا فأبى عليهم بنو قريظة

وبعث الله عليهم الريح في ليل شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح آيتهم ثم تهيأت قريش وغطفان للرحيل فانشمرت راجعة الى بلادها . . . (١)

وقد وافق المستشرقون على معظم أخبار الخندق التي سردناها الى هنا وأما الذي لا يوافقون عليه فهو ما جاء في المراجع العربية من أنه بعد أن كتبت المعاهدة بين المسلمين و بين قائدي غطفان تناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب ثم قال ليجهدوا علينا . . . (٢)

لان ذلك قد يناقض الواقع اذ دب روح الشقاق بين الاحزاب بعد اثبات هذه الصحيفة بين الرسول و بين غطفان لا قبلها

على أن غطفان لم تشترك في القتال الا طمعا في ثمار خيبر وقد علم الرسول ذلك حتى العلم فوعد غطفان ما وعد وفضلت غطفان ما وعدها به الرسول على ما اتفقت مع اليهود عليه وإن كان أقل اذ كان ثلث ثمار المدينة لانها رأت أنها ستفوز بهذه المنحة دون أن تسفك قطرة واحدة من دماءها

ويلاحظ العالم Leszynsky أن رواية تناول سعد بن معاذ للصحيفة وتمزيقه اياها تشبه ما يقال عن الرومان أثناء حصار جيوش الغلواة لمدينة روما اذ حدث أنه بعد أن تعهد المحصورون بان يدفعوا غرامة مالية للجيش المتوحشة تقدم بطل من أبطال روما فتناول المعاهدة ومزقها قائلا : ان روما لا تشتري استقلالها بالدراهم واني سأغسل عن وطني هذا العار ولكن روما دفعت الغرامة وعادت جيوش

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٨٤

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٧٧

الغلواة الى وطنها . . . (١)

وهناك سؤال يتردد في نفس الباحث وهو لماذا لم يطلب بنو قريظة من قريش وغطفان رهن الرجال قبل تلك الصحيفة لكن يظهر أن قريشا لم تدرك أن الشر إنما جاء من ناحية غطفان لأن الصحيفة كانت من قبيل المعاهدات السرية التي تعقد بين الدول في الوقت الحاضر (٢)

وهما يكن من شيء فقد تخلص المسلمون من خطر جسيم كان يهدد كيانهما هضتهم وينذر بسقوط يثرب

وقد نتج من انضمام بنى قريظة الى جيوش الاحزاب ونقضهم المعاهدة التي كانت بينهم وبين النبي أن الرسول لم يمهل عليهم بعد تخلصه من جيوش الاحزاب بل بدأ يحاصرهم في نفس اليوم الذي أخذت فيه قريش وغطفان تنجلى عن المدينة حتى أنه أمر من كان معه سامعا مطيعا ألا يصلوا العصر الا بينى قريظة

ولم يقدر حي بن أخطب الذي كان سببا في نقض المعاهدة بين بنى قريظة وبين المسلمين بما كان قد عاهد عليه كعب بن أسد بل وفي بمهده وانضم الى أبناء جلدته ودخل معهم الحصن حيث استمروا محصورين خمسا وعشرين ليلة حتى أجهدهم الحصار

واسنا نعلم اذا كان قد حدثت مناوشات بين الفريقين أثناء هذه المدة أم لم تحدث

لكن يظهر أن بنى قريظة كانوا يميلون الى الهدوء والسلم لانهم كانوا رجال فلاحه وزراعة فلم يكونوا في القوة والبطش والحماس الحربى بالدرجة التي كان عليها بنو قينقاع وبنو النضير ومما يؤيد ذلك أن بنى النضير كانوا يدفعون الدية كاملة

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٧٤

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٨٣

بخلاف بني قريظة الذين كانوا يدفعون نصفها فقط (١)

من أجل ذلك كان العرب ينظرون الى بني قريظة بعين غير التي كانوا ينظرون بها الى غيرهم من البطون اليهودية الاخرى وليس معنى هذا أن بني قريظة لم تكن لديهم أية كفاءة حربية بل معناه انهم كانوا أقل من البطون الاخرى في ذلك ومع هذا أبلاوا بلاء حسناً في يوم بعث وأبدوا من الشجاعة وقوة العزيمة ما يستحق الاحترام وأيضاً فانهم قد منعوا حصنهم خمسا وعشرين ليلة ولم ينزلوا الا حين أيقنوا بالهلاك

على أن الواقدي يصرح بانه حدث قتال بين اليهود وبين المسلمين أثناء الحصار حيث كان الفريقان يتراميان بالنبل والحجارة (٢) كما يذكر ابن هشام أن بعض الانصار من الخزرج وبني حارثة قتلوا في هذه المقاتلة الضعيفة (٣) ولم يجرؤ بنو قريظة أن يخرجوا من الآطام مرة واحدة طول مدة الحصار لان عدد المسلمين كان يربو على الآلاف بينما كان عدد اليهود لا يتجاوز سبعمائة الا قليلاً ولما أيقنوا أن مقاومة جيش الانصار لا تفيدهم فتيلاً وأنهم سوف يقعون في قبضتهم مها طال الزمن بعثوا الى الرسول أن ابعث الينا أبا لبابة لنستشيره في أمرنا فأرسله الرسول اليهم فلما رأوه قام اليه الرجال وجهش اليه النساء والصبيان يكون في وجهه فرق لهم وقالوا له يا أبا لبابة أترى أن تنزل على حكم محمد قال نعم وأشار بيده الى حلقة انه الذبح وقال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت رسول الله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله حتى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده وقال لا أبرح من مكاني هذا حتى يتوب الله على مما صنعت وعاهد الله أن لا أطأ بني قريظة أبداً ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً واقام أبو لبابة مرتبطاً بالجذع ست ليال تأتبه

(١) الواقدي ص ٢١٢

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٠٤

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٠٤

امراته في كل وقت صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط بالجذع الى أن أطلقه النبي (١)

ويظهر مما جاء في كتاب الواقدي أن بني قريظة قبلت أن تنزل على حكم الرسول لأنهم اعتقدوا حق الاعتقاد أن الأنصار يعاملونهم كما عاملوا بني قينقاع والنضير (٢) وربما كان هذا هو سبب خيانة أبي لبابة إذ أشار الى العنق تلميحا الى الحكم الذي سينفذ في بني قريظة بعد خضوعهم

وكان بنو الأوس يعتقدون كما اعتقد بنو قريظة في نتيجة حكم الرسول فاتهم « لما أصبحوا نزل اليهود على حكم رسول الله فتوانبت الأوس فقالوا يا رسول الله انهم كانوا موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالى اخواننا بالأوس ما قد علمت فقال الرسول ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيكم رجل منكم قالوا بلى قال فذاك الى سعد بن معاذ ثم حكم فيهم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبي الذراري والنساء . . . (٣)

ولا شك أن اليهود لم يكونوا ينظرون الى هذه الخيانة من حلفائهم بني الأوس ولا الى غدر سعد بن معاذ بهم ولم ينجمهم كما نجى عبد الله ابن أبي حلفاءه من بني قينقاع . . . (٤)

وكان بنو قريظة طول الليل قبل اعدامهم يقرأون في كتاب الزبور ويتناقشون في شؤون الدين الاسرائيلي حيث اتفقوا على أن ينصروه الى آخر رمق من الحياة (٥)

أما تنفيذ حكم الاعدام في رجال بني قريظة فقد نعلم أن الرسول خرج الى سوق المدينة فخذق بها خنادق ثم بعث اليهم فضرب أعناقهم في تلك الخنادق

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ٨٩

(٢) الواقدي ٢١٣

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٩٢ — حديث البخاري ج ٢ ص ٢٥٩

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ٨١

(٥) الواقدي ص ٢١٦

يخرج بهم اليهم ارسالا وفيهم حي بن أخطب وكعب بن أسد رأس القوم وهم ستمائة
والمكثر لهم يقول تسعمائة ولما أتى بجي بن أخطب وعليه حلة فقاحية (ضرب من
الوشى) قد شقها من كل ناحية قدر أنملة لثلا يسلبها أحد فلما نظر الى رسول الله
قال أما والله ما لمت نفسى فى عداوتك ولكنى من يخذل الله يخذل ثم أقبل على
الناس فقال أيها الناس انه لا بأس بأمر الله كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على
بنى اسرائيل ثم جلس فضربت عنقه . . . (١)

وقد اقترح كعب بن أسد زعيم بنى قريظة على أبناء جلدته قبل خروجهم
من أطامهم أن يعتنقوا الاسلام « فيأمنوا على دماءهم وأموالهم وأبنائهم ونسائهم
فقالوا لا نفارق حكم الموراة أبداً ولا نستبدل به غيره (٢)

هذه الجمل تدل على رسوخ الديانة فى نفوس بنى قريظة وانهم ما كانوا
ليعبأوا بالموت فى سبيل التمسك بدينهم والمحافظة على عقائدهم

وقد قلنا إن بنى قريظة أظهروا العجز فى الشؤون الحربية بالنسبة للبطون
الأخرى وينضح ذلك من حديث لابن هشام اذ « قال كعب بن أسد لقومه اذا
أبيتى على هذه (الدخول فى الاسلام) فهاهم فلهقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج الى
محمد وأصحابه رجلا مصلتين السيوف لم تترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا
ويزينهم فان نهلك نهلك ولم تترك وراءنا نسلا نخشى عليه وان ظهر فلعمري
لنجدن النساء والأبناء قالوا تقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بدمهم قال فان
أبيتى على هذه فان الليلة ليلة السبت وانه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد آمنوا
فيها فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرة قالوا نفسد سبتنا علينا ونحدث فيه ما لم يكن
من كان قبلنا الا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ قل ما بات
رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما . . . (٣)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٩٢

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٨٨

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٨٨

وقد اشترك الأوس في قتل حلفائهم فانه لما شرعت « الخزرج تضرب أعناقهم ويسرم ذلك فنظر رسول الله الى الأوس فلم ير ذلك فيهم فظن أن ذلك للحلف الذي بين الأوس وبين بني قريظة وقال ليضرب فلان وليذفف فلان . . . (١)

وقد أظهر بعض اليهود في نكبتهم هذه من الشجاعة ما يستوقف النظر فمن ذلك ما حدث للزبير مع أحد الانصار ، ذلك « أن الزبير كان قد منّ على ثابت ابن قيس في يوم بعثت أخذه فجز ناصيته ثم خلى سبيله فجاءه ثابت وهو شيخ كبير فقال يا عبد الرحمن هل تعرفي قل وهل يجمل مثلى مثلك قال اني قد أردت أن أجزيك بيدك عندي قال ان الكريم يجزي الكريم ثم أتى ثابت بن قيس رسول الله فقال يا رسول الله انه قد كانت للزبير على منة وقد أحببت أن أجزيه بها فهب لي دمه فقال رسول الله هو لك فأناؤه فقال ان رسول الله قد وهب لي دمك فهو لك قال شيخ كبير لا أهل له ولا ولد فما يصنع بالحياة قال فأتى ثابت رسول الله فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله هب لي امرأتها وولده قال هم لك قال فأناؤه فقال قد وهب لي رسول الله أهلك وولدك فهم لك قل أهل بيت بالحجاز لا مال لهم فما بقاؤهم على ذلك فأتى ثابت رسول الله فقال يا رسول الله ماله قال هو لك فأناؤه ثابت فقال قد أعطاني رسول الله ماله فهو لك قال أي ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يتراءى فيها عذارى الحى كعب بن أسد قال قتل قال فما فعل سيد الحاضر والبادى حبي بن أخطب قال قتل قال فما فعل مقدمتنا اذا شددنا وحاميتنا اذا فررنا عزال بن سموم قال قتل قال فما فعل المجلسان يعنى بنى كعب بن قريظة وبنى عمرو بن قريظة قال ذهبوا وقتلوا قال فاني أسألك يا ثابت بيدي عندك الا ألحقتنى بالقوم فوالله ما فى العيش بعد هؤلاء من خير فما أنا بصابر

لله فتلة دلو ناضح حتى ألقى الاحبة فقدمه ثابت فضرب عنقه . . . (١)

وكان المسلمون لا يقتلون في غزواتهم النساء والذراري وكل من لا ينبت من الرجال (٢) لكن في هذه الغزوة قتلت امرأة واحدة وقد انطلقوا بها للقتل وعلى نغرها علامة الحبور والابتهاج حتى قالت عائشة زوج الرسول : فوالله ما أنسى عجباً منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل (٣)

وقد نجى في ذلك اليوم أربعة من اليهود لم يقتلوا لأنهم اعتنقوا الاسلام فأقاموا على نسائهم وذراريهم وأملأهم وقد بقى ثلاثة منهم في المدينة أما رابعهم فقد خرج على وجهه من يثرب ليلة اسلامه ولم يدر أحد الى أين ذهب (٤)

ولم يكن الثلاثة الذين أسلموا من بنى قريظة أو من بنى النضير بل كانوا من بنى هذيل وهم بطن من البطون العربية التي تهودت ولم يكن عدد افرادها المتهودين كبيراً في يثرب

ومهما يكن من شيء فقد قضت هذه الغزوة القضاء التام على بطون اليهود في يثرب وقد كان القضاء على اليهود هو رائد بطون الأوس والخزرج منذ الساعة الأولى لمجاورتهم لهم في يثرب وقد بذلت في هذا السبيل جهوداً عظيمة في فترات مختلفة ولم توفق حتى جاءت الحوادث بعد الهجرة فحققت آمالهم واطمأنتهم السياسية في وقت كانت خامدة فيه تلك الآمال

وقد طرأ تغيير عظيم على يثرب بعد خروج اليهود منها اذ تدهورت شئونها التجارية والصناعية تدهوراً شديداً ولو لم يكن بهذه المدينة ضريح الرسول ولو لم تكن عاصمة الدولة الاسلامية في عصر الخلفاء الراشدين لما كان ليثرب شأن

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٩٥ — الواقدي ص ٢١٩

(٢) حديث البخاري ج ٢ ص ٢٥١

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٩٤

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ٩٠

يذكر بعد تلك الحوادث في الجزيرة العربية
وقد اضمحل شأن هذه المدينة بعد عصر الخلفاء الراشدين ولم تعد اليها
مكانتها القديمة من الوجهة التجارية والصناعية

هذا ما يميل اليه المستشرقون وقد يكون من الصعب تنفيذ هذا الرأي
وتجريد من الصحة على أن هناك نقطة جوهرية يجب أن نتنبه لها ونحن نبحث
أسباب الضعف الذي طرأ على يثرب بعد أن محيت منها سلطة اليهود

فقد يظهر لكل باحث في تاريخ المسلمين بعد الخندق وغزوة بني قريظة
ظاهرة جديدة في منطقة يثرب أولا وفي الحجاز كله بعد زمن قصير : هي أن
مرافق الحياة من زراعة وتجارة وصناعة أهملت اهمالا شنيعا وأخذ أفراد البطون
وزعماءها يتجهون نحو الشؤون الحربية التي شغلت العرب بما جلبت لهم من المغنم
وبما مكنت لهم فيما يملك اعداء الاسلام في الجزيرة العربية

وبعد غزوة تبوك أخذت الجيوش الاسلامية تغمر سورية والعراق ومصر
وأفريقيا الشمالية فلم تبق للأعمال القديمة المعروفة في الجاهلية قيمة كبيرة في كسب
الرزق واحراز المال والسلاح اذ كانت ثمار الأرض من بر أو تمر قليلة جداً
بالنسبة لما تغله الفتوح من مختلف الثمرات

وكذلك أهمل العرب أعمالهم الزراعية وتركوها بأيدي العبيد الذين جلبوهم
من الامم المغلوبة

ولم تكن هذه الظاهرة قاصرة على العنصر العربي وحده بل نجدها شاملة
لكل الامم في طور الانتقال من الفقر والبداوة الى الملك والاستعمار فقد نعلم أن
الامة اليونانية أخذت بعد خروج الاسكندر الاكبر لفتح ممالك الشرق تنحط
في الزراعة والتجارة ونهمل ما في بلادها من مصادر الثروة طمعا في جلب ما في
الممالك الشرقية من المغنم الكثيرة والى مثل هذه الظاهرة يشير من كتب في

تاريخ روما بعد قهرها لأمم العالم القديم
أما الإهمال الذي وقع في منطقة يثرب فقد ظهر أثره بعد زمن قصير في مكة
اذ تدهورت شؤونها التجارية ولم نعد نسمع في التاريخ الإسلامي شيئاً عن قوافل
مكة إلى يثرب والشام واليمن لأن عشائر قريش وزعماءها وجدوا أرزاقهم فيما
انبسط لهم في الممالك الإسلامية ولولا الكعبة بمكة لظلت كسائر مدن الجزيرة التي
لم ترتق ولم تعظم بظهور الإسلام بل أصبحت خالية من أهلها العرب الذين طوحت
بهم مطامع الفتوح

على أن الدكتور طه حسين يرى أن انحطاط يثرب والحجاز عامة من الوجهة
المادية لم يكن ناشئاً عن إضعاف اليهود واجلائهم وإنما كان نتيجة لازمة لانتقال
النشاط العربي إلى جهة أخرى خارج البلاد العربية وهو يرى أن اليهود لو أنهم
ظلوا مسلمين للنبي والمسلمين حتى تمت الفتوح لبخلوا بنشاطهم الطبيعي على هذه
الأرض الحجازية التي لم يستعمروها الا مضطرين ولا تمسوا لانفسهم مستعمرات
أخرى أخصب وأجلب للنفع في العراق والشام أو مصر أو غيرها من البلاد التي
فتحت على المسلمين

أما النتيجة المادية لمحو السلطة اليهودية في يثرب فواضحة فقد قسم الرسول
المغانم من الذهب والفضة ومن المنازل والمزارع على المهاجرين ووضع تحت يد
أنصاره زعامة الآطام التي أخذت من اليهود وما بقي من الأموال بعد هدايا
المهاجرين والا نصار حفظ في بيت المال للدولة الفتية التي ظهرت بمظهر القوة بعد
غزوة بني قريظة وكانت في حاجة شديدة إلى الأموال التي تساعد على تنفيذ
المشروعات المهمة في الحجاز وأطراف الشام

أما تأثير هذا الفوز المبين في القبائل العربية الوثنية من قريش وغيرها
فسنبينه فيما بعد . . .

وأما المنافقون فقد خفت صوتهم بعد يوم قريظة ولم نعد نسمع لهم أعمالاً أو

أقوالا تناقض ارادة النبي وأصحابه كما كان يفهم ذلك من قبل
 أما النساء والذراري فقد بعث بهم الرسول الى نجد فابتاع بهم خيلا وسلاحاً
 وقد اصطفى لنفسه من نساء قريظة ريحانة بنت زيد فكانت عنده حتى توفيت
 في حياته ويقول صاحب كتاب الطبقات إن الرسول ضرب عليها الحجاب وكان
 معجباً بها وكانت لا تسأله الا أعطائها ولقد قيل لها لو كنت سألت رسول الله
 بنى قريظة لأعتقهم . . . وكانت امرأة جميلة وسيمة . . . فغارت عليه غيرة
 شديدة فطلقها تطليقة وهي في موضعها لم تبرح فشق عليها وأكثرت البكاء
 فدخل عليها رسول الله وهي على تلك الحال فراجعها فكانت عنده حتى ماتت
 عنده . . . (١)

وفي سورة الأحزاب آيات تتعلق بغزوة بنى قريظة «ورد الله الذين كفروا
 بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً . وأنزل الذين
 ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون
 وتأسرون فريقاً وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على
 كل شيء قديراً» (٢)

وكذلك قال العرب شعراً كثيراً في غزوة قريظة وغزوة الخندق وهو شعر
 لم يوجد له نظير في الغزوات الاخرى عند ابن هشام وهو يدل على ما كان انلك
 الغزوة من وقع شديد في النفوس

ومما قاله جبل بن جوال الشعلي يبكي بنى قريظة :

ألا يا سعد سعد بنى معاذ	لما لقيت قريظة والنضير
لعمرك ان سعد بنى معاذ	غداة تحملوا لهو الصبور
فأما الخزرجي أبو حبيب	فقال لقينقاع لا تسيرا

(١) طبقات ابن سعد جزء ٨ ص ٩٣

(٢) سورة الاحزاب آية ٢٥ — ٢٧

وبدلت الموالى من حضير	أسيد والدوائر قد تدور
وأقفرت البويرة من سلام	وسعية بن أخطب ففى بور
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا	كما ثقلت بحيطان الصخور
فان بهلك أبو حكم سلام	فلا رث السلاح ولا دثور
وكل الكاهنين وكان فيهم	مع اللين الخضارمة الصقور
وجدنا المجد قد نبتوا عليه	بمجد لا تغيبه البـدور
أقيموا يا سراة الأوس منها	كأنكم من الخزاة عور
تركتم قدركم لا شىء فيها	وقدر القوم حامية تفور



البَابُ الثَّانِي

غزوة خيبر

الاسباب التي حملت الرسول على محاربة أهل خيبر — أهمية معاهدة الرسول مع قريش قبل هذه الغزوة من الوجهة السياسية والحربية — مراقبة قبائل الحجاز انقزو خيبر — غدر بني غطفان بمخلفاتهم أهل خيبر — النضال حول أطام خيبر — سلام بن مشكم وبقية زعماء خيبر — المناطق الحربية في بلاد خيبر — حصون خيبر المنيعه — الحاح اليهود في طلب الصلح — لماذا لم يحل الرسول أهل خيبر ؟ — رأى ابن هشام — آراء المستشرقين — مقام خيبر — صحف التوراة والرسول — زواج النبي بصفية بنت حيي بن أخطب — محاولة زينب ابنة الحارث الانتقام من الرسول — لماذا تزوج الرسول بصفية بنت حيي ؟ — خضوع يهود وادي القرى وفدك وتبعا للرسول — نتيجة غزوة خيبر

ارتعدت فرائص يهود خيبر لما وصل اليهم ما حل باخوانهم في يثرب من التنكيل والتقتيل وأوجسوا خيفة من نقمة المسلمين عليهم من جراء تحريرهم لبني قريش وغطفان مع حيي بن أخطب على محاربة الانصار

وقد صرح سلام بن مشكم لزعماء خيبر بان خطرا يتهدد كيان اليهود في الحجاز وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا الى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادي القرى وتبعا ثم يزحفوا على يثرب دون أن يعتمدوا على البطون العربية في هذه الغزوة ولكن بعض الزعماء عارضه في هذا الرأي^(١) وكانوا في هذه الاثناء يرسلون الوفود بالاموال الى المدينة لفداء عدد عظيم من النساء والذراري . . .^(٢)

(١) الواقدي ص ٢٢٤

(٢) الواقدي ص ٢٢٩

وقد علم الرسول بما يدور في خلد يهود خيبر فأخذ ينهياً لقتالهم ولكنه أجهله الى أجل قصير لاسباب سياسية وأخذ الانصار يرسلون الوفود لقتل زعماء خيبر كمقدمات للغزوة

وكان من تلك الضحايا زعيمان كبيراً النفوذ والسيطرة في خيبر وهما سلام بن أبي الحقيق واليسير بن رزام

أما الاول فقد قتل غيلة على فراشه في خيبر بواسطة خمسة من رجال بني الخزرج قصدوا خيبر فاحتلوا على امرأة سلام وقالوا لها إنهم يلتمسون الميرة ففتحت لهم الابواب فهجموا على سلام وطعنوه بسيوفهم وهو على فراشه لا يدري^(١) ٣٣

ونلاحظ أن هذا القتل لم يكن بعد غزوة قريظة مباشرة بل جرى قبيل غزوة خيبر وكان أبو الحقيق من أصحاب العقول الراجحة فاراد المسلمون أن يتخلصوا منه قبل أن تدور الممارك بينهم وبين اليهود في ناحية خيبر

وأما الزعيم الثاني وهو اليسير بن رزام فقد كان يجتمع بيني غطفان ليعقد معهم العقود والاتفاقات ليكونوا مع اليهود في حالة دخول أهل خيبر في حرب مع المسلمين « فبعث اليه الرسول عبد الله بن رواحة في نفر من أصحابه فقدموا الى اليسير بن رزام بخيبر وكلموه وقالوا له انك إن قدمت على الرسول استعملك وألزمك فلم يزالوا به حتى اذا كان بالقرقرة من خيبر على ستة أميال ندم اليسير على مسيره ففطن له عبد الله بن أنس فاقتحم به ثم ضرب به بالسيف فقطع رجله وضرب به اليسير بمخراش في يده من شوحط فأمة ومال كل رجل من الانصار على صاحبه من اليهود فقتله الا رجلاً واحداً أفلت على رجله . . . (٢)

وقد يدل هذا على صحة ما رواه الواقدي من أن بعض زعماء خيبر لم يوافقوا

(١) ابن هشام جزء ٣ ص ١٢٢

(٢) ابن هشام جزء ٣ ص ١٤٠ — تاريخ الخميس جزء ٢ ص ١٦

على رأى سلام بن مشكم من محاربة المسلمين وأن اليسير بن رزام قد خرج فعلا مع عبد الله بن رواحة يقصد المدينة ليدخل في حلف مع الرسول ليمحو من قلوب الانصار الاستياء من اشتراك بعض زعماء خيبر والنضير في يوم الخندق وأما عبد الله بن رواحة فإنه لم يأت الى خيبر لعقد معاهدات بل لتنفيذ خطة سياسية خطيرة كان من شأنها اضعاف اليهود بقتل بعض زعمائهم

وقد اعتبر مؤرخو العرب قتل اليسير بن رزام من الاعمال السياسية الجلييلة فقد وضعوا له بابا خاصا كأنه غزوة من الغزوات

أما ابن هشام فقد وضعها في أخبار الانصار قبيل غزوة خيبر ولكي يتمكن الرسول من محاربة أهل خيبر دون أن يكون عرضة لخطر من جهة أخرى فقد توجه الى مكة في ذى القعدة من السنة السادسة وتصالح مع قريش

وقد جاء ابن هشام بنص المعاهدة : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمر واصطلمحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليه ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يرد عليه وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا سلاسل ولا أغلال وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه . . . (١)

أما بعد عقد الرسول هذه الهدنة فقد أصبح آمناً شر قريش وصارت له الحرية في أن يسير حيث شاء فأمر جموع المسلمين أن يتجهزوا لغزو خيبر وخرج بهم في المحرم من السنة السابعة قاصداً خيبر وهي على ثلاثة أيام من المدينة

وأما الاسباب التي حملت قريشاً على عقد الهدنة فهي أن قريشاً كانت في حاجة شديدة الى هدنة مع الرسول لما ظهر في مكة من الضائقة الاقتصادية بعد يوم قريظة ولما كانت تخشى على قوافلها من غارات المسلمين ولما كانت تتوقعه

من انتقام الرسول بعد أن حاربته وكادت له في بدر وأحد والخندق
ولما سمع القرشيون بمسير النبي إلى مكة خرجوا معهم العوذ المطافيل وقد لبسوا
جلود النمر (١) ونزلوا بنى طوى يعاهدون الله أن لا يدخلها المسلمون عنوة أما
الرسول فلم يأت للقتال ولكنه جاء لزيارة البيت الحرام
ولا شك في أنه قد ظهرت للنبي بعد يوم قريظة سياسة جديدة إزاء قريش
فقد أراد أن يأخذهم بالرفق ولكن أى رفق ؟ انه رفق القوى الذى يريد أن
يصل إلى غرضه بدون أن يحكم السيف وليس رفقاً هنا كرفقه بمكة يوم كان
قليل الانصار

ويحدثنا ابن اسحق أن الرسول قال : لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة
يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها (٢)

فلما وثقت قريش أن الرسول يميل إلى مهادنتها لم تتردد في القبول
أما نص عقد الهدنة فأننا نعتقد أنه كان أطول مما وصل إلينا في كتاب
السيرة فقد جرت مفاوضات كثيرة قبل الهدنة ولم تكتف قريش بأقوال مبهمه
وانما طلبت شروطاً واضحة تضمن لمتاجرها وقوافلها الأمان

والذى يرجع إلى آيات سورة الفتح التى يشرحها ابن إسحق يرى أن الاخبار
القليلة التى وصلت إليه عن يوم الحديبية يرجع الفضل فيها إلى الآيات أكثر من
الروايات التى لم يبق منها لعهد الا القليل

أما أنصار الرسول فقد غضبوا وثاروا اذ اعتقدوا أن شروط الهدنة فى صالح
قريش وكانوا يودون أن تدعن لحكم الرسول بلا شرط ولا قيد وفى هذه الهدنة

(١) قيل العوذ جمع عائد وهى الناقة التى معها ولدها يريد أنهم خرجوا بدوات الابلان
من الابل ليتزودوا ألبانها ولا يرجعوا حتى يتجاوزوا محمداً وأصحابه فى زعمهم . . . (الروى
الانف جزء ٣ ص ٢٦٦)

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٥٢

قال عمر بن الخطاب كلمته المأثورة « علام نعطي الدّنية في ديننا » (١) وبالرغم من ثورة المسلمين على شروط الهدنة فقد كان في قبولها من الرسول دلالة كبيرة على بصره بالعواقب وعلمه بالسياسة الدقيقة ويؤيد ذلك ما قاله الزهري فما فتح في الاسلام فتح قبل يوم الحديبية كان أعظم منه انما كان القنال حيث التقى الناس فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وآمن الناس كلهم بعضهم بعضاً والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد في الاسلام يعقل شيئاً الا دخل فيه ولقد دخل في دينك السنتين مثل ما كان في الاسلام قبل ذلك أ. أكثر... (٢)

أما الآيات التي تتعلق بيوم الحديبية فهي تحتوى على سورة الفتح بأجمعها « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً . . إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً . . . وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيراً هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليماً لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . . »

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٥٨

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٦٤

وتتلخص الأسباب التي حملت النبي على غزو خيبر فيما يأتي :

(١) ثأره من يهود خيبر لما فعلوه من تحريض قريش وغطفان على محاربة المسلمين

(٢) كانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف بأساً وأوفرها مالا وسلاحاً ولم يكن هناك أى أمل في أن يعتنقوا الدين الاسلامي بعد ما اثبتت التجارب السابقة مع يهود يثرب أن اليهود لن يدخلوا في الاسلام ، ولما كان الغرض الذي يرمى اليه الرسول انما هو جمع العرب على دين واحد وتأليف كتلة متحدة منهم فقد كان حتماً عليه في هذه الحال أن يقضى على يهود خيبر حتى لا يكونوا حجرة عثرة في سبيل تحقيق ذلك الغرض

(٣) لم يجد النبي قوة تقف في سبيل نشر دينه إلا قوتين اثنتين قوة قريش وقوة اليهود لذلك وضع نصب عينيه القضاء على هاتين القوتين ليخلو له الجو ويتمكن من نشر دعوته . أما بقية القبائل الحجازية فلم تكن من القوة والخطورة بمثل ما كانت قريش واليهود

ويظهر أن صاحب السيرة لم تصله أخبار كثيرة عن غزوة خيبر لذلك لجأ مؤرخو العرب — وقد كانت لهم سيرة ابن هشام الينبوع الذي يستقون منه جميعاً — الى الأخبار والروايات المضطربة فجاءت بعض رواياتهم مختلطة بكثير من العجائب والغرائب كما سنوضح ذلك فيما بعد

ومما لا شك فيه أن غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم في تاريخ الفتوح الاسلامية اذ كانت كل قبائل الحجاز تراقب نتيجتها باهتمام وتنظم شؤونها على حسب ما كان يتراءى لها من نتيجة صليـل السيوف بين الانصار واليهود وقد كان أعداء الرسول الكثيرون في بادية العرب وحاضرتها يعلقون آمالاً كبيرة على تلك الغزوة

وقد انقسم أهل مكة قسمين : طائفة منهم ترجح أن النصر سيكون حليف

اليهود وطائفة ترى أنه سيكون من نصيب المسلمين وكثيراً ما تراهن بعض الأفراد من كلتا الطائفتين بسبب ذلك (١)

وقد كان الاهتمام بهذه الغزوة شديداً جداً في مكة أثناء القتال حول أطام خيبر حتى أن الحجاج بن علاط لما ذهب الى مكة بعد ان انتهى الحرب بفوز المسلمين خدع أهلها وقال لهم « عندي من الخبر ما يسركم : هزم محمد هزيمة لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسيراً وقال أهل خيبر لا تقتله حتى نبعث به الى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم فابتهج أهل مكة لهذا الخبر ودخلوا الى الكعبة ليقدموا الضحايا الى اللات والعزى . . (٢)

وأما يهود خيبر فقد أرسلوا الى غطفان يستمدونهم لانهم كانوا من حلفائهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر ان غلبوا على المسلمين فقبلوا (٣)

ولكن بطون غطفان التي اشتهرت بغدرها يوم الخندق أخلت بيهود خيبر أيضاً اذ بعد أن تهيأت غطفان للقتال وظهرت طلائع الجيش الاسلامي دب الخوف في قلوبهم واستولى عليهم الفزع فرجعوا على أعقابهم وأقاموا في أهلهم وخلوا بين الرسول وبين خيبر (٤)

ولكن يظهر أن غطفان لم ترجع على أعقابها من جراء الخوف من طلائع الجيش الاسلامي كما يقول ابن هشام لأن لدينا رواية أخرى تقول إن الرسول قد بعث الى بني فزارة من بني غطفان وكانوا قد قدموا لمحاربة المسلمين مع يهود خيبر يطلب منهم أن « لا يعينوهم وأن يخرجوا عنهم على أن يعطيهم من خيبر شيئاً سماه لهم فأبوا عليه وقالوا حلفاؤنا وجيراننا فلما افتتح الله خيبر أتاه من كان هناك

(١) الواقدي ص ٢٨٩

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٦

(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٤٨

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ١٧١

من بنى فزارة فقالوا الذى وعدتنا فقال لكم ذو الرقيبة لجبل من جبال خيبر^(١)
وقد جاءت هذه الرواية فى كتاب المغازى للواقدى حيث يقول : إن عيينة
زعيم بنى فزارة قد غضب ولم يقبل ذا الرقيبة لان أرضها لم تكن خصبة^(٢)
أما اليهود فاتهم بعد أن شاوروا زعيمهم سلام بن مشكم « أدخلوا أموالهم
وعيالهم فى حصن الوطيح والسلام وأدخلوا ذخائرهم فى حصن ناعم وجمع المقاتلة
وأهل الحرب فى حصن نطاة وسلام بن مشكم مع أنه كان مريضاً جاء ودخل نطاة
مهم وحرّض الناس على الحرب »^(٣)

وكانت حصون خيبر منيعة على رؤوس الجبال وكان رجالها مدربين قد
مارسوا القتال والنضال وكانوا أصحاب سلاح كثير واستعملوا آلات الهدم فى رد
عادية المغيرين عن أطامهم . . .^(٤)

وكان الرسول قد جاء بخيبر الانصار مسلحين بكل ما غنموه فى الغزوات
السابقة وكذلك انضم اليهم كثيرون من قبائل العرب البادية طمعاً فى أموال
اليهود

وكان من نتائج أول معركة بعد أن التقى الجمعان حول حصن نطاة أن وصل
عدد جرحى المسلمين الى ٥٠^(٥)

وعلى العموم فانه من المتعذر معرفة عدد القتلى فى هذه المعارك لان مؤرخى
العرب — كما قلنا — لم تصلهم أخبار كثيرة عن غزوة خيبر وفضلاً عن ذلك
فانه من المعروف أن المؤرخين فى التاريخ العام لا يذكرون عدد القتلى والجرحى
من جهاتهم بينما يبالفون فى عدد القتلى والجرحى من العدو

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٠

(٢) الواقدى ص ٢٧٩

(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٠

(٤) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٠

(٥) الواقدى ص ٢٨٦

وقد نكب اليهود في أول عهد الغزوة بنكبة شديدة بسبب وفاة زعيمهم سلام بن مشكم في حصن نطاة وكان المسلمون يحاصرونه أثناء ذلك^(١) وقد وجد في هذا الحصن أولاد بني قمة وكانوا أصحاب ثروة طائلة في خيبر حتى قالت عائشة زوج الرسول عن هذه الاسرة : ما شبع رسول الله من خبز الشعير والتمر حتى فتحت دار بني قمة^(٢)

وانتقلت القيادة بعد وفاة سلام بن مشكم الى الحارث أبي زينب الذي خرج بعد ذلك من حصن ناعم لمنازلة الجيش الاسلامي فانهزم أمام بني الخزرج الذين بادروا لقتاله واضطروه الى أن يرجع الى الحصن ثم تجمع جماعة من اليهود رابطى الجأش وهجموا على الانصار حتى وصلوا الى حامل الراية بالقرب من الرسول فبعث الرسول أبا بكر الصديق براية الى الحصن فقاتل ورجع ولم يكن فتح وقد جهد ثم بعث في الغد عمر بن الخطاب ورجع ولم يكن فتح وقد جهد فدعا الرسول عليا وهو أرمد فتفل في عينه ثم قال خذ هذه الراية فاهض بها حتى يفتح الله عليك فلما دنا من الحصن خرج اليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه من يده فتناول علي بابا كان عند الحصن فتترس به فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ثم ألقاه من يده حين فرغ . فلقد كان في نفر ثمانية اجتهدوا على أن يقلبوا الباب فلم يقلبوه^(٣)

أما صاحب تاريخ الخميس فيسرد هذه الاخبار ويلاحظ أن الذين أرادوا خلع باب الحصن كانوا سبعين ولم يحركوه الا بعد جهد . . . وقد حملة على بن أبي طالب على ظهره وجعله قنطرة دخل عليها المسلمون الحصن ثم ألقى ذلك الباب وراء ظهره ثمانين شهرا^(٤)

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٠

(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٣

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٦

(٤) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٥٦

وفى أثناء هجوم الانصار على حصن ناعم قتل البطل الخيبرى مرحب بعد
مبارزة عنيفة مع محمد بن مسلمة (١)

وتذكرنا هذه المبارزة بحسب رواية صاحب الخيس بالروايات الخرافية
عند قدماء الاغريق

والذى يمكننا أن نستنتجه من هذه الروايات أن معارك عنيفة دارت حول
حصن ناعم دون أن يتغلب المسلمون على اليهود فأمر الرسول أنصاره أن يقطعوا
أربعائة من نخيل اليهود ليدخل الرعب فى نفوسهم (٢)

وقد نصح أبو بكر الصديق الرسول بأن يمتنع عن قطع باقى الاشجار ففعل (٣)
وسقط حصن ناعم بعد أن قتل قائده الحارث أبو زينب (٤)

وكان حصن ناعم من الحصون المنيعة فى منطقة نطاة التى كانت بها آطام
تعرف بهذا الاسم

وكانت بلاد خيبر منقسمة الى ثلاث مناطق حربية الاولى نطاة والثانية
الشق والثالثة الكتيبة

وبعد أن سقط حصن ناعم توجه المسلمون الى حصن الصعب بن معاذ
وزحفوا عليه ففرق اليهود شملهم فاضطر الرسول أن يزجر رجاله ويحمسهم فتقدموا
واقترحوا السور ولكنهم وجدوا بعده سورا آخر داخلها فأنزلوه بعد جهد شديد
وارتد اليهود الى حصن آخر هو حصن الزبير فى نفس منطقة نطاة (٥)

وكان مقاتلة المسلمين قبل فتح حصن الصعب بن معاذ فى حالة ضئك شديد
لقلة المؤن عندهم وكثرة الجيوش فتوجهت جماعة منها الى الرسول تشكو اليه

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٥

(٢) تاريخ الخيس ج ٢ ص ٥١

(٣) الواقدي ص ٢٦٨

(٤) تاريخ الخيس ج ٢ ص ٥٥ — الواقدي ص ٢٧١

(٥) الواقدي ص ٢٧٤

وتطالب منه ما تسد به رمقها . فلم يجد الرسول شيئاً يعطيهم إياه فقال اللهم انك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه^(١)

وقد أذن الرسول للانصار في أكل لحوم الخيل^(٢)

وحدث أثناء ذلك أن أحد المسلمين اغتحم شاتين اغتتمهما بعد أن دخلت أولاهما الحصن فحضنهما تحت يديه وأقبل بهما الى الرسول فذبحوهما وأكلوهما وكان هذا الرجل اذا حدث هذا الحديث بكى^(٣)

لكن بعد فتح حصن الصعب بن معاذ وجد المسلمون طعاماً وودكا كثيرا^(٤)

ويظهر لى أن معاذاً هذا لم يكن علماً لشخص كما تشعر بذلك تسمية الحصن به بل تعرف الصخرة العالية في اللغة العبرية باسم معاذ

وقد كان هذا الحصن على صخرة عالية كما ذكر ذلك صاحب تاريخ الخيس^(٥) أما حصن الزبير فقد كان منيعاً جداً حتى ان المسلمين لم يستطيعوا فتحه على عظم ما بذلوا من جهود الا بعد أن جاءهم يهودى فغدر باخوانه فنصح لهم بقطع الماء عن المحصورين وكان هذا الماء يجرى الى القلعة من تحت الأرض فاضطر اليهود الى أن يخرجوا منه . وبعد مبارزة عنيفة انهزموا وفروا الى أبناء جلدتهم في منطقة أطام الشق^(٦)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٣

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٢

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٧

(٤) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٤

(٥) على أن تسمية الصخرة بمعاذ في العبرية لا يمنع من أن يكون أبا لرحل مسمى بمعاذ أيضاً لأن معاذ في اللغة العربية الملجأ وهو يطلق على المصدر والزمان والمكان كما في التاج ص ٥٧٠ ج ٢ وقد سمي العرب معاذ تشبيهاً للشخص بالملجأ الذي يلجأ اليه الخائف قال صاحب القاموس (وسموا طائفة وعائدة ومعاذاً) ص ٣٦٩ ج ١

(٦) الواقدي ص ٢٧٦

ولما أصبحت آطام منطقة النطا في أيدي الغزاة اتجهوا الى اقليم الشق
وشرعوا يحاصرون قلعة أبي وهي على جبل شمران
ولسنا نعرف مما جرى أثناء حصار هذا الحصن أكثر من انه حدثت
مبارزات بين أفراد من اليهود والمسلمين انتهت بفتح القلعة
ترك الرسول بعد ذلك بقية حصون منطقة الشق في أيدي اليهود لقلّة أهميتها
من الوجهة العسكرية وقصد أرض الكتيبة حيث احتشد اليهود في حصن القموص
الذي تجمعت فيه جموع المنهزمين والفارين من الحصون الخيبرية الأخرى
وكانت القموصى تحت قيادة بعض الأشراف من بنى الحقيق وكان في هذا
الحصن نساء هذه الأسيرة وقد كان لهذا الحصن اسم آخر وهو نزار ومعناه باللغة
العبرية التاج (٦٥)

وقد اختلف بعض مؤرخي العرب في أخبار حصن ناعم والقموص فابن
هشام والواقدي يقصان بعض الأخبار عن ناعم في حين يأتي صاحب تاريخ
الحنيس بنفس هذه الأخبار على أنها حدثت أثناء الحصار حول القموص^(١)
على أننا لا نعلق أهمية كبيرة على أخبار كهده لا تجدى المجادلة فيها فتبلا
لأنها روايات خيالية أكثر منها حوادث حقيقية

استمر الحصار حول حصن القموص عشرين يوماً حيث انتهى بتمكين
المسلمين من فتحه عنوة ووقع في قبضتهم سبايا من النساء والذراير فقسمها الرسول
بين أنصاره واصطفى لنفسه منها صفية ابنة حي بن أخطب
وبينما كانت الجيوش الإسلامية تحاصر الوطيح والسلام في اقليم الكتيبة
طلب اليهود الصلح وسألوا الرسول أن يحقن دماءهم فأجابهم الى طلبهم وحقن
دماءهم^(٢)

(١) تاريخ الحنيس ج ٢ ص ٥٥

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٧٩

وهنا نقسمال لماذا عامل الرسول يهود خيبر بغير المعاملة التي عامل بها يهود
يثرّب ؟

ويتلخص الجواب على هذا السؤال في أن خيبر كانت واسعة الاطراف وفيها
من الحدائق والمزارع والنخيل ما يحتاج للأيدى الكثيرة التي مارست أشغال
الزراعة والفلاحة ولم يكن من العرب من مارس ذلك الا التزر القليل وفوق ذلك
لم يرض الرسول أن يترك من أنصاره من يستوطن هذه الارض ويعمل بها
لاحتياجه اليهم في الاعمال الحربية ولم يكن في الامكان ترك هذه الارض الخصبه
بوراً لا تنتج زرعاً ولا ثمرأ الا أن الدولة الاسلاميه الناشئة كانت في أشد الحاجة
الى الاموال الكثيرة فلم يكن بد من الابقاء على اليهود ليعملوا في هذه الارض
وينتجوا منها الزرع والتمر ولذلك كانت شروط الصلح التي عقدت بين الطرفين
في مصلحة المسلمين أكثر منها في جانب المغلوبين

هذا الى أن يهود خيبر لم يفعلوا ما يوغر صدر الرسول ويشير حقه عليهم
كما فعل غيرهم وكل ما كان منهم لا يعدو اشتراك بعض زعماء بني النضير
اللاجئين الى يهود خيبر في تحريض قريش وغطفان على المسلمين في يوم الخندق
فما دامت شوكة اليهود في الحجاز قد انكسرت فليس ما يخشى من وجود يهود
خيبر في أراضيهم بل كان في وجودهم مصلحة كبيرة حيث يستثمر مجهوداتهم في
الاعمال التجارية والزراعية للاكثار من واردات الحكومة الجديدة كما ذكرت آنفاً
ويرتاب بعض المستشرقين في قول الواقدي (إن المسلمين لم يتركوا لليهود
خيبر سوى ثوب واحد لكل منهم وسوى نسائهم وذرائعهم)^(١)

ويؤيد المستشرقين في ارتياحهم هذا أن الواقدي نفسه يقول في نفس
الصحيفة التي ذكر فيها ذلك إن اليهود قد جاءوا من منطقة الكتيبة لشراء غنيمة
القموصر، وفداء النساء والذراري من أيدي الظافرين فمن أين جاءوا بما يشترون

به الغنائم ويفدون النساء والذراري اذا لم يكن المسلمون تركوا لهم الا ثوباً واحداً لكل واحد منهم

والواقع أن الرسول خمس بلاد خيبر وقسمها على الأنصار وعلى أصحابه ونسائه بطريقة الأسهم وأقام اليهود على أراضيها على أن يعطوا نصف ثمارها للمسلمين وكان رسول الله يبعث عبد الله بن رواحة فيقسم ثمرها ويعدل عليهم في الخرص (١)

وهناك أمر يستوقف النظر وهو أنه كان من بين المغنم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي بتسليمها لهم . . . (٢)

ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون الى النبي بالبنان ويحفظون له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة وينذكرون بأزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب . م اذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الاندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الاسلام

وقد قلنا إن الرسول قد اصطفى لنفسه صفية بنت حبي بن أخطب بعد أن قتل زوجها كنانة بن الربيع ويظهر أن بعض الانصار خافوا على النبي من هذا الزواج إذ « لما أعرس رسول الله بصفية بخيبر أو ببيع الطريق وكانت التي جعلتها لرسول الله ومشطتها وأصلحت من أمرها أم سليم ابنة ملحان فبنى بها رسول الله في قبة له وبات أبو أيوب خالد متوشحاً سيفه يحرس رسول الله ويطوف

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٠ — ١٩٧

(٢) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٠

بالقبة حتى أصبح رسول الله فلما رأى مكانه قال مالك يا أبا أيوب قال يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قد قتلت أباهما وزوجها وقومها وكانت حديثه عهد بكفر نفختها عليك.... (١)

وقد كان المسلمون محقين في خوفهم على الرسول وقيامهم على حراسته لأن يهود خيبر كانت نفوسهم قد امتلأت بالحق على الانصار الذين فتحوا أمصارهم واقتسموا أموالهم وأخضعوهم لسلطانهم وهي غريزة بشرية لا يخلو منها أحد اذ ليس في الناس من يقبل على نفسه الضيم والهوان فقد قتل يهود خيبر رجلا من المسلمين بعد أن رجعت جيوش الانصار الى المدينة (٢)

ويدل على مبلغ ما كان في نفوس اليهود من الاستياء ما أقدمت عليه امرأة يهودية من عمل بالغ غاية القسوة اذ ارادت أن تنتقم لقومها « فاهدت زينب ابنة الحارث امرأة سلام بن مشكم شاة مصلية كانت مسمومة ووضعتها بين يدي الرسول فتناول الذراع فلاك منها فلم يسغها ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله وأما بشر فاساغها وأما رسول الله فلفظها ثم قال ان هذا العظيم ليخبرني أنه مسموم ثم دعا بها فاعترفت فقال ما حملك على ذلك قالت بلغت من قومي ما لم يخف عليك فقلت ان كان ملكا استرحت منه وان كان نبياً فسيخبر فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من أكلته التي أكل . . (٣)

ولقد أثار هذا العمل سخطاً شديداً في نفوس مؤرخي العرب على هذه الفتاة التي حاولت أن تغتال حياة الرسول بمثل هذه المكيدة

ولكن يجب ألا يغيب عن البال صعوبة اطعمثنان فتاة الى الحياة بعد ان قتل أبوها وكان زعيماً شريفاً ومات زوجها وكان قائداً ذا مجد تليد وفتاة في

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٢

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٥

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٨٩

مثل موقفها لا بد أن تسقط تحت سلطان الغضب وتصفى لوحى الانتقام لا سيما وهي مالكة له قادرة عليه

والمؤرخ الذى يلتفت الى هذه الاعتبارات كلها يلتبس لهذه المرأة بعض العذر فيما أقدمت عليه من عمل منكر

أما صفية بنت حبي بن أخطب فقد أقامت على الولاء والوفاء لزوجها الجديد وبقيت معه قرينة مخلصه الى أن انتقل الى جوار ربه

وقد اقتفى النبي بعمله هذا أثر الفاتحين العظماء حيث كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التى كانوا يفتحونها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم^(١) ولقد كان بعض نساء الرسول يعاملن صفية بكبرياء وعظمة فكان ذلك يؤلمها ويبكىها فقال لها النبي : قولى لهن إنك ابنة هارون وكان عمك موسى رسول الله^(٢)

ويحدثنا ابن سعد « أن نبي الله فى الوجد الذى توفى فيه اجتمع اليه نساؤه فقالت صفية بنت حبي أما والله يا نبي الله لوددت أن الذى بك بى فغمزها أزواج النبي وأبصرهن رسول الله فقال مضمض^(٣) فيقلن من أى شىء يا نبي الله قال من تغامزكن بصاحبتهكن والله انها لصادقة . . .^(٤)

وقد توفيت صفية سنة اثنتين وخمسين فى خلافة معاوية بن أبى سفيان ودفنت بالبقيع^(٥)

وفى أثناء محاصرة المسلمين للوطيح والسلام من أطام خبير أرسل الرسول

(١) راجع حديث البخارى ج ١ ص ١٠٦ [صفية بنت حبي سيدة قريظة والنضير لا تصلح الا لك . . . فأعتقها رسول الله]

(٢) الواقدي ص ٢٧٩ — ابن سعد ج ٨ ص ٩١

(٣) أى أمسكن أفواهكن فقد تنجست

(٤) ابن سعد جزء ٨ ص ٩١

(٥) ابن سعد ج ٨ ص ٩٢

بعض جنوده الى فدك الواقعة شمال بلاد خيبر وكان قائد هذه البعثة محيصة بن مسعود « فدعا أهلها الى الاسلام ولما رأى أن لا ميل لهم فى الصلح وأرادوا أن يحاربوه جاءت اليهم أخبار خيبر فوقع فى قلوبهم خوف عظيم فأرسلوا جماعة من اليهود الى النبى حتى يصلحوه فبعد القيل والقال الكثير استقر الأمر على أن يعطوا النبى نصف أرض فدك ولهم نصفها فرضى النبى فصالحهم على ذلك^(١)

. فكانت فدك خالصة للرسول لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب^(٢) ولما فرغ الرسول من أمر خيبر تجهز للرحيل الى المدينة عن طريق وادى القرى فلما سمع أهلها جنود المسلمين تهيأوا للقتال وعرض عليهم الرسول الاسلام فأبوا عليه ذلك وقاتلوا ذلك اليوم الى الليل ثم تصالحوا وأقامهم النبى على أراضيهم وذرائعهم وأموالهم

ولما وصل أمر خيبر وفدك ووادى القرى الى يهود تباء خافوا وقبلوا الجزية^(٣)

وقد سرد الواقدى حوادث مبارزات وقعت بين جماعات من يهود وادى القرى وجمهور من المسلمين^(٤) رأيت ألا أنقلها لعدم أهميتها

وعلى كل حال فقد قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود السياسى فى البلاد الحجازية قضاء نهائياً. بعد أن قضوا عصوراً طويلة وهم يتمتعون به ويتفياون ظلاله فأخذت حالهم الاقتصادية تتدهور شيئاً فشيئاً حتى وصلوا الى الدرك الاسفل من الفقر والفاقة وقد فقدوا ما كان لهم من تأثير ونفوذ عند العرب فى الجزيرة العربية

(١) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٤

(٢) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٣

(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ص ٦٤

(٤) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٣

وقد جاء الواقدي بقصة تدل على ما وصل اليه اليهود بعد غزوة خيبر من سوء حال وغضاضة عيش فقال عن انتهت اليه روايته : كانت عادتنا أن نخرج في الجاهلية أثناء القحط من يثرب الى جهات خيبر وفدك حيث كنا نجد عند اليهود الثمار الوفرة والاموال الكثيرة وحيث كنا نقابل منهم بالحفاوة والاكرام فلما أدركنا الضغط الشديد بعد غزوة خيبر خرجنا اليها كعادتنا فوجدنا الدهر قد انقلب عليها ووجدنا الجذب قد ضرب أطنابه فيها حتى لم نجد أحداً من الاغنياء والاشراف بل كان معظم أهلها في فقر مدقع يجهدون أنفسهم في أعمال الفلاحة وكذلك لم نجد من بينهم من يقابلنا بتلك الحفاوة التي اعتدناها منهم في الجاهلية بل كانوا ينظرون إلينا بعين البغض والانتقام وكان يهود نطاة والشق في سوء شديد أما في آطام الكتيبة فقد شعرنا بأن حالة السكان أحسن فأقمنا بينهم مسرورين^(١)

وهذه الوثيقة التاريخية أكبر برهان على سوء حال اليهود في خيبر بعد الغزوة فضلاً عن أنها تؤكد ما جاء في سيرة ابن هشام عن الدمار والخراب الذي أصاب خيبر أثناء الغزوة

أما وجود منطقة الكتيبة في حالة أحسن مما كانت عليه منطقتا نطاة والشق فيرجع الى أن أغلب آطامها صالح الرسول فأقامهم على أراضيهم ولم يمس الانصار من حدايقهم وذرايرهم شيئاً

البَابُ التَّاسِعُ

اجراء اليهود عن البدر الحجازية

وقوف الخصومة بين اليهود والمسلمين بعد غزوة خيبر — عبد الله بن أبى واليهود — وجود عناصر يهودية فى المدينة طول حياة الرسول — كتب الرسول الى بطون العرب واليهود — الصحيفة الى آل بنى حنينة — رأى صاحب فتوح البلدان فى هذه الصحيفة — اكتشاف نص الكتاب فى المقبرة اليهودية بمصر — رأى المؤلف فى هذه الصحيفة — حالة اليهود فى البلاد الحجازية بعد وفاة الرسول — لماذا طرد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أغلب يهود خيبر ؟ — أحاديث نبوية فى هذا الموضوع — قصة ابن هشام فى اجلاء عمر بن الخطاب طوائف اليهود — رأى ابن سعد صاحب الطبقات فى هذا الموضوع — صحيح البخارى وأحاديثه فى هذا الموضوع — وجود اليهود فى بلاد الحجاز الى نهاية القرن الحادى عشر للميلاد -- بقايا طوائف اليهود فى بلاد العرب الى الآن

قلنا إنه كان من نتائج غزوة خيبر ان قضى قضاء تاما على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت لليهود فى اقاليم الحجاز وقد ترتب على هذا أنه انقطعت الخصومة بين المسلمين واليهود ووقف تيار المطاعن والمثالب التى كانت متبادلة بين الطرفين ويدل على ذلك أن الرسول لم ينزل عليه شئ كثير من الآيات القرآنية التى تتضمن ذم اليهود والطعن فيهم بعد هذه الغزوة على خلاف ما كان من ذلك فى الفترة التى كانت بين يوم بدر وغزوة خيبر وقد عاش اليهود الذين لم ينزحوا من الحجاز مطمئنين لا يمسهم أحد بسوء وعاد عدد منهم الى المدينة بدليل ماجاء لبعضهم من ذكر فى سيرة ابن هشام وفى

كتاب المغازى للواقدي وقد استنتجت مما قرأت في هذين الكتابين عن البقية الباقية من اليهود في المدينة بعد غزوة خيبر أنهم كانوا جميعاً من بنى قينقاع وقد كان هؤلاء قد جلوا عنها فما هو السر في عودتهم اليها وما هي الاسباب التي دعت الى ذلك ؟ لم يكن من سبب لاجلاء بنى قينقاع عن المدينة الا امتناعهم عن اعتناق الدين الاسلامي فهم لم يرتكبوا شيئاً من الجرائم التي توغر صدور المسلمين وتملؤها بالحق والصفينة عليهم بعد توطيد سلطانهم وتثبيت قواعدهم واذن فليس ما يمنع من عودة بعض الاسر من بنى قينقاع الى المدينة واستيطانهم فيها لا سيما وان وجودهم في المدينة كان ضرورياً للانتفاع بهم في استثمار الاموال الكثيرة التي جلبت الى يثرب من غنائم البطون العربية واليهودية المغلوبة على أمرها وكان بنو قينقاع يحسنون كثيراً من الصناعات لا سيما صناعة الصياغة

أما العرب فلم تكن لهم خبرة بهذه الصناعات من أجل ذلك تغاضى الانصار عن رجوع بعض اليهود الى يثرب فأقبل عدد منهم عليها وعكفوا يعملون في أعمالهم القديمة

ولما توفي عبد الله بن أبي بكى عليه اليهود ووقف النبي على قبره وعزى ابنه وألبسه قميصه^(١)

وقد خرجت نساء الاوس والخزرج جميعاً الى جميلة ابنة عبد الله وشاركنها في البكاء عليه وضربن بأيديهن على وجوههن وكثر القوم من بنى قينقاع والمناقون حول سريره حين لفظ نفسه الاخير أثناء مرضه فأغضب ذلك ابنه الحنيف حتى هم في ذات يوم أن يغلق الباب في وجههم فمنعه والده وقبح فعله وأنهى عليه باللائمة وقال له دعهم فان قربهم مني يشفي صدري العليل ويخفف من آلامي فقد شاركوني فيما نزل بي من النوائب وقد كان عبد الله بن أبي مبجلًا

فيهم حتى قالوا له يا عبد الله نود أن نفديك بدمائنا وأموالنا . . . ولما مات أرادوا أن يستأثروا بدفنه دون الأنصار ولكن عبادة بن الصامت أمر بضربهم وقام المسلمون بأعمال الدفن وظل الرسول أثناء ذلك واقفاً لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الضريح بالتراب وتوارت الجثة عن العيون وأخذ بنو قينقاع والمناقون ينفشون التراب على رؤوسهم من شدة الحزن والالم . . . (١)

وقد أثرت هذه النصوص التي نقلتها آنفاً في العلماء المستشرقين وحملتهم على أن يشكوا في صحة بعض الأحاديث التي تقول إن البقية الباقية من اليهود في المدينة قد تم جلاؤها عنها في حياة الرسول (٢)

ويؤيد شكهم ما وجدنا من روايات ونصوص تاريخية تدل على أن الرسول كان يعامل اليهود بعد غزوة خيبر بروح التسامح حتى انه أوصى عامله معاذ بن جبل (بأن لا يفتن اليهود عن يهوديتهم) (٣)

وعلى هذا النحو عومل يهود البحرين اذ لم يكلفوا الا دفع الجزية وبقوا متمسكين بدين آبائهم . . . (٤)

وقد دخل يهود بني غادية وعريض في حلف الرسول كما يحدثنا ابن سعد في مصنفه عن (بعثة رسول الله الرسل بكتبه) : وكتب رسول الله : بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبني غادية أن لهم الذمة وعليهم الجزية ولا عدى ولا جلاء الليل مد والنهار شد وكسب خالد بن سعد وهم قوم من يهود . . . وكتب رسول الله بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله لبني

(١) الواقدي ص ٤١٥

(٢) ولصاحب كنز العمال حديث يقول ان عمر أجلى اليهود من المدينة فقالوا أقرنا الرسول وأنت تخرجنا قال أقركم النبي وأنا أرى أن أخرجكم فأخرجهم من المدينة (ج ٢ ص ٣٠٣) : (حديث ٦٣٥١)

(٣) البلاذري ص ٧١

(٤) البلاذري ص ٧٨

عريض طعمة من رسول الله عشرة أوسق قح وعشرة أوسق شعير في كل حصاد وخمسين وسقا تمرا بوفون في كل عام لحينه لا يظلمون شيئاً وكتب خالد بن سعيد وبنو عريض قوم من يهود^(١)

وأهم من كل هذا تلك الحقوق والامتيازات التي منحها الرسول لآل بني حنينة وأهل مقنا فقد وصلت إلينا وثيقة تاريخية في هذا الصدد من مرجعين مختلفين ونحن ننقل النصين لنقارن بينهما ونستخلص منهما بعض النتائج المرتبطة بموضوعنا

يقول صاحب المرجع الأول وهو البلاذري : إن الرسول صالح أهل مقنا وبني حبيبة (الصواب حنينة) على ربع عروكهم وغزولهم (العروك خشب يصطاد عليه) وربع كراعهم وحلقتهم وعلى ربع ثمارهم وكتب إليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا سلم أتم فانه أنزل على أنكم راجعون إلى قريتكم فاذا جاءكم كتابي هذا فانكم آمنون ولكم ذمة الله وذمة رسوله وأن رسول الله قد غفر لكم ذنوبكم وكل دم اتبعتم به لا شريك لكم في قرينكم إلا رسول الله يجبركم كما^(٢) يجبر منه نفسه فان لرسول الله بزتكم ورقيقكم والكراع والحلقة إلا ما عفا عنه رسول الله أو رسول رسول الله وأن لكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم وربع ما صادت عرككم وربع ما اغتزلت نساؤكم وانكم قد تربتم بعد ذلك ورفعكم رسول الله عن كل جزية وسخرة ان سمعتم وأطعتم أن يكرم كريمكم ويغفو عن مسيئكم ومن ائتمر في بني حبيبة (حنينة) وأهل مقنا من المسلمين فهو خير له ومن أظلمهم بشر فهو شر له وليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول الله . . .

(١) بعثة رسول الله الرسل بكتبه : ابن سعد ص ١٨ طبع العالم Wellhausen : برلين

(٢) لعلها : مما

وكتب على بن أبي طالب في سنة ٩ . . . (١)

ويضيف المؤلف الى هذه الوثيقة التاريخية أنها وصلت اليه من بعض أهل مصر الذين رأوا الصحيفة بعينها وهي من جلد أحمر دارس الخط وأما النص الآخر لهذه المعاهدة فقد وصل إلينا بعد اكتشاف آثار قديمة في المقبرة اليهودية بمدينة الفسطاط حيث عثر عليه تحت أنقاض وهذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد رسول الله لحنينة ولأهل خير وآل مقنا وذرائعهم ما دامت السموات والارض

(سلام) أنتم إني أحمد اليكم الله الذي لا إله الا هو . . .

أما بعد فانه أنزل الوحي انكم راجعون الى قراكم وسكنى داركم فارجعوا آمنين بأمان الله وأمان رسوله ولكم ذمة الله وذمة رسوله ولكم ذمة الله على أنفسكم ودونكم وأموالكم ورقيقكم وكل ما ملكت أيما نكم وليس عليكم أداء جزية ولا تجز لكم ناصية ولا توطأ أرضكم ولا تحسدون (ولا تحرشون ؟) ولا تصلحون ولا يجعل أحد عليكم ولا تمنعون من لباس المشققات والملونات ولا من ركوب الخيل ولباس أصناف السلاح ومن قاتلكم فقاتلوه ومن قتل في حربكم فلا يقاد به أحد منكم ولا له دية ومن قتل منكم أحد المسلمين تعمداً فحكمه حكم المسلمين ولا يعتدى عليكم بالفحشاء (ولا تجز لون منزلة ؟) أهل الذمة وان اسنعنتم تعانون وان استرفدتم ترفدون ولا تطالبون ببيضاء ولا بصفراء ولا بسمراء ولا كراع ولا حلقة ولا يقطع لكم شسع نعل ولا تمنعون دخول المساجد ولا تحجبون من ولاية المسلمين ولا يولى عليكم الا منكم أو من أهل بيت رسول الله (واسع ؟) لجنازكم الى أن تصير الى موضع الحق واليقين وتكرموا لكرامتكم

والكرامة صفية ابنة عمكم وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين أن يكرموا
كريمكم ويعفوا عن مسيئكم ومن سافر منكم فهو في أمان الله وأمان رسوله ولا
أكراه في الدين ومن منكم اتبع ملة رسول الله ووصيته كان له ربع ما أمر به رسول
الله لأهل بيته تعطون عطاء قريش وهو خمسون ديناراً ذلك بفضل منى عليكم
وعلى أهل بيت رسول الله وعلى المسلمين الوفاء بجميع ما في هذا الكتاب فمن
اطلع الى حنينه وأهل خيبر ومقنا بخير فهو خير له ومن اطلع له بشر فهو شر له
ومن قرأ كتابي هذا أو قرئ عليه وغيره أو خالف شيئاً مما به فعله لعنة الله ولعنة
اللاعنين من الملائكة والناس أجمعين وهو برىء من ذمتي وشفاعتي يوم القيامة
وأنا كاطمه ومن كاطمني فقد كاطم الله فهو في النار وكفى بالله شهيداً وبملائكته
وبمن حضر من المسلمين وكتب على بن أبي طالب بخطه ورسول الله صلى الله عليه
وآله حرقاً يوم الجمعة للثلاث الاول خلت من رمضان سنة خمس مضت من الهجرة
شهد عمار بن ياسر وسلمان الفارسي مولى رسول الله وأبو ذر الغفاري (١)

ويظهر أن هذه المعاهدة التي استخلص صاحب فتوح البلدان خلاصتها
ووصفها في كتابه إنما كانت معروفة لدى العلماء والمؤرخين من العرب في مصر
وقد حافظ عليها اليهود في مدة قرون طويلة الى أن اندثرت مدينة القسطنطينية في
عهد الفاطميين وأصبحت قاعاً صفصفاً فدفنت هذه الصحيفة تحت أنقاض منازل
يهودية الى أن اكتشفت حديثاً

لكن لا شك أن هذه الصحيفة المفقدة كما لفقت صحائف ومعاهدات كثيرة
جداً بعد أن انتقل الرسول الى دار ربه لأن الذين كانت بأيديهم معاهدات
صحيفة قد أقرهم عليها الخلفاء الراشدون ولم ينقضوا من شروطها شئ (كما
تقول هذه المعاهدة)

وانا لنعلم أن بطوناً عربية كثيرة اندفعت الى تزوير الكتب باسم الرسول وقد حافظت عليها

ولا غرو أن تظهر رسائل ملفقة في عصر الاضطرابات التي حلت في الاقاليم الاسلامية من جراء الخسومة التي ظهرت بين الامام على بن أبي طالب وبين عصابة معاوية بن أبي سفيان بعد مقتل عثمان بن عفان فعلى ذلك قد يكون لنا الحق كل الحق أن نشك في صحة هذه المعاهدة التي نحن بصددنا

لكن ما لا شك فيه أن الرسول قد منح أسراً غير قليلة من أهل خيبر حقوقاً لم يمنحها لبقية اليهود ما عدا الاقرار على الاراضى وابقاءه لهم نصف الثمار فان هذا كان من حق كل يهود خيبر وقد نص على ذلك ابن هشام والبخارى كما نصا على أنه كانت هناك عقود وعهود بين الرسول وبين أسرى يهودية في خيبر كما سيتضح ذلك فيما بعد

أما أسلوب هذه الصحيفة ولغتها ففيها شبه كبير بنصوص المعاهدة الكبيرة التي عقدها الرسول مع اليهود بعد هجرته الى يثرب وهذا حمل بعض المستشرقين على الاعتقاد بان معاهدة من هذا النوع لم تكن ملفقة لانها كانت موجهة الى آل صفية زوج الرسول أى الى حنينة في مقنا وخيبر

وأما الاسباب التي حملتنا على أن نشك في صحة هذه الصحيفة فهي :

- (١) لم يكن المسلمون أثناء حياة الرسول يؤرخون بالهجرة لان هذا لم يتقرر الا في زمن خلافة عمر بن الخطاب على أن سنة خمس التي وجدت في ديل هذه المعاهدة انما تدل على أن كاتبها كان يجهل جهلاً تاماً تاريخ غزوات الرسول
- (٢) لان مسير المسلمين الى خيبر كان في سنة سبع من الهجرة ولا يحتمل أن يعقد الرسول عقداً مع آل زوجه صفية قبل التحاقها به وقد كانت هي السبب الوحيد في منح الرسول آل بنى حنينة تلك الحقوق الكثيرة اذا فرضنا صحة هذه الصحيفة .

(٣) ان السنة الخامسة للهجرة كان النزاع فيها بين الرسول واليهود على أشد ما يكون من الحدة والقوة وقد نزل في تلك السنة بعض آيات قرآنية تكاد تكون من نار تطعن في اليهود وتؤنبهم تأنيبا شديداً فليس معقولا أن يعقد الرسول في تلك السنة مثل هذا العقد مع أسرة حنينة الخيرية دون أن يكون هناك عامل خاص يدفعه الى ذلك لاسيما أن آل صفية كانوا من زعماء القوم ومن أشدهم معارضة في تنفيذ مشروعات الرسول الدينية والسياسية

(٤) المفهوم أن المعاهدة لم تكن تشمل أهل خيبر ومقنا جميعاً كما جاء في المعاهدة حيث يقول فيها « الى حنينة وأهل خيبر ومقنا » بل كانت موجهة الى حنينة وأهله في خيبر ومقنا لان هذه الحقوق والامتيازات لم تمنح الا لآل صفية دون غيرهم من اليهود وقد غير هذا التلفيق اليسير معنى المعاهدة جميعها

(٥) تنص المعاهدة على أن الرسول يسمح لكل يهود خيبر بان يحملوا السلاح والا يعاقبوا على قنل المشركين فهي حقوق لم تمنح لقوم مغلوبين لانها بمثابة تمكينهم من وسائل الاخذ بالثار والانتقام ممن غلبوهم وأذلوهم

(٦) وتنص المعاهدة على أن كل أهل خيبر يمنحون من العطاء مثل ما يمنح لبطون قريش على أن هذا العطاء بهذا المعنى لم يصرف أيام النبي فضلا عن تحديده بخمسين دينارا

وغير ذلك مما جاء في الصحيفة من الحقوق والامتيازات التي لم تكن الا لآل الرسول دون سواهم من الناس وغير معقول أن الرسول يمنح اليهود حقوقا لم يمنحها لعامة المسلمين وأن يسوى بينهم وبين آل بيته

(٧) على أن حوادث عمر بن الخطاب مع يهود خيبر دليل كاف على عدم وجود حقوق من هذا النوع لكل يهود خيبر كما سنوضح ذلك فيما بعد

على أن هذه العقود التي كانت لبعض الأسر لم تغير بوجه عام الحال التي آل اليها اليهود في البلاد الحجازية لانهم لم يرجعوا الى ما كانوا عليه في الجاهلية

من ثروة طائلة وسلطان كبير بل أخذوا في التدهور شيئاً فشيئاً ولم تفد كل الظروف الحسنة التي صادفتهم بعد ذلك في إيقاف حركة هذا التدهور

والسبب في ذلك يرجع الى المراقبة الشديدة التي وضعت على حاصلاتهم الزراعية وثمار أشجارهم التي كانوا يدفعون نصفها لاصحاب الاسهم من المسلمين أما النصف الباقي فلم يكن كافياً لتموين سكان خيبر ولم يكن ذلك كفيلاً بأن يوجد لهم كحالتهم الاولى . . .

ثم جاء عمر أمير المؤمنين فأمر باجلاء أغلب بطون اليهود من خيبر وفدك كما يذكر ذلك ابن هشام فيقول : كان الرسول يبعث عبد الله ابن رواحة الى خيبر فيقسم ثمارها ويعدل عليهم في الخرص فلما توفي الله نبيه أقرها أبو بكر بأيديهم على المعاملة التي عاملهم عليها الرسول حتى توفي ثم أقرها عمر صدرا من امارته ثم بلغ عمر أن رسول الله قال في وجهه الذي قبضه الله فيه لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثبت فأرسل الى اليهود فقال ان الله عز وجل قد أذن في جلائكم فقد بلغني أن رسول الله قال لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتني به أنفذه له ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتهجهز للجلاء فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله منهم . . . (١)

ومن هنا نستنتج أنه كانت هناك عقود لبعض الاسر اليهودية وأن عمر الذي أمر باجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر وفدك لم يتعرض لليهود وادى القرى وتيما بسوء

ويؤخذ من هذا أن أهل وادى القرى وتيما كان لهم عقد خاص لم يسمح للخليفة باخراجهم من بلادهم لا كما يعتقد بعض مؤرخى العرب أن تيما ووادى

القرى لم تكن من أرض الحجاز لان الحدود فى تلك الازمنة لم تكن معينة بدقة الى درجة أن يقال إن وادى القرى ليس داخلا فى الحدود الحجازية بل بالعكس كان هذا الوادى منطقة تابعة لخيفر الحجازية وكانت اليهود الذين يسكنونه يعتبرون من يهود خيفر

ويلفت العالم Leszynsky نظر الباحثين الى بعض أحاديث تتضمن الامر باخراج اليهود من بلاد الحجاز كحديث : أخرجوا المشركين من جزيرة العرب وحديث أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب وحديث أخرجوا يهود الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب (١) . ويشك العالم المذكور فى صحة هذه الاحاديث ويقول إنها قيلت بعد وفاة الرسول لاغراض خاصة . . . (٢) ثم أن المسلمين لا يعولون على الاحاديث الا اذا كانت صحيحة ولهم فى قبولها ترتيب خاص فأهمها أحاديث البخارى ثم أحاديث مسلم وفى الدرجة الثالثة باقى الكتب الستة

ولابن اسحاق قصة أخرى عن سبب اخراج عمر بن الخطاب طوائف اليهود من خيفر ويقول : حدثنى نافع عن ابن عمر قل خرجت أنا والزبير والمقداد بن الاسود الى أموالنا بخيفر نتعاهدها فلما قدمنا تفرقنا فى أموالنا قل فعدى على تحت الليل وأنا نائم على فراشى ففدعت يداى من مرفقى فلما أصبحت استصرخ على صاحبى فأتيانى فسألانى من صنع هذا بك فقلت لا أدري قال فأصلحنا من يدى ثم قدما بى على عمر فقال هذا عمل يهود ثم قام فى الناس خطيباً فقال أيها الناس ان رسول الله كان عامل يهود خيفر على أنا نخرجهم اذا شئنا وقد عدوا على على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم مع عدوهم على الانصارى قبله لا نشك أنهم أصحابه ليس لنا هناك عدو غيرهم فمن كان له مال بخيفر فليلحق بى

(١) كثر العمال ج ٢ ص ٢٧٤ طبع حيدر آباد — حديث ٥٨٧٣ و ٧٤ و ٧٥

(٢) Die Juden zu Medina ص ١١٣

فانى مخرج اليهود فأخرجهم . . . ولما أخرج عمر اليهود من خيبر ركب في المهاجرين والانصار وخرج معه جبار بن صخر وكان خارص أهل المدينة وحاسبهم فقسم خيبر على أهل جماعة الاسهم . . . (١)

أما ابن سعد فلم يأت بهذه القصص ويقول: ان رسول الله لما أفاء الله عليه خيبر قسمها على ستة وثلاثين سهماً جمع كل سهم مائة سهم وجعل نصفها لنوائبه وما ينزل به وعزل النصف الآخر فقسمه بين المسلمين وسهم النبي فيما قسم بين المسلمين الشق ونطاة وما حيز معها وكان فيما وقف الوطيحة والكتيبة وسالم وما حيز معهم فلما صارت الأموال في يد النبي وأصحابه لم يكن لهم من العمال ما يكفون عمل الأرض فدفعها النبي الى اليهود يعملونها على نصف ما يخرج منها فلم يزالوا على ذلك حتى كان عمر بن الخطاب وكثري يد المسلمين العمال وقوا على عمل الأرض فأجلى عمر اليهود الى الشام وقسم الأموال بين المسلمين (٢)

فعلى ذلك يتضح جلياً أن السبب الذي حمل عمر على اجلاء أغلب طوائف اليهود من خيبر يرجع الى كثرة الأيدي العاملة من الأسرى الذين كثروا عند العرب بعد فتوح بلاد الشام والعراق وفارس وكان هؤلاء الأسرى ذوى خبرة بالأعمال الزراعية كيهود خيبر

ولما كان يهود خيبر يدفعون نصف حاصلات الأرض آثر المسلمون أصحاب الأسهم أن يكون لهم كل هذه الحاصلات ليتمكنوا من تموين أسراهم الكثرين من جهة وليوجدوا لهؤلاء الأسرى عملاً يقومون به من جهة أخرى فأشاروا على أمير المؤمنين باجلاء البطون التي لم تكن لها عقود خاصة مع الرسول ويحدثنا البخاري أن عمر أجلى يهود خيبر الى تباء وأريحاء (٣)

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٧

(٢) ابن سعد ج ٢ ص ٨٢

(٣) البخاري ج ٢ ص ٧٢ — وص ٢٩٠

وللواقدي رواية تؤيد صحة ما رواه البخاري يقول فيها : ان عمر أجلى آل الحارث أبي زينب المشهورين الى اريحاء بأرض فلسطين وكان أحد أبناء الحارث قد التقى في يوم من الأيام بقافلة من الاعراب في جهات أريحاء وهي راجعة من الشام الى خيبر فنزع ابن الحارث الى وطنه وحن اليه واشتد به الشوق حتى آلمه الامر فخطب الاعراب بقوله انه كان يود يوم أجلى عمر أسرته من خيبر أن يدخل في الاسلام حتى لا يبعد عن أرض أجداده ولكنه خشى أن يخنقه الخلف ويقولون لقد ضحى الحارث بحياته وأسرته ووطنه لاجل دينه ودين آبائه فجاء ابنه فغدر به . . . (١)

أما الاسر التي كانت لها معاهدات خاصة مع الرسول فقد أقرها عمر وأقامت على أملاكها وأموالها

وقد بقيت الاغلبية لليهود في وادي القرى الى القرن الحادي عشر وكذلك وجدت طوائف منهم في جهات تبء في القرن الثاني عشر للميلاد ثم انعدم وجودهم في الحجاز وأطرافها شيئاً فشيئاً حتى اختلطوا في بقية الاعراب واندمجوا فيهم وكان ذلك بسبب الضغط الشديد الذي حل بهم في عصور الاضطرابات التي حدثت بعد ان تسرب الوهن والاضمحلال الى الدولة العباسية

أما في بلاد اليمن فقد بقي فيها اليهود طول العصور القديمة ولم يزل لهم وجود في جهات مختلفة من أطراف الجزيرة العربية الى أيامنا هذه رغم الرزايا التي لحقت بهم في ظروف شتى ، والله يحكم لا معقب لحكمه

(١) الواقدي ص ٢٧١



المراجع

تنقسم مصادر هذا الكتاب الى عبرية وعربية وأجنبية

مصادر عبرية

תורה נביאים וכתובים (תנך)

תלמוד בבלי

דברי ימי ישראל ד"ר שמחוני

היסטוריה ישראלית ד"ר קלויזנר

דברי ימי ישראל גרמן

פפורי העתים

مصادر عربية

القرآن الكريم

سيرة ابن هشام

فتوح البلدان للبلاذري

تاريخ الخيس للديار بكرى

صحيح البخارى

كتاب المغازى للواقدي

أمثال الميداني

تاج العروس

طبع مصر

طبع ليدين

طبع أوربا

طبع ليدين

طبع برلين (ترجمة المانية)

طبع مصر

» »

معاهد التنصيص	طبع مصر
نوادير أبي زيد الانصارى	» بيروت
ديوان السموءل لنفطويه	» »
طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي	» مصر
تاريخ اليعقوبى	طبع أوربا
خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى للسهمودى	» بولاق
تاريخ الامم والملوك للطبرى	» مصر
تاريخ ابن خلدون	» »
تاريخ الامم الاسلامية للخضرى بك	
طبقات ابن سعد	طبع برلين
كنز العمال (مجموعة من الاحاديث النبوية)	طبع حيدر آباد بالهند
أديان العرب تأليف الشيخ محمد نعمان الجارم	
بعثة رسول الله بكتبه لابن سعد	طبع برلين
كتاب الاغانى للامام أبى الفرج الاصبهانى	طبع مصر
ديوان الحماسة لابی تمام	طبع مصر
مقالة فى الاسلام من كتب المبشرين	
الروض الانف شرح لسيرة ابن هشام	طبع مصر
معجم البلدان لياقوت	
مجلة الجامعة المصرية	

مصادر افرنجية

(المانية وانجليزية وفرنسية)

R. Dozy : Die Israeliten zu Mekka.

Margolioth : The relation between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam.

Burney : Israel's settlement in Canaan.

Caussin de Perceval L'histoire des Arabes avant L'Islamisme.

Wellhausen Y : Skizzen & Vorarbeiten.

Glaser : Sammlung.

Glaser : Skizzen der Geschichte und Geographie Arabiens bis Mohamed.

Wuestenfeld : Geschichte der Stadt Medina.

Cilvester deSacy : Memoires sur divers evenement de l'histoire des arabes avant Mahomet.

Lamence : Les Juives a la Meque,

Nicholson : A literary history of the Arabs.

Leszynsky : Die Juden zu Medina.

Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft.

Jewish Quarterly Review

Journal Asiatique.



فهرس

صحيفة

الموضوع

مقدمة لحضرة الدكتور طه حسين أستاذ آداب اللغة العربية بالجامعة

المصرية ج — هـ
تصدير للمؤلف و — ك

الباب الاول : اليهود في بلاد الحجاز ١ — ٣٤

الباب الثاني : ظهور اليهودية في بلاد اليمن ٣٥ — ٤٩

الباب الثالث : بطون يثرب وحوادثها وعلاقاتها باليهود ٥٠ — ٨٠

الباب الرابع : أحوال العرب الاجتماعية والدينية والسياسية في

بلاد الحجاز قبيل ظهور الاسلام ٨١ — ٩١

الباب الخامس : مكة ويثرب ازاء الحركة الاسلامية ٩٢ — ١٠٩

الباب السادس : هجرة الرسول الى يثرب واجلاؤه بنى قينقاع

والنضير عنها ١١٠ — ١٣٢

الباب السابع : غزوة بنى قريظة ١٣٣ — ١٥٦

الباب الثامن : غزوة خيبر ١٥٧ — ١٧٤

الباب التاسع : اجلاء اليهود عن البلاد الحجازية ١٧٥ — ١٨٦

المراجع ١٨٩

To: www.al-mostafa.com